السبت 28 كانون الثاني 2023
العدد 4836 السنة السابعة عشرة
Samedi 28 Janvier 2023 no 4863 17ème année

24 صفحة
20000 ليرة

الأخبار
al-akhbar
www.al-akhbar.com

كلمات

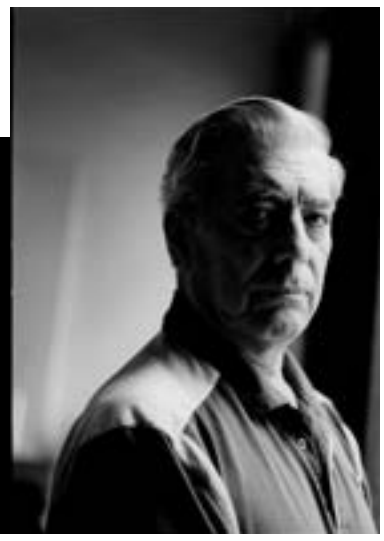

يوسا في خريفه
اكتمال قوس
الردّة

القدس تنتقم لجنين: فدائي «استثنائي» يوجع العدو ويرعبه [9]

تحالف التنقيب في بيروت اليوم: 4,4 مليار قدم مكعب من الغاز في بلوك 9

عويدات يجمع أدلّة تدين البيطار وتطيحه [2]

عبدالله الثاني ابن سلمان يتآمر علينا

[8 ـ 9]

(أ ف ب)

البلاد

شتات

هجرة أبناء المخيمات:
طريق آلام ووطنان
[12]

فحوى الهوية بين بحر وبحر
[14]

كيف نجد شمس فلسطين... في أوروبا؟
[15]

قضية اليوم

عويدات يجمع أدلة تدين البيطار وتطيحه

لم تحمل المشاورات السياسية أمس جديداً في ما يتعلق بمصير المحقق العدلي في ملف تفجير المرفأ القاضي طارق البيطار. فيما ركّزت المداولات الجانبية على السبل الكفيلة بحل الأزمة التي شلّت المؤسسة القضائية، والتي ينبغي أن تفتح النقاش حول واقع هذه السلطة، بعيداً من الشعارات البراقة حول استقلالية القضاء والتدخل السياسي في عمله.

وترافق ذلك مع الانشغال بالانعكاسات الأمنية المحتملة لتسارع الانهيار الاقتصادي في ظل ارتفاع سعر صرف الدولار إلى مستوى غير مسبوق، خصوصاً أن بعض الراغبين في الانفجار الأهلي، كانوا يستعدّون لاستخدام الملف المعيشي، إلى جانب ملف المرفأ، لقيادة تحرك غير محسوب النتائج يمكن أن يودي بالبلاد إلى فتنة

> **سلامة يبتزّ التحقيق بأموال اللبنانيين واحتمال رفع سعر دولار «صيرفة» إلى 45 ألف ليرة**

كبيرة، في ظل خلاف سياسي داخلي عميق حول الملف الرئاسي وانشغال دولي عن لبنان وملفاته، وهو ما عبّر عنه المدير العام للأمن العام اللواء عباس إبراهيم، عقب زيارته لبكركي أمس، معرباً عن «خشية من عودة إلى الشوارع».

في الملف العدلي، لفتت مراجع قضائية إلى مؤشرات على سحب «الغطاء الدولي» الذي رافق البيطار منذ تسلّمه الملف. إذ لم يعد بعض الخارج يرى في عمله ما يساعد في وصول هذا الملف إلى خواتيمه. والأمر نفسه ينسحب على قوى بارزة في فريق 14 آذار ومجموعة نواب السفارات والجمعيات، على رغم الصخب الذي أثاروه في اليومين الماضيين. إذ يعتبر هؤلاء أن المحقق العدلي ارتكب خطأ سمح للطرف المقابل بالانقضاض وتعطيل إمكانية استخدام الملف في وجه حزب الله وحلفائه.

وفيما لا يزال التوافق متعذراً على إطاحة المحقق العدلي وتعيين بديل له عبر تأمين النصاب لجلسة لمجلس القضاء الأعلى، استمر السجال حول قانونية الخطوات القضائية التي اتخذت أخيراً، في ظل إصرار البيطار على الاستمرار في عمله محققاً عدلياً في ملف المرفأ، بتغطية مباشرة من رئيس مجلس القضاء الأعلى سهيل عبود. وأكدت مصادر مطلعة لـ«الأخبار» أن لدى مدعي عام التمييز القاضي غسان عويدات أدلة تدين البيطار، سواء في ما يتعلق بـ«اجتهاده» الأخير الذي أعاد وفقه المأخذ على البيطار، توقفه عن العمل نحو ثلاثة عشر شهراً، ومماطلته في مراجعة ملف الموقوفين منذ ذلك التاريخ، ما يحمّله مسؤولية مزدوجة: فهو في حال كان مقتنعاً بأنه ليس مكفوف اليد، يكون قد تأخر في إخراج «أرنب» الاجتهاد القانوني، وبالتالي فإنه وفق الاجتهاد نفسه، ارتكب جريمة بإبقاء موقوفين داخل السجن وتعرضهم لأذى الجسدي والمعنوي. أما في حال كان يتصرف على أساس أنه مكفوف اليد، ثم قرر من تلقاء نفسه العودة إلى العمل من دون انتظار المرجع الذي يقرر مصيره، فيكون قد ارتكب جرم اغتصاب السلطة، ما يوجب ليس إقالته فقط، وإنما أيضاً التحقيق معه ومعاقبته. وتؤكد المصادر أنه في حال عُيّن قاض للتحقيق مع البيطار، كما طالب القاضي عويدات، فإن أدلة أكثر ستظهر إلى العلن تدين المحقق العدلي وتجعله حكماً خارج الملف.

مالياً، بدا واضحاً للجميع، خبراء ماليين وسياسيين ومواطنين، مسؤولية حاكم مصرف لبنان رياض سلامة عن الارتفاع الجنوني في سعر صرف الدولار في الأيام القليلة الماضية، بغية تحذير الجميع في لبنان من تداعيات رفع الغطاء عنه، بعد تسارع التحقيقات الأوروبية حول تورطه في عمليات اختلاس وتبييض أموال، واحتمال ادّعاء القضاء اللبناني عليه. وبعد تجاوز الدولار عتبة الـ 63 ألفاً أمس، واستشعار الجميع خطر لعبة الحاكم بالضغط على المواطنين للابتزاز، بادر الأخير إلى تلبية طلب رئيس الحكومة نجيب ميقاتي بالتدخل. إلا أنه هذه المرة لم يطرح دولارات في السوق بسعر مغاير، بل اكتفى بإبلاغ العاملين معه من صرافين وشركات مالية بأنه لا يريد شراء الدولار، ما أدّى إلى هبوط كبير ومتسارع للعملة الخضراء إلى 55 ألف ليرة، قبل أن ترتفع ليلاً إلى 57 ألفاً، وسط مؤشرات عن احتمال رفع سعر دولار «صيرفة» إلى 45 ألف ليرة. وبحسب بيان صدر عن المكتب الإعلامي لميقاتي، فقد شرح سلامة في اجتماع ضمّه ورئيس الحكومة ووزير المال يوسف خليل، «واقع الأسواق المالية، تمهيداً لعرض الاقتراحات على المجلس المركزي لمصرف لبنان في اجتماعه المقرر الاثنين المقبل».

(الأخبار)

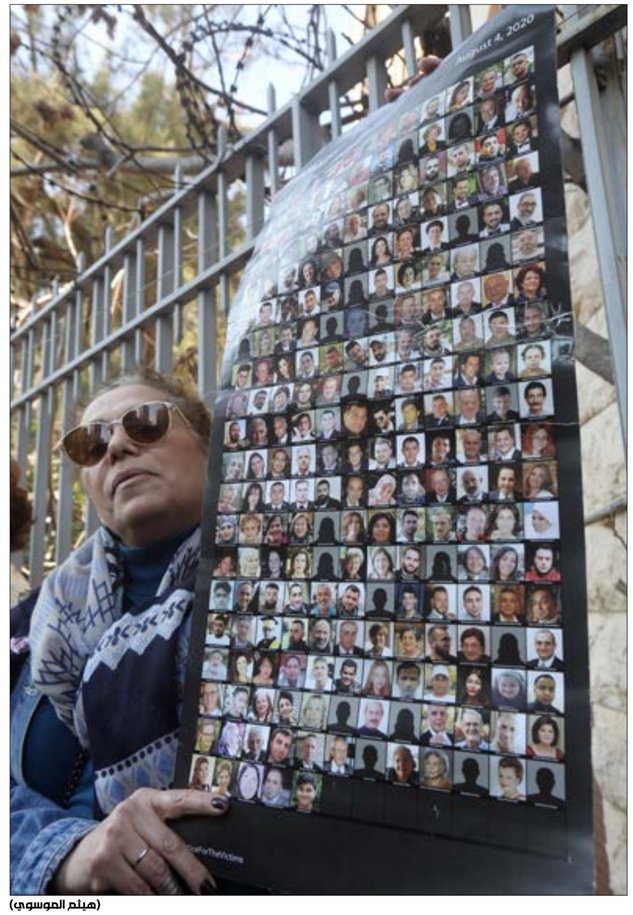

(هيثم الموسوي)

في الواجهة

ما يقوله حزب الله سرّاً أفصح عنه فرنجية علناً

تهاوي دومينو الدولة اللبنانية تباعاً في مواعيد كأنها معدّة سلفاً ليس نهاية العالم. يكاد لا يتبقى حجر لم توشك تماماً على الانهيار لكنها اقتربت منه. من فوق ومن تحت. ما أصاب القضاء أخيراً يجعل الخلاف على انتخابات الرئاسة عادية وربما ثانوية... إلا عند الموارنة

نقولا ناصيف

استكملت زيارة النائب السابق سليمان فرنجية لبكركي الخميس (26 كانون الثاني) والمواقف التي أدلى بها، النتائج السلبية لاجتماع التيار الوطني الحر وحزب الله الاثنين (23 كانون الثاني). قال ما لم يقله الحزب علناً في الأسابيع الاخيرة: ما ان يترشح لا يسحب ترشيحه. لا يوصد الأبواب دون سواه، وذلك طبيعي لمَن يتمسك بترشيحه كحق دستوري كما قال، الا انه قدّم مواصفاته للترشح مضيفاً انه موجود. ببساطة، ترشح من دون ان يترشح. ذلك طبيعي ايضاً لشخصية سمتها الاساسية أنها شفوية ومباشرة.

من المألوف عندئذ ان يُفسَّر كلام فرنجية ان لا plan B عنده شأن ما كان يقوله الرئيس ميشال عون في حملته الانتخابية حتى وصوله الى قصر بعبدا عام 2016. ما جزم به نائب زغرتا سابقاً انه يعلن ترشيحه عندما يضمن أصوات الفوز.

ذلك كله يقوله كاملاً حزب الله في السرّ ويقول نصفه او أقل من نصفه في العلن. لم يُرد في استحقاق 2014 - 2016، على غرار عون، ان يكون لديه plan B مفضلاً الانتظار الى ان يلتحق الجميع به، وذلك ما حدث فعلاً. ليس معروفاً عنده، على الأقل في قراراته وخياراته وتحالفاته ومجازفاته، انه معتاد على الانتقال من خطة (ألف) الى خطة (باء). كذلك في الاستحقاق الحالي. في جانب من الحوار الذي دار الاثنين بين النائب جبران باسيل وموفدَيْ الحزب حسين خليل ووفيق صفا ما يعكس دوران انتخابات رئاسة الجمهورية، إلى اشعار آخر، في الخطة (ألف) فقط. كأن لا سواها. يومذاك قال باسيل لهما، على ما يُنقل عن مطلعين على المداولات: «خرجت من لقائي سماحة الامين العام من دون ان ألمس انه يتمسك تماماً بسليمان فرنجية؟».

ردّ وفيق صفا: «كيف ذلك؟ أنا كنت حاضراً الجلسة. قال لك سماحة السيد انكما اثنان مرشحا الحزب. انت وسليمان. قال ان انتخابك رئيساً غير وارد الآن ولم يعد من خيار سوى سليمان فرنجية. اذا كان سماحة السيد مؤدباً فلم يفرض ولم يطلب، فذلك لا يعني انك لم تلمس انه كان مؤدباً وقال انه يريد سليمان».

في جزء آخر من الحوار الذي لم يخلُ في بعض محطاته من نبرة عالية وتأكيد تناقض المواقف، قول حسين خليل لرئيس التيار الوطني الحر: «أعطني اسماً، اسماء ترشحها؟».

أجابه باسيل انه لا يزال يضع مواصفات و«من المؤكد ان المواصفات التي أضعها ستجاريني فيها».

سأله خليل: «مَن تنطبق عليه هذه المواصفات. اعطني اسماء x او y او z نضعها قبالة سليمان فرنجيه ونختار بعد ذلك».

ليس المقتطفان هذان سوى جزء من حوار متعذّر بين الفريقين من أوله الى آخره، الى حدّ يسع اي احد الاستنتاج السهل بأن «تفاهم مار مخايل» لفظ أنفاسه أخيراً. ميت بحكم الواقع. كلا المتحاورين لم يتزحزح عن مواقفه السابقة للاجتماع، ولم يتمكن اللقاء من تذليل الحد الادنى من التناقض، فغادروا الجلسة دونما الاتفاق على اجتماع ثان يستكمل ما بدأ. فقط تفادي تخاطبهم السلبي من فوق السطوح.

> **صفا لباسيل: اذا كان سماحة السيد مؤدباً فلم يفرض ولم يطلب، لا يعني انه لا يريد فرنجيه**

ما دار من الاثنين الى الخميس ليس سوى جزء من المأزق الذي يجبهه حزب الله بين حليفين مارونيين، لا يشكو منه شريكه في الثنائية الشيعية الرئيس نبيه بري ولا يربكه بسبب خيارَيْه المعلنين انه الى جانب فرنجيه وعلى طرف نقيض من باسيل. مكمن مشكلة الحزب توصله اخيراً، وإن يتفادى الجهر به، الى ان شراكته مع التيار الوطني الحر بلغت - او اوشكت - خواتيمها. سمع الخلاصة نفسها من باسيل في اجتماع الاثنين. اذ صارح خليل وصفا انه يشعر بفقدانه شراكة حزب الله معه في مسألتين لا يسهل بالنسبة اليه التساهل حيالهما: أولهما مشاركة الحزب في جلستين لحكومة الرئيس نجيب ميقاتي غاب عنهما وزراء التيار فلم يتردد في القول لمحدّثيْه انه لم يكن يتصوّر ان يحدث ذلك، وثانيهما دعم انتخاب فرنجيه لرئاسة الجمهورية. ذهب الى القول ايضاً إن من غير الوارد عنده الخوض في مناقشة ترشيح فرنجية.

لم يعد بين الحزب والتيار سوى تقاطع سلبي واحد، هو انهما معارضان لانتخاب قائد الجيش العماد جوزف عون. لكل منهما اسباب مختلفة عن الآخر. عند باسيل، فرنجية وعون خياران سيئان في المطلق لا يريدهما على قدم المساواة، فيما يعثر الحزب في زعيم زغرتا على الضمان الذي يفتقر اليه قائد الجيش.

في نهاية المطاف ليس ما يحصل سوى دوران في دائرة مقفلة، هي ان المرحلة مقتصرة في الوقت الحالي، الى أمد غير معروف تضاعف فيه الفصول المتتالية للانهيار، على تباري المرشحين المعروفين ليس بينهم الرئيس المفترض انتخابه. كلاهما، فرنجية وعون، خارج هذا السباق. الاول في الظرف الحالي اسم لمسمًّى مختلف هو الاوراق البيض وبعض الاوراق الملغاة، والثاني لا يُنتخب الا على صفيح ساخن كسلفيه عامي 1958 و2008.

(هيثم الموسوي)

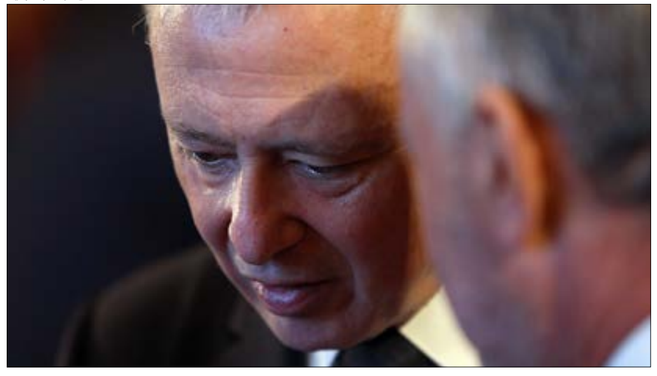

«النداء الأول»:

ازدواجية في رفض «الانقلاب»

للمرة الأولى في مجلس ما بعد انتخابات 2022، يتّفق 40 نائباً ممن يسمون أنفسهم بـ«المعارضة» على خطوةٍ موحّدة. شكلياً وجهوا «النداء الأول» في بيان حمل تواقيعهم. أما قيمته العملية فلا تعدو كونها إعلان موقف غير جديد من الكباش القضائي في قضية المرفأ وملف رئاسة الجمهورية.

على وقع اشتداد الهستيريا القضائية وأحداث وزارة العدل الخميس، عقدت اجتماعات مسائية في بيت الكتائب في اليوم نفسه. وأفضى التشاور بين عددٍ من نواب الكتائب والقوات و«التغييريين» إلى الاتفاق على عقد اجتماع صباح أمس في مجلس النواب وإطلاق موقف موحّد. وفي المعلومات أن «البيان الأساسي صاغه ليلاً في الصيفي النواب سامي الجميل وملحم خلف وجورج عقيص»، ثم أدخلت عليه بعض التعديلات، ووافق على توقيعه 40 نائباً اجتمعوا في المجلس، وتلا وضاح الصادق ما سمي بـ«النداء الأول». وفيه اعترضوا على «الانقلاب المدمر باغتيال العدالة، تبعاً لما تعرّض له القاضي طارق البيطار»، رافضين المساس بصلاحياته، أو إشراك أي قاض رديف في التحقيقات، وإكمال التحقيق من النقطة التي وصل إليها. ما فعله البيطار من اجتهاد مخالف للقوانين، منح لنفسه من خلاله صلاحيات استثنائية، تعاطى معه النواب على أنه قد يكون «مأخذاً»، وفي حال ثبت أنه مخالف «يقدّم أمام المجلس العدلي صاحب الصلاحية للنظر بالأمر». أما اجتهاد مدعي عام التمييز غسان عويدات، فقد حسم هؤلاء أنه «مخالفة واضحة وتدخل بقضية المرفأ»، مطالبين بمحاسبته. مصادر بعض النواب المشاركين في اجتماع أمس أقرت بصعوبة فرض إقالة غسان عويدات، ولكن «علينا تثبيت الموقف وإن لم نستطع تغيير المعادلات».

في المقابل، غابت تواقيع، حليمة القعقور وسينتيا زرازير وأسامة سعد وشربل مسعد عن البيان، ما أثار استياء البعض وغمزاً من خلفيات سياسية تمنعهم.

تقرير

توقيع «قطر إنرجي» مع «توتال» و«إيني» يفتح باب الحفر والتنقيب
4,4 مليار قدم مكعبة من الغاز في البلوك 9

رلى إبراهيم

أولى نتائج ترسيم الحدود بين لبنان والعدو الإسرائيلي تبدأ بالظهور غداً. إذ يستضيف لبنان حفل توقيع انضمام قطر، عبر شركة «قطر إنرجي»، إلى تحالف التنقيب عن النفط الذي يضم «توتال» الفرنسية و«إيني» الإيطالية في البلوكين 4 و9، في ظل مؤشرات على تقدم كبير في الخطوات التنفيذية بما يؤدي إلى نتائج ملموسة قبل نهاية السنة.

وعلمت «الأخبار» أن لبنان تلقى معطيات مهمة حول أعمال الحفر والتنقيب وبرنامج عمل «توتال» السنة الجارية، إضافة إلى تقديرات أولية تشير إلى أن البلوك رقم 9، حيث يوجد حقل قانا وحقول أخرى، يحتوي على نحو 4,4 مليار قدم مكعبة من الغاز، موزعة على ثلاث آبار، وهي كمية تفوق احتياطيات حقل كاريش داخل المياه الفلسطينية المحتلة.

ويتوقع أن يصار إلى التدقيق النهائي في هذه الأرقام خلال وقت قريب، ما يسمح باستخدامها في رفع مستوى التصنيف الائتماني للبنان، واجتذاب مستثمرين للعمل في قطاع الطاقة، إلى جانب بدء نقاش عملاني حيال الاستفادة من الغاز لتغذية مشاريع الكهرباء والتدفئة والغاز المنزلي، ما يقلص الفجوة في الميزان التجاري ويعزّز إيرادات الدولة.

> **أنجزت وزارة الطاقة كل القرارات الاستثنائية الضرورية لتسيير الملف تحسباً للفراغ الرئاسي**

النقاشات التي بدأت في باريس الشهر الماضي حول البرنامج الزمني لعمل «توتال»، باعتبارها رأس التحالف، تطرقت إلى تسريع أعمال التنقيب والاستخراج. إذ يتوقع الجانب الفرنسي بدء أعمال الحفر بين أيلول وتشرين الأول المقبلين، وينتهي منها قبل نهاية السنة، فيما يعمل لبنان بالتعاون مع الجانب القطري على تقريب هذه المدة، وتتركز الجهود على توفير متطلبات «الورشة» كلها، من افتتاح المكاتب الرئيسية للتحالف في بيروت (يبدو أن «توتال» تخلت عن فكرة إقامة مراكز لها في صور أو الساحل الممتد حتى الناقورة) وتوفير مستلزمات لوجستية لمتابعة الأمور المتعلقة بحماية البيئة والثروة السمكية وغيرها.

كما تتولى الدوحة، من جهتها، اتصالات لتوفير حفارة في ظل نقص عالمي في عدد الحفارات بسبب انشغال غالبيتها في العمل في أكثر من منطقة في العالم، خصوصاً بعد الحرب الأميركية على روسيا وتنامي الطلب على الغاز في أوروبا.

ويحضر حفل توقيع انضمام قطر إلى التحالف، وزير الطاقة القطري سعد الكعبي بصفته الرئيس التنفيذي لـ«قطر إنرجي»، وقد سبقه نائب الرئيس التنفيذي للشؤون التجارية وتطوير الأعمال في الشركة جاسم المرزوقي، إضافة إلى ممثلي «توتال إنرجي» بقيادة رئيسها التنفيذي باتريك بوياني ومدير الشؤون العامة لابو بيسنالي، ويحضر عن «إيني» رئيسها التنفيذي كلاوديو ديسكالزي.

وبموجب التوقيع، تحصل الشركة القطرية على كامل حصة «نوفاتيك» الروسية (20%) التي انتقلت إلى لبنان بعد مغادرة الشركة التحالف، إضافة إلى 5% من كلّ من «توتال» و«إيني». إذ كان الحصول على 30% أحد شروط الشركة القطرية للدخول في التحالف، خصوصاً أنها من أكبر الشركات العاملة في مجال الغاز في العالم. وبعد التوقيع تنخفض حصة كل من «توتال» و«إيني» إلى 35%. فيما لم يحصل لبنان على أي تعويض جراء دخول قطر إلى التحالف واستحواذها على حصة «نوفاتيك»، على رغم أن الشركة الروسية سبق أن سددت حصتها من التكاليف للحفر في البلوك رقم 4. وبذلك تستفيد قطر من المعلومات التي صارت متوافرة بعد الحفر الأول. ليصبح حصول لبنان على أي أرباح مرتبطاً بالانتهاء من أعمال الاستكشاف والحفر. إذ تنص اتفاقية الاستكشاف على أن تقتطع الشركة المُشغّلة تكاليفها مباشرة (في حال وجود غاز) على أن تتقاسم الأرباح مع لبنان بنسب تُحدّد وفق عوامل عدة، منها كمية الغاز المستكشف والأسعار العالمية. وتتراوح الحصة الإجمالية للبنان بين 54,9% و62,7%.

التوقيع على التحالف بين الشركات الثلاثة والوزير الممثل للدولة اللبنانية سيتم رمزياً في مكتب وزير الطاقة وليد فياض، يليه توقيع رسمي في السراي الحكومي بحضور الرئيس نجيب ميقاتي.

وقد عملت وزارة الطاقة على أن يكون المشاركون في التوقيع من أرفع المستويات. وتولى فياض توجيه دعوات خاصة إلى نظيره القطري ومسؤولي الشركات. كما رتّبت الوزارة كلّ الإجراءات المتعلقة بالحدث.

وفيما يسود تخوّف من دخول هذا الملف نفق التجاذبات السياسية والخلافات المرتبطة بانعقاد جلسات مجلس الوزراء، أكد وزير الطاقة أنه «سبق للوزارة أن أنجزت كل القرارات الاستثنائية الضرورية لتسيير الملف تحسباً للفراغ الرئاسي، سواء في ما يتعلق بانضمام قطر إلى التحالف أو التنقيب أو الاستحصال على الموافقات والرخص وغيرها». كما يفترض أن بدء الأعمال لا يحتاج إلى قرارات حكومية إضافية، بل يكتفى بقرارات تنفيذية تصدر عن وزارة الطاقة.

(أرشيف - مروان طحطح)

تقرير

خلاف الوزير والقائد هل «يطيّر» المحكمة العسكرية؟

يُهدّد الخلاف بين وزير الدفاع موريس سليم وقائد الجيش جوزيف عون بتوقف أعمال المحكمة العسكريّة، إذ كان يفترض تشكيل هيئات المحكمة (الدائمة والاحتياطيّة والتمييز) مع بداية العام 2023، وهو ما لم يحصل. يعزو سليم الأمر إلى «إجراءات روتينيّة»، فيما يؤكّد متابعون أنّ الأمور ليست كذلك

لينا فخر الدين

منذ شغور موقع الرئاسة الأولى، زاد تأزّم العلاقة بين وزير الدفاع موريس سليم وقائد الجيش جوزيف عون. بعد الصراع على الصلاحيات في المفتشية العامة والمديرية العامة للإدارة، جاء الدور على المحكمة العسكرية المهدّدة بالتوقف.

فمنذ بداية العام، كان مفترضاً أن يتسلّم العقيد خليل جابر الذي جرى فصله منذ 3 أشهر، زمام الأمور في «العسكرية» على رأس الهيئة الدائمة فيها، وهو ما لم يحصل، إذ لا يزال العميد روجيه حلو يُسيّر الجلسات باعتباره رئيساً للهيئة الاحتياطيّة في غياب الهيئة الدائمة، فيما يُسيّر المقدّم مارون طنّوس أمور المحكمة الإداريّة من توقيع البريد وجدولة الملفّات، ويجلس جابر في مكتبه أو على قوس المحكمة ولكن ليس بصفته رئيساً.

المشكلة أن حلو يُحال على التقاعد بعد أقلّ من شهر ونصف شهر. وفي حال عدم نجاح الوساطات بين الوزير والقائد، ستتوقف أعمال المحكمة العسكريّة حكماً لأنّ جابر لا يُمكن أن يقوم بعمله الرسمي من دون قرارٍ من سليم بتشكيل الهيئات.

هي الأزمة نفسها تتكرر بإصدار قائد الجيش قرارات فصل في انتظار أن يصدر وزير الدفاع قرارات التشكيل للضباط المفصولين، وإن كانت سلطة قائد الجيش على «العسكرية» مختلفة عنها على المفتشيّة العامّة والمديريّة العامّة للإدارة باعتبار الأخيرتين تابعتين لوزارة الدفاع،

> **رفض سليم التوقيع على قرار هيئات «العسكرية» لوجود ملاحظات على بعض الأسماء**

علماً أن الأزمة في «العسكريّة» مُغايرة وسابقة للخلافين الأخيرين، إذ اختير جابر بعد تشاور بين سليم وعون كونه يحمل شهادة دراسات عُليا في القانون وبعد موافقة الثنائي الشيعي. إلا أن وزير الدفاع رفض بعض الأسماء المرشّحة إلى رئاسة أو عضويّة هيئات المحكمة: الدائمة، الاحتياطية، والتمييز. وتمحورت ملاحظاته حول ثلاثة أسماء:

- قائد الشرطة العسكرية العقيد طوني شديد لرئاسة الهيئة الاحتياطيّة. إشكاليّة وزير الدّفاع لم تكن على الاسم، وإنّما لكون شديد هو المسؤول عن الجهة التي تُحقّق (التحقيق الأولي) مع الموقوفين في وزارة الدّفاع، وبالتالي لا يُمكن أن تكون الضابطة العدليّة هي نفسها السلطة القضائيّة التي تُصدر أحكامها على الموقوفين أنفسهم. إلا أن سليم تراجع عن رفضه بعدما اقتنعه المعنيون بأن شديد لا يوقّع أصلاً على محاضر التحقيق الأولي ولا يحضر جلسات التحقيق.

(هيلم الموسوي)

- تردّد أن لدى الوزير اعتراضاً على أن يكون العقيد علّام بوضاهر عضواً في الهيئة الدائمة حتى لا تكون مؤلفة من عقيديين.

- رفض سليم تعيين العقيد ريمون فرحات عضواً في محكمة التمييز العسكرية استناداً إلى أن فرحات كان عضواً في الهيئة الدائمة، وبالتالي لا يجوز لعضو أن يقبل أو يرفض طلب التمييز في حكمٍ ذاكره ووقّع عليه سابقاً.

وفيما يؤكد متابعون أنّ مسألة الأسماء حُلّت مع رضوخ المجلس العسكري في الجيش لمطالب الوزير و«تطيير» الأسماء التي كان يرفضها، إلا أن الخلاف بينه وبين قائد الجيش عاد وعرقل الأمور، إذ إن المجلس العسكري وافق على تعيين هيئات المحكمة وأرسله إلى الوزير الذي لم يوقّعه، بناءً على القاعدة نفسها للخلافات الأخيرة المستندة إلى عدم قبول الوزير قرارات الفصل التي يصدرها القائد.

سليم: إجراءات روتينية

ينفي وزير الدفاع لـ«الأخبار» أيّ خلافٍ في موضوع «العسكريّة»، مؤكّداً أنّ الأمر «مرتبط ببعض الإجراءات الروتينيّة». ويوضح أنّ جابر الذي فصله قائد الجيش إلى المحكمة هو عضو في الهيئة التأديبية في الجيش، ولا يُمكنه أن يكون عضواً في هيئتين، وبالتالي يحتاج الأمر إلى إصدار مرسوم جديد من قبل رئاسة الحكومة والوزراء المعنيين بفصله عن هيئة التأديب». ويضيف: «وقّعت منذ أيّام قرار فصل جابر عن هيئة التأديب وأرسلته إلى رئاسة الحكومة، في انتظار التوقيع عليه»، مستبعداً أن يتأخر الأمر إلى ما بعد إحالة رئيس الهيئة الاحتياطيّة إلى التقاعد وتوقّف أعمال المحكمة.

مع ذلك، يشير متابعون إلى أنّ الأزمة ليست في الإجراءات الروتينيّة وإنما في مكانٍ آخر، وخصوصاً مع تأخر التّوقيعُ على قرار فصل جابر عن «التأديبية» لأشهر. ويشير هؤلاء إلى أن جابر انقطع منذ فصله إلى المحكمة عن حضور جلسات المجلس التأديبي الذي لا تعارض أصلاً بينه وبين هيئة المحكمة الدائمة، باعتبار أنّ أحكامه لا تُميّز أمامها بل أمام هيئة التمييز العسكريّة خلال 15 يوماً من تبليغه إلى الضبّاط. والأهم أنّ مراسيم التعيين في «التأديبي» هي مراسيم جمهوريّة تُصدر مع بداية كل عام. وبالتالي، مع عدم صدور مرسوم تعيينه في بداية 2023، فإنّه لم يعد عضواً في الهيئة ويُمكن أن يحلّ مكانه عضوٌ آخر من الهيئات الاحتياطيّة، كما يحصل عندما يحال أعضاء في «التأديبي» على التقاعد.

ويعتقد هؤلاء أنّ الأزمة ليست محصورة بالخلاف بين وزير الدّفاع وقائد الجيش، وإنّما في أسماء المرشحين لعضويّة الأعضاء، مشيرين إلى أنّ سليم كان يرغب في أسماء مُحدّدة قريبة منه لم يأخذها المجلس العسكري في الاعتبار.

وجهة نظر أخرى تشير إلى أنّ عدم تكليف هيئات جديدة في المحكمة مرتبط بملفّ خلدة بعدما اتخذ القرار بأن يكون حلو هو من يصدر أحكامه في الملف، لأنه قاد الاستجوابات في المحكمة منذ أشهر، ولأن تكليف هيئة أخرى سيؤخّر إصدار الأحكام للاطلاع على الملف وإعادة جلسات الاستجواب مع الموقوفين.

في المحصلة، لا حلول في الأفق، وفق ما يقول المتابعون، وإن كان آخرون يشدّدون على أنّه لا يمكن توقف عمل المحكمة التي تتكدّس فيها آلاف الملفات رغم انعقادها أكثر من 3 مرّات أسبوعياً مع وجود أكثر من 90 دعوى بين جنح وجنايات في اليوم الواحد. وبالتالي سيعمل المعنيون على حل المسائل الإجرائيّة في أسرع وقت ممكن.

بنك بيبلوس ش.م.ل

رأس المال المدفوع ٦٨٩,١١٣,١٩٨,٤٠٠ ل.ل. الأموال الخاصة ٤,٤٢,١٨٥,٦٧٧,٠٠٠ ل.ل.

الأشرفية، جادة الياس سركيس، تلفون: ٣٣٥٢٠٠ (٠١)، فاكس: ٣٣٩٤٣٦ (٠١)،
ص.ب. ٥٦٠٥ – ١١ بيروت – لبنان

البيانات المالية المجمّعة كما في ٣١ كانون الأول ٢٠٢٢

بيان المركز المالي المجمّع
كما في ٣١ كانون الأول ٢٠٢٢

الموجودات (القيم بملايين الليرات اللبنانية)	٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (غير مدققة)	٣١ كانون الأول ٢٠٢١ (مدققة)
الموجودات		
الصندوق ومؤسسات الإصدار	١٤,٧٦٦,٨٨٠	١٥,٥٤٦,٤٤٠
المصارف والمؤسسات المالية	١,٢٤٩,٢٩٤	١,٢١٣,٨٩٩
قروض للمصارف والمؤسسات المالية وإتفاقيات إعادة بيع	٣٦٢,٠٧٨	٢٨٧,٩٧٣
أدوات مالية مشتقة	٨٠١	٦٣٢
أدوات مالية مصنفة بالقيمة العادلة مقابل حساب الأرباح والخسائر	١٣٥,٨٣٢	٢٤٤,١١٣
صافي التسليفات والقروض للزبائن بالكلفة المطفأة	٢,٠٧٢,٠٥٥	٢,٨١٦,٦٠٥
صافي التسليفات والقروض للجهات المقربة بالكلفة المطفأة	١١,١٦٠	١٠,٨٤٧
المدينون بموجب قبولات	١,٠١٧	٤٨,١١٩
أدوات مالية مصنفة بالكلفة المطفأة	٣,٢٧٢,٠٧٩	٤,٧٧٧,٣١٦
أدوات مالية مصنفة بالقيمة العادلة مقابل عناصر الدخل الشامل الأخرى	١٦٦,٤٩١	١٦٠,٢٩٧
أصول ثابتة مادية	٣,٣٥٥,٥٠١	٢٩٩,١٢١
أصول ثابتة غير مادية	١٦,٩٧٥	١٦,٥٨١
أصول مأخوذة استيفاء لديون	٥٩,٧٤٨	٧٤,٠٥٠
موجودات أخرى	٦٧,٠٨٩	٤٤٦,٨٢١
مجموع الموجودات	**٢٦,٠٧٧,٠٠٠**	**٢٥,٩٤٢,٨١٤**

المطلوبات وحقوق المساهمين
(القيم بملايين الليرات اللبنانية)

	٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (غير مدققة)	٣١ كانون الأول ٢٠٢١ (مدققة)
المطلوبات		
مؤسسات الإصدار	١,٠٤٣,٥٢٠	١,٤٥٥,٧٢٠
المصارف والمؤسسات المالية	١,٣٧٦,٧٠٧	١,١٣٣,٠٥٢
أدوات مالية مشتقة	١,٣٦٢	١,١٩٨
ودائع وحسابات الجهات المقربة بالكلفة المطفأة	١٨,٦٠٨,١٨٣	١٩,٧٧٠,٠٣٠
ودائع وحسابات الجهات المقربة بالكلفة المطفأة	١١٤,٥٢٩	١٢١,١٩٤
تعهدات بموجب قبولات	١,٣٠١	٤٨,٤٠٢
مطلوبات أخرى	٣٦٧,٩٠٦	٢٣١,٧١١
مؤونات لمواجهة الأخطار والأعباء	٤٢١,٣٠٦	٣٥٦,٣٢٤
ديون مرؤوسة وما يماثلها	٣٠,٧٢٨	١٥٩,٠٦٩
مجموع المطلوبات	**٢١,٩٦٥,٥٤٢**	**٢٣,٢٧٦,٧٠٠**

حقوق مساهمي المؤسسة الأم
(القيم بملايين الليرات اللبنانية)

	٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (غير مدققة)	٣١ كانون الأول ٢٠٢١ (مدققة)
الرأسمال - أسهم عادية	٦٨٤,٢٧٣	٦٨٤,٢٧٣
المقدمات النقدية المخصصة لرأس المال	٤٠٧,٢٥	٤,٨٤٠
الرأسمال - أسهم تفضيلية	٤,٨٤٠	٢٢٩,١٤
علاوات إصدار الأسهم العادية	٢٢٩,١٤	٥٩١,٨٣
علاوات إصدار الأسهم التفضيلية	٥٩١,٨٣	٤٧,٢٥
إحتياطيات غير قابلة للتوزيع (قانونية وإلزامية)	١,٠٠٨,٨٤٣	١,٠٢٥,٧٢٥
إحتياطيات حرة قابلة للتوزيع	٩٦,٧٢٢	٩٦,٧٢٢
الأدوات الرأسمالية المعاد شراؤها	(٨,٥٢٤)	(٨,٥٢٤)
خسائر مدورة	(٢٨٥,٦٠٤)	(٢٧٨,٠٨١)
فائض إعادة تقييم العقارات	٢,٨٩٩,٥٦١	٥,٦٨٩
التغيير في القيمة العادلة للموجودات المالية المصنفة بالقيمة العادلة	(١٤,٨٨٨)	(١٦,٠٧٩)
مقابل عناصر الدخل الشامل الأخرى	(١,٤١٢,٣٦٠)	(٢,٣٥٣,٨٣)
نتائج الدورة المالية	(٥١,٨٦٧)	(٦٩٦٨٣)
إحتياطي تحويل العملات الأجنبية	**٤,٠٩٧,٨١٣**	**٢,٦٥٢,٤٦٦**
حصّة حقوق الأقلية	١٣,٦٤٥	١٣,٦٤٨
مجموع حقوق المساهمين	**٤,١١١,٤٥٨**	**٢,٦٦٦,١١٤**
مجموع المطلوبات وحقوق المساهمين	**٢٦,٠٧٧,٠٠٠**	**٢٥,٩٤٢,٨١٤**

بيان المركز المالي المجمّع
كما في ٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (القيم بملايين الليرات اللبنانية)

٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (غير مدققة)	مصارف	زبائن	المجموع
كفالات ومطلوبات محتملة			
كفالات مالية	–	٦,٧٥٤	٦,٧٥٤
كفالات أخرى	١١,٦٠٤	٣٦١,٣٢	٣٧٢,٦٣٦
	١١,٦٠٤	**٣٦٧,٧٨٦**	**٣٧٩,٣٩٠**
ارتباطات			
إعتمادات مستندية	٢٧,٥٩٨	٨٧,٧٥٠	١١٥,٣٤٨
تعهدات تسليف للزبائن	–	٤١٥,٦١٠	٤١٥,٦١٠
	٢٧,٥٩٨	**٥٠٣,٣٦٠**	**٥٣٠,٩٥٨**

٣١ كانون الأول ٢٠٢١ (مدققة)	مصارف	زبائن	المجموع
كفالات ومطلوبات محتملة			
كفالات مالية	–	١٨,٨٥٤	١٨,٨٥٤
كفالات أخرى	١٧,٦٣٥	٣٩٩,٤٤١	٤١٧,٠٧٦
	١٧,٦٣٥	**٤١٨,٢٩٥**	**٤٣٥,٩٣٠**
إرتباطات			
إعتمادات مستندية	٢٤,٥٥٢	٢٣٢,٦٧٧	٢٥٧,٢٢٩
تعهدات تسليف للزبائن	–	٤٦٢,١٣٢	٤٦٢,١٣٢
	٢٤,٥٥٢	**٦٩٤,٨٠٩**	**٧١٩,٣٦١**

بيان الدخل المجمّع
للسنة المنتهية في ٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (القيم بملايين الليرات اللبنانية)

	٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (غير مدققة)	٣١ كانون الأول ٢٠٢١ (مدققة)
الفوائد والإيرادات المشابهة	١,٤٣٢,٩٨٥	١,٦٦٧,٨٤٧
تنزيل: الضريبة على الفوائد	(١١٤,٤٢١)	(٤٧,٠٤٠)
الفوائد والإيرادات المشابهة (بعد تنزيل الضريبة على الفوائد)	١,٣١٨,٥٦٤	١,٥٢٠,٨٤٣
الفوائد والأعباء المشابهة	(٣١٥,٠٠٥)	(٤٧٣,٧٩٤)
صافي الإيرادات من الفوائد	**١,٠٠٣,٠٥٩**	**١,٠٤٧,٠٤٩**
الإيرادات من العمولات	١٥٥,٩٦٣	١١٨,٥٨٤
الأعباء من العمولات	(٦٧٣,٠٥٥)	(٤٤,٨١٢)
صافي الإيرادات/ (الأعباء) من العمولات	**(٥١٧,٠٩٢)**	**٧٣,٧٧٢**
صافي خسائر الأدوات المالية المصنفة بالقيمة العادلة مقابل حساب الأرباح والخسائر	(١,٣١٧,٨٩٥)	(٢٩٢,٧٩)
منها: صافي إيرادات الفوائد	٨٩	١٠٢
صافي أرباح الأدوات المالية المصنفة بالقيمة العادلة مقابل عناصر الدخل الشامل الأخرى	٣,٢٣١	٢,٢٤٠
صافي خسائر الأدوات المالية المصنفة بالكلفة المطفأة	(٣٨,٢٤٠)	(٧,٨٢٥)
إيرادات تشغيلية أخرى	٢٢,٨٧٥	٨,٥١٥
مجموع الإيرادات التشغيلية	**(٨٤٣,٥٢٠)**	**٨٣١,٧٢٢**
صافي خسائر الائتمان	٣٥,٠٥٨	(٤٢٧,٦٥٣)
صافي الإيرادات التشغيلية	**(٨٠٨,٥٠٤)**	**٤٠٤,٦٩**
أعباء المستخدمين	(٢٠٨,٩٢٠)	(١٦٠,٨٤٩)
مخصصات استهلاكات وإطفاء ومؤونات الأصول الثابتة المادية وغير المادية	(٣٣,٨٢٩)	(٢٦,٠٥١)
أعباء تشغيلية أخرى	(٣٢٥,٩٦٧)	(١٢,٥٨٥)
مجموع الأعباء التشغيلية	**(٥٥٨,٧١٦)**	**(٣٧٩,٤٩٠)**
الأرباح/الخسائر التشغيلية	**(١,٣٦٧,٢٢٠)**	**٩٦,٥٧٩**
مؤونات لمواجهة الأخطار والأعباء	(٦٨,٨٩٣)	(٦٤,٦٥٧)
أرباح ناتجة عن استبعاد أصول ثابتة مادية	١١٣	٥٩٠
النتائج قبل الضريبة من الأنشطة التشغيلية	**(١,٤٣٦,٠٠٠)**	**٣٢,٥١٢**
الضريبة على الأرباح	(٦,٤٤٤)	(٥٧,٦٩٩)
النتائج الصافية من الأنشطة التشغيلية	**(١,٤٢,٤٤٤)**	**(٢٥,١٨٧)**
استبعاد مؤسسات تابعة في الخارج		
خسارة السنة الناتجة عن استبعاد مؤسسات تابعة في الخارج	–	(١,٥٨٠)
النتائج الصافية	**(١,٤٢,٤٤٤)**	**(٢٦,٧٦٧)**
خسارة السنة العائدة إلى:		
– مساهمي المؤسسة الأم	(١,٤٢,٣٦٠)	(٢٣,٥٣٨)
– حقوق الأقلية	١١٦	(٣,٢٢٩)
	(١,٤٢,٤٤٤)	(٢٦,٧٦٧)

بيان الدخل الشامل المجمّع
للسنة المنتهية في ٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (القيم بملايين الليرات اللبنانية)

	٣١ كانون الأول ٢٠٢٢ (غير مدققة)	٣١ كانون الأول ٢٠٢١ (مدققة)
خسارة السنة من الأنشطة التشغيلية	**(١,٤٢,٤٤٤)**	**(٢٥,١٨٧)**
خسائر السنة الناتجة عن إستبعاد مؤسسات تابعة في الخارج	–	(١,٥٨٠)
خسارة السنة	**(١,٤٢,٤٤٤)**	**(٢٦,٧٦٧)**
عناصر الدخل الشامل الأخرى:		
عناصر الدخل الشامل الأخرى القابلة للتحويل إلى بيان الدخل في فترات لاحقة:		
صافي خسائر غير محققة على أدوات الدين المصنفة بالقيمة العادلة مقابل عناصر الدخل الشامل الأخرى	**(٣,٠٣٦)**	**(٢,٨٦٧)**
تأثير ضريبة الدخل على عناصر الدخل الشامل الأخرى	٥٤٧	٥١٥
	(٢,٤٨٩)	(٢,٣٥٢)
فروقات تحويل العملات الأجنبية	١٤,٧٠٨	(٤,١٥٨)
صافي عناصر الدخل الشامل الأخرى القابلة للتحويل إلى بيان الدخل في فترات لاحقة	**١٢,٢١٩**	**(٦,٥١٠)**
عناصر الدخل الشامل الأخرى غيرالقابلة للتحويل إلى بيان الدخل في فترات لاحقة:		
صافي أرباح غير محققة على أسهم وحصص مصنفة بالقيمة العادلة مقابل عناصر الدخل الشامل الأخرى	٤,٤٣٥	٨,٨١٢
تأثير ضريبة الدخل على عناصر الدخل الشامل الأخرى	(٧٥٤)	(١,٣٤٧)
	٣,٦٨١	٧,٤٦٥
صافي عناصر الدخل الشامل الأخرى غيرالقابلة للتحويل إلى بيان الدخل في فترات لاحقة	**٣,٦٨١**	**٧,٤٦٥**
مجموع عناصر الدخل الشامل الأخرى للفترة بعد الضريبة	**١٥,٩٠٠**	**٩٥٥**
إجمالي الدخل الشامل للفترة بعد الضريبة	**(١,٤٤٦,٣٤٤)**	**(٢٥,٨١٢)**
خسارة السنة العائدة إلى:		
– مساهمي المؤسسة الأم	(١,٤٤٦,٣٢٥)	(٢٥,٦٧٨)
– حقوق الأقلية	(٢٠)	(١٣٤)
	(١,٤٤٦,٣٤٤)	(٢٥,٨١٢)

سيرة اليمين الإسرائيليّ بشخص بنيامين نتنياهو [7]

أسعد أبو خليل *

تتناول هذه السلسلة الكتاب الجديد لبنيامين نتنياهو بعنوان «بيبي: قصتي»، وهو يتضمّن سيرته السياسيّة وسرديّة اليمين الصهيوني المعاصر (ويتضمّن الكتاب سيرة والد نتنياهو، بنزيون نتنياهو، الذي خلف فلاديمير جابوتنسكي في قيادة الحركة الصهيونية اليمينيّة المنشقّة عن الحركة الصهيونيّة الأمّ). أشرتُ في الأعداد الماضية إلى أنني لن أشير في الاستشهادات إلى عدد الصفحات لأنني قرأتُ الكتاب في نسخة إلكترونيّة وعدد الصفحات ليس نفسه باختلاف البرامج والإعدادات الشخصيّة للقارئ.

يزهو نتنياهو بعدد الغارات التي شنّتها إسرائيل ضد أهداف في سوريا («المرصد السوري لحقوق الإنسان» يفتي دائماً أن إسرائيل لا تصيب إلا أهدافاً عسكريّة لأن قلوب الصهاينة تاريخيّاً رقيقة جداً نحو العرب. وهو أحياناً يبالغ في عدد ضحايا القصف الأميركي والإسرائيلي لزيادة الدعم الشعبي لهما). والغارات الإسرائيليّة هذه أسعدت الأنظمة الخليجيّة التي أخذت على أميركا انخفاضاً في عدوانيّتها في الشرق الأوسط. واتفق بوتين ونتنياهو على التنسيق الدائم في شأن الغارات الإسرائيليّة لمنع حدوث ما يمكن أن يصيب الطائرات الروسيّة بأذى، كما حدث في عام 2018 (لكن نتنياهو حمّل النظام السوري المسؤوليّة عن إسقاط الطائرة الروسيّة). ودعاه بوتين لزيارة موسكو في عام 2018 لحضور حفل ذكرى الانتصار على النازيّة في الحرب العالمية الثانية (من المفارقة ألا يتذكّر الرجل الذي يتأسّف على انهيار الإمبراطوريّة السوفياتيّة الدور الإسرائيلي المؤثّر في الحرب ضد الاتحاد السوفياتي والتجسّس ضد مصالحه). بُهرَ نتنياهو بالقوّة العسكريّة الروسيّة، وزار دول الـ«فايزغراد» والبلطيق وأوكرانيا. كل هذه الدول، يقول نتنياهو، تحترم إسرائيل كثيراً وتنشد الصداقة معها. ويتحدّث عن ذلك الاجتماع في القدس بين مسؤولي الأمن القومي في الولايات المتحدة وروسيا وإسرائيل وأن الكلّ اتفق على ضرورة خروج القوّات العسكريّة الإيرانيّة من سوريا. هذا من صنع من يُطلق بعض الممانعين عليه وصف «بو علي بوتين». كيف ننسى أن بوتين كان خير عون للعدوان والاحتلال الإسرائيلي عبر السنوات.

وفي عام 2016، التقى «سفراء عرب في واشنطن» مع السفير الإسرائيلي في واشنطن، رون ديرمر (وهو وزير حالي مُقرّب من نتنياهو، وصديق مقرّب من يوسف العتيبة، السفير الإماراتي في واشنطن). يقول نتنياهو إن السفراء العرب سألوا السفير الإسرائيلي: «ألا يدرك الأميركيّون أن الفلسطينيّين لا يريدون السلام؟». هكذا يتحدّث المسؤولون العرب مع الإسرائيليّين في الغرف المغلقة. أجابهم ديرمر أن إسرائيل تسعى لخطة «لا تستوجب أن يرفضها العرب وإسرائيل»، وأنها ستكون قاعدة لتطبيع العلاقات «بيننا وبينكم». جلس نتنياهو مع ديرمر ووضعا المبادئ الأساسيّة لتوجيه مفاوضاتهما مع الأميركيّين حول خطة سلام...أميركيّة. والقاعدة التي اعتمدها نتنياهو لسلام يقبله هو، ويقبله معه الحلفاء العرب في الخليج هي: 1) إن على الفلسطينيّين الاعتراف بإسرائيل كدولة يهوديّة ووقف أي مطالبة بأرضهم (هو قال «أرضها»)، و2) في المقابل، تحتفظ إسرائيل بالسيطرة العسكريّة والأمنيّة على غرب نهر الأردن (في المقابل؟ ماذا يجني الفلسطينيّون منها؟ أي أنهم يعترفون بيهودية الدولة الأبدية مقابل تشريع احتلال أبدي على فلسطين). وتصرّ إسرائيل في الخطة على ثوابتها: لا انسحاب إلى حدود 1967 ولا لعودة لاجئ فلسطيني واحد إلى الدولة اليهودية. وتبقى القدس موحّدة كعاصمة لإسرائيل مقابل أن تعترف أميركا بالسيادة الإسرائيليّة على كل المجموعات اليهودية في «يهودا والسامرة». وتمنع إسرائيل الاستمرارية الكيانية للشعب الفلسطيني وتقبل فقط بـ«مواصلات كيانيّة»، أي حق التنقّل في حافلات بين الأراضي المقطّعة في الضفة الغربيّة، وحول المستوطنات اليهوديّة المتنامية.

ونصل إلى الاتفاق الإبراهيمي (هذه التسمية حتماً نابعة من عقليّة مستشرق إسرائيلي هَرِم). يقول عن ثمار التطبيع الإسرائيلي-الخليجي إن الطائرات الإسرائيليّة باتت تطير فوق أرض السعوديّة وإن «الإسرائيليّين تدفّقوا إلى دبي وأبو ظبي والبحرين، وإن أقطاب الأعمال في إسرائيل والخليج انشغلوا بإتمام اتفاقيات، بينما وصلت بضائع خليجية إلى ميناءَيْ حيفا وأشدود. والإسرائيليّون والخليجيّون عانق بعضُهم بعضاً علناً. لم يكن ذلك أقل من معجزة». طبعاً، الواقع كان مختلفاً عن وصف نتنياهو الزهري. الاتفاق المذكور كان على مستوى الطغاة فقط، وطبيعة النظام التوتاليتاري في الإمارات والسعوديّة يستطيع أن يفرض تطبيعاً على الشعب، وأن يمنع أي مظاهر اعتراض، خصوصاً أن لا مجتمع مدنيّاً مسموحاً به في الدولتيْن. في مصر والأردن التطبيع رُفض بالقطع من قبل الشعب، والضغط الخليجي على الأردن ومصر اليوم من أجل أن يقلّدا ويعتنقا وتيرة تطبيع الإمارات سيبوء بالفشل لأن الشعب في البلديْن سيمنع ذلك. ووكالة الـ«إي بي» نشرت أخيراً تقريراً تحدّثت فيه عن خيبة أمل إسرائيليّة من ندرة السياح الخليجيّين في فلسطين المحتلّة. ويقول التقرير إن إسرائيل توقّعت تدفّقاً من السياح من البحرين والإمارات وأن يترافق ذلك مع مظاهر ودّ معهم. لكن بعد سنتين من الاتفاقيات، لم يصل من السياح الخليجيين إلى فلسطين المحتلّة إلا «بالقطّارة» -حسب وصف التقرير- مقابل نصف مليون إسرائيلي وصلوا إلى أبو ظبي ودبي. ولم يزر إسرائيل إلا 1600 إماراتي، حسب وزارة السياحة الإسرائيلية، ولم تعدّ الوزارة رقماً عن السياح البحرينيّين بسبب قلّة عددهم. والعداء لإسرائيل لا يزال قويّاً في بلدان التطبيع الخليجي، حتى حسب استطلاعات «مؤسّسة واشنطن» الملغومة. أكثر من ذلك، إن الاستطلاعات تظهر تدنّي نسبة التأييد للاتفاقيات في البحرين والإمارات. ولم تكن مظاهر الرفض العربي لإسرائيل والإسرائيليّين في الدوحة (أثناء مباريات كأس العالم) إلا دليلاً إضافياً على رفض الشعب العربي لإسرائيل. والشعب الفلسطيني لا يخفي رفضه لزيارات وفود التطبيع. وعندما دبّرت حكومتا الإمارات والبحرين زيارة من قبل «مؤثّرين على المواقع» لفلسطين تعرّضوا للبصق والرمي بالنعال في المسجد الأقصى من قبل أصحاب الأرض. ومشروع التطبيع يعتمد، أوّل ما يعتمد، على طغاة متحكّمين يفرضون السلام مع إسرائيل بالقوة مقابل رضى أميركي ومنافع مالية أو تسليحيّة. يقول نتنياهو: «لقد وضعت أميركا الآن التطبيع على رأس أولويّاتها وهي مستعدّة لتقديم حوافز ملموسة لدول أخرى» كي تشارك في التطبيع. ولا يخفي الزعماء العرب أن دوافعهم من التطبيع هي أميركيّة الهدف محض. يقول وزير الخارجية المغربي لنتنياهو إن هدف التطبيع هو إقامة علاقات أقوى مع أميركا خصوصاً بالنسبة إلى الصحراء الغربيّة. قال نتنياهو: «اتفقنا أن نرى ماذا يمكن لواحدنا أن يفعل للآخر». هذه هي التبادليّة في العلاقة النفعيّة بين دول التطبيع وإسرائيل. دول الخليج تريد من إسرائيل توفير صفقات أسلحة متطوّرة من أميركا، وتريد منها تغاضياً أكبر عن جرائمها ضدّ حقوق الإنسان. والدول العربيّة والأفريقيّة الفقيرة تريد دوراً إسرائيليّاً في حثّ الحكومة الأميركيّة على تقديم مساعدات ماليّة لها (هذا كان حساب الطغمة الموساديّة في السودان).

ويروي نتنياهو القصّة العجيبة عن توفير لقاحات «فايزر» لإسرائيل قبل كل دول العالم قاطبةً. كنتُ أظنّ أن إدارة ترامب هي المسؤولة عن هذه الأسبقيّة في توفير اللقاحات. القصّة تتعلّق بطائفيّة وعصبيّة رئيس شركة «فايزر». اتصل به نتنياهو ولم يكن يعرفه، لكنه سمعَ قبل أعوام من رئيس وزراء اليونان أنه يهودي. الرجل انتشى من اتصال نتنياهو وأخبر نتنياهو أن زوجته لا تقلّ ابتهاجاً بالاتصال مع زعيم الدولة اليهوديّة. ورئيس شركة «فايزر» زعمَ في ما بعد أنه أعطى الأولويّة لإسرائيل لأن نتنياهو كان أوّل المتصلين. أي إن الشركة تبني قراراتها التي تهمّ الصحة العالميّة على أساس المحسوبيّة والواسطة الدينيّة والعلاقة الشخصيّة المبنيّة على رابط الدين. لو أن رئيس الشركة كان مسلماً وأمّن أول لقاحات لدولة إسلاميّة لكان تعرّض للفصل وكان الكونغرس الأميركي سيجري تحقيقاً في هذا الخرق الفظيع لأصول التعامل الخلقي في الأعمال. (وكان نتنياهو يتصل أيضاً برئيس الشركة المنافسة، «موديرنا»، لعلَّ وعسى.) ولا شكّ أن اتصال رئيس حكومة إسرائيل بأصحاب الشركات يحمل في طيّاته ليس فقط وزن القوة العظمى من ورائه، لكنه يحمل أيضاً الخوف لديهم من ردّ طلب زعيم لدولة تستسهل إطلاق وصف معاداة الساميّة على أي كان إذا لم يتماشَ مع مصالحها أو إذا لم يلبِّ طلباتها الكثيرة. ولا يساور القارئ أو القارئة، عندما يقرأ وصفه لحربه ضد غزة في عام 2021، شكّاً أن نتنياهو هو مجرم حرب بحقّ وحقيق. يعترف: «أسقطنا عدة أبراج كان فيها قيادة لـ"حماس"»، ويتبجّح أنه قتل وقصف ودمّرَ، لكن بعدد محدود من الضحايا المدنيّين، حسب زعمه. طبعاً، بايدن لم يتردّد في تقديم كل الدعم لعدوان إسرائيل على غزة لكن كلام بايدن له كان ذا دلالات للمستقبل في العلاقات الأميركيّة-الإسرائيليّة. قال له بايدن: «بيبي. عليَّ أن أُعلمكَ أنني أتعرّض للكثير من الضغوطات من هنا. هذا ليس الحزب الديموقراطي (زمن) سكوب جاكسن». (وسكوب جاكسن كان سناتوراً شهيراً ومن عتاة الصهاينة وهو مسؤول عن التزمّت والتعصّب في التشريع الملائِم لإسرائيل في الكونغرس الأميركي. وكان يجمع بين مرض معاداة الشيوعيّة ومرض معاداة العرب). وهذه الإشارة لبايدن لم تكن تكتيكاً، خصوصاً أن بايدن من الثابتين في دعم عدوان إسرائيل. هو كان يحذّر نتنياهو من أن الحزب الديموقراطي تغيّر عن زمن السبعينيّات. القاعدة الحزبيّة تغيّرت وباتت أكثر تعاطفاً مع الشعب الفلسطيني (بنسبة النصف تقريباً) مع أن اللوبي الإسرائيلي يحرص على الحفاظ على صهيونيّة القيادة الديموقراطيّة في الكونغرس، وقد نجح في ذلك أيما ذلك. وزعيم الديموقراطيّين الجديد في مجلس النوّاب من عتاة الصهاينة، مثلما كانت نانسي بيلوسي التي سبقته في المنصب. (وهذه المعادلة صحيحة في فرنسا أيضاً: حيث إن قاعدة الحزب الاشتراكي معادية للصهيونيّة في أكثرها والقيادة تبقى متعصّبة لإسرائيل—وللسعوديّة أيضاً ربما لأن فرانسوا هولاند رأى ملامح اشتراكية في الوهابيّة).

ولا يخفي نتنياهو قلقه الشديد من خطر داهم يتهدّد إسرائيل: يصف نتنياهو الخطر بـ«المشؤوم»، وهو يتعلّق بهبّة الشعب الفلسطيني في أراضي 1948 أثناء العدوان على غزة في عام 2021. يعترف أنه في ظل الحرب على غزة، «اعتدت مجموعات من العرب الإسرائيليّين المتطرّفين على أحياء يهودية ببنادق رشاشة، وقتلوهم في الأبنية والشوارع». يزعم أن العرب واليهود كانوا يتعايشون سلميّاً وبانسجام قبل ذلك. أي أن نتنياهو يزعم أن العرب تحت حكم الدولة اليهوديّة في أراضي 1948 لم يعترضوا البتّة على عنصريّة وعدوان الدولة قبل العدوان على غزة في عام 2021. ويصف العرب «المعتدين» بأنهم «خليط من المتطرّفين الإسلاميّين والعناصر المجرمة». كم هو التوصيف العدواني والعنصري سهل على دعاة الصهيونيّة تاريخيّاً. الحلّ عند إسرائيل لهذا الخطر العربي الداهم يكمن، طبعاً، في المزيد من القمع للسكّان الأصليّين وفئات من الإنفاق الذي يظلّ أقلّ بكثير من الإنفاق السخي على الأحياء والمدن ذات الأكثريّة اليهوديّة.

(أ ف ب)

هذا الكتاب لنتنياهو لا يختم حياته السياسيّة إذ هو يعود مرّة أخرى ليُتوّج أطول عهد لرئيس وزراء في تاريخ إسرائيل. وصعود وعودة نتنياهو يرجعان لعوامل عدة، أهمّها التغيير الديموغرافي الحاصل: حجم الجالية اليهوديّة الروسيّة زاد في العقديْن الماضييْن وهم في غالبهم من دعاة التصلّب نحو العرب، وارثين عقيدة تتناقض مع سياسات الاتحاد السوفياتي المتعاطفة مع العرب بصورة عامّة. العامل الآخر هو تنامي نسبة الحريديم من السكان اليهود (يحظون من الإنفاق ما يزيد عن حجم الإنفاق في المناطق العربيّة). ويشكّل الحريديم ربع الطلاب اليهود في المدارس الإسرائيليّة، وخُمس الطلاب عامةً في المدارس الإسرائيليّة. يشكّل الحريديم نحو 13% من السكّان لكنّ العائلة الحريديّة لديها ما معدّله سبعة أولاد. نصف رجالهم فقط يعملون وهم يحظون كمجموعة متديّنة بكميّة من الامتيازات والاستثناءات والحظوة الحكوميّة (لا يزال البعض في العالم العربي يظنّ أن إسرائيل علمانيّة ولا يزال البعض يتمثّل بنظامها السياسي الفاسد). إن الفاصل الأساسي في دولة العدوّ هو بين الذين يجنحون نحو تخفيض منسوب العلمانيّة النسبيّة في الدولة، ومن يجنحون نحو زيادة منسوب العلمانيّة النسبيّة. اليسار واليمين لم يعودا القاطع الفاصل في إسرائيل. اليسار مات، كما مات حزب العمل الذي عوّل عليه ياسر عرفات للوصول إلى دويلة فلسطينيّة في الضفة والقطاع. إن التظاهرات العارمة التي عمّت إسرائيل في الأيام الماضية لا علاقة لها بالموقف من العرب أو الدولة الفلسطينيّة. هي كلّها مسائل تخصّ اليهود في الدولة، مع التجاهل التام لوضع العرب في داخل الدولة أو في مناطق احتلال 1967. الصراع هو حقيقي وسيزعزع الكيان من الداخل لكن لا يمكن التعويل عليه بالنسبة إلى العرب. رفاه وسؤدد العرب لا يأتيان إلا على أيديهم هم. نتنياهو مثله مثل بيل كلينتون أو وليد جنبلاط عندنا. رجل بقليل من المبادئ تؤهّله للتكيّف مع التغيير في توجّهات الناخبين ينجح في الاستمراريّة السياسيّة. وهو قادر على البروز بمظهر مرشّح متغيّر بحسب الظروف. هو زاد من تحالفه مع الأحزاب الدينيّة لعلمه أنه يصعب عليها التحالف مع خصومه في اليمين (المروحة الإسرائيلية السياسيّة هي بين يمين ويمين متطرّف وأقصى اليمين المتطرّف. خُدع العرب طويلاً بالحديث عن يسار ويمين في إسرائيل). والرجل الذي استورد الماكينات الانتخابيّة الأميركيّة إلى إسرائيل برع في مخاطبة الرأي العام اليهودي بكل أطيافه. والانتخابات الأخيرة—على عكس التوجّهات في الرأي العام الأميركي—أثبتت أن الشباب الإسرائيلي أكثر عدوانيّة ويمينيّة من باقي المجموعات الديموغرافيّة.

إرث نتنياهو لم يحن حسابه وتقييمه بعد لأنه لا يزال يحكم ويتملّص من محاكمة لم تؤثّر عليه (انتخابيّاً) منذ عام 2016. المحاسبة في إسرائيل ليست كما في لبنان، لكنها ليست كما في السويد. لا يقضي مسؤول أياماً في السجن إلا إذا زاد في ارتكابه من الجرائم (موشي كاتزاف، الرئيس الإسرائيلي الذي قضى وقتاً في السجن، اغتصب—وتحرّش بـ—العشرات من النساء. كان القضاء ساكتاً على ارتكاباته إلى أن طفح الكيل في زمن الوعي المتنامي عن الجرائم الذكوريّة الجنسيّة. طبعاً، لم يقض كاتزاف كل سنوات محكوميّته، مثله مثل إيهود أولمرت. لكن نتنياهو ألحق ضرراً كبيراً بالمصلحة الصهيونيّة العليا، أي التحالف الاستراتيجي مع أميركا. عندما قرّر ديفيد بن غوريون نقل مؤتمرات الحركة الصهيونيّة من أوروبا إلى أميركا في عام 1942 كان يتخذ قراراً استراتيجيّاً سرّع من خطة تنفيذ المشروع الصهيوني على أرض فلسطين. وبن غوريون أراد من الصهيونيّة أن تحرص على الحياديّة في الصراع بين الحزبيْن في الولايات المتحدة. لم يكن تبدر أي لهجة تفضيل أو تحبيذ من قبل الحكومة الإسرائيليّة نحو المتصارعين في الانتخابات الأميركيّة. قد يكون لنتنياهو الفضل في تدمير الإجماع بين الحزبيْن على الدعم المُطلق لإسرائيل. نتنياهو كان أوّل زعيم إسرائيلي يتحدّى الرئيس الأميركي في عقر داره، كما فعل في عهد أوباما عندما خطب ضد الاتفاق النووي في الكونغرس الأميركي. نتنياهو ألصق إسرائيل بصفة اليمين المحافظ والمتعنّت. هذا ما أبعد البضاعة السياسيّة الصهيونيّة عن الجمهور الليبرالي في هوليوود أو في الجامعات الأميركيّة. لم يعد أمام الحكومة الإسرائيليّة من حيلة لصدّ المدّ الشبابي ضد إسرائيل إلا تعميم تعريف سياسي باطل لمعاداة السامية كي يتيح المجال للجامعات والشركات والمؤسّسات الحكومية لحظر الآراء المتعاطفة مع شعب فلسطين تحت طائلة مخالفة القوانين أو النُّظم الداخليّة. هذا الإنجاز لنتنياهو يصعب محوه لأن جيلاً قد تربّى على فكرة أن الصهيونيّة ودعم إسرائيل المُطلق هما مشروع اليمين الجمهوري المحافظ، وخصوصاً المسيحيّين الصهاينة. أكثر من ذلك، لقد نجح نتنياهو في إبعاد اليهود الأميركيّين عن إسرائيل أكثر فأكثر. لا تعني إسرائيل الكثير للجيل الجديد من اليهود الشباب في أميركا.

نتنياهو يواجه اليوم عالماً عربيّاً متغيّراً. صحيح أن إسرائيل حظيت بحلف قويّ مع السعوديّة والإمارات والضغط يشتدّ على مصر والأردن لتقليد وتيرة التطبيع الإماراتي لكن تلك الوتيرة تحتاج إلى توتاليتاريّة ووفرة اقتصاديّة غير متوفرتيْن. والتحالف الذي يقوده هو الأكثر يمينيّة وتطرّفاً إيديولوجياً في تاريخ إسرائيل. لكن الصحافة الليبراليّة الغربيّة تخطئ عندما تصف التحالف بأنه الأكثر تطرّفاً. التحالف الذي قاد إنشاء الدولة هو الأكثر تطرّفاً وقاد حملات تطهير عرقي وجرائم حرب جماعيّة. لكن نتنياهو يزيد الشرخ بين اليهود، وبين إسرائيل والليبراليّة الغربيّة. هذا المتغيّر يعني أن إسرائيل ستسعى إلى دعم اليمين الغربي، وفي هذا مجازفة ستزيد من لصق العلامة التجاريّة-السياسيّة لإسرائيل باليمين الغربي بصورة عامة.

(انتهى)

* كاتب عربي - حسابه على تويتر
@asadabukhalil

> إرث نتنياهو لم يحن حسابه وتقييمه بعد، لأنه لا يزال يحكم ويتملّص من محاكمة لم تؤثّر عليه (انتخابيّاً) منذ عام 2016. المحاسبة في إسرائيل ليست كما في لبنان، لكنها ليست كما في السويد

من هو اليهوديّ؟

نايف سلوم *

هذه المقالة لمناسبة عرض كتاب إسحق دويتشر: «اليهوديّ اللايهودي»، ترجمة ماهر كيّالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة بيروت 1986. توجد ترجمة ثانية للكتاب للمحامي السوري نجاة قصاب حسن بعنوان: «من هو اليهودي؟»

عندما يثير أحدهم مسألة «الهُويّة اليهودية»، يبدأ بافتراض وجود هوية إيجابية. لكن ألا يكون الوعي اليهودي في هذه الفترة، فترة «الإيجابية اليهودية» من تاريخ العالم، انعكاساً بصورته الرئيسية، للضغوط المعادية لليهودية (للسامية)؟ فلو لم تكن المعاداة لليهودية قد أثبتت عمق جذورها وتواصلها وقوتها في الحضارة المسيحية الأوروبية لما ظهر اليهود اليوم كطائفة متميزة، بل لأصبحوا مندمجين كلية في الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها. إن الذي كان يعيد خلق اليهودية باستمرار، ويمنحها حيوية متجددة، هو عداء البيئة المسيحية المحيطة.

لم يرَ سبينوزا، قبل ثلاثمئة عام، ما يثير الدهشة لكون اليهود حافظوا على بقائهم بالرغم من تشتتهم، فهو يفسر ذلك فيقول: «لقد تعرضوا للبغض الشامل بانقطاعهم كلياً عن الشعوب الأخرى». ويعزو بقاءهم إلى عداوة الآخرين لهم، ويذكّر بأنه عندما خيّر ملك إسبانيا اليهود بين القبول بديانة مملكته أو الذهاب إلى المنفى اعتنق عدد كبير منهم الديانة الكاثوليكية (ثلاثمئة ألف)، ومن ثم مُنحوا الامتيازات وعوملوا بنفس الاحترام الذي يعامل به المواطنون الآخرون. وسرعان ما اعتبر الذين قبلوا بالكاثوليكية أنفسهم من الإسبان، وبعد سنوات جرى اندماجهم بالسكان المحليين.

أمّا الذين رفضوا وقبلوا بالنفي فكان عددهم 60 ألفاً على وجه التقريب، وقد تم نفيهم وفق مرسوم الحمراء لعام 1492. ومرسوم الحمراء أو قرار الطرد أصدره في 31 آذار 1492 الملك الكاثوليكي الإسباني فرناندو الثاني والملكة إيزابيلا الأولى ونص على طرد كل اليهود من مملكة إسبانيا وأقاليمها قبل 31 تموز 1492.

أمّا في البرتغال فقد حدث العكس، فعندما أجبر إيمانويل الأول اليهود على اعتناق ديانته «تحولوا» بالفعل، ولكنه بقي يعتقد أنهم لا يستحقون أي مركز محترم، ولهذا بقوا منفصلين عن المجتمع البرتغالي.

قد يُخيل للمرء أن يقول إنّ ما يوقظ مثل هذه المشاعر السلبية لا بد أن يكون في ذاته ذا صفة أو هوية محددة إيجابياً. لكن مهما يكن الجواب، ففي نهاية القرن التاسع عشر، كانت «هوية اليهود المحددة إيجابياً»، تمر في طور الانحلال. والحقيقة أن الصهيونية كحركة سياسية مرتبطة عضوياً بصعود الطور الإمبريالي للرأسمالية، برزت إلى الوجود كاحتجاج ضد هذا الانحلال، في حين أن الاشتراكية الأوروبية قبلت، بشكل عام، اندماج اليهود وشجّعت على ذلك كجزء من حركة أوسع وأكثر تقدمية، وكنتيجة لما يفترض في المجتمع الحديث أن يقوم به من التخلص من كل الأعراف الإثنية والإقليمية والطائفية.

لقد كان العنصر الإيجابي في الهوية اليهودية متأصّلاً، ولقرون عديدة، في الدور الاستثنائي الذي لعبه اليهوديّ في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى. ففي عصر الإقطاع وبداية الرأسمالية كان اليهودي يمثل نظام الاقتصاد النقدي –الربوي وأفكار هذا النظام في نظر شعوب كانت أفكارها تتطلع نحو قيام اقتصاد أسري طبيعي، وكانت شرائعها تحرم الربا (المسيحية والإسلام). ولم يكن من قبيل المصادفة أن تتخذ صورة اليهودي في ذهن المسيحي شكلاً رمزياً مثل شايلوك شكسبير في «تاجر البندقية»، و«يهودي مالطة» لكريستوفر مارلو. يقول بطرس بتروفتش لوجين، إحدى شخصيات رواية «الجريمة والعقاب 1866» لدستويفسكي: «من أخطائي أيضاً أنني لم أعطهم مالاً! شيطان يأخذني! ما بالي تصرفت تصرف يهودي؟». ويكتب توماس مان في رواية «الجبل السحري 1924» بخصوص بطل الرواية: «كان من الممكن أن يذهب هانس كاستورب إلى الراديكاليين ويصبح خاسراً كل شيء، أن يهدم بسلطة المال كل الأبنية القديمة، وكل جماليات الطبيعة، متحللاً كيهوديّ».

كذلك لم يكن الحقد هو الذي دفع ماركس ليقول إنّ الرب الحقيقي لليهوديّ هو المال. لقد تعمّد هذا لا ليدين اليهودية خلقياً وإنما ليقول جملة حقيقية حول الدور الخاص لليهوديّ في المجتمع المسيحي في العصور الوسطى الإقطاعية-المسيحية، ولاحقاً في الرأسمالية. ومضى ماركس ليقول إن المجتمع المسيحي بنموه في اتجاه رأسمالي متصاعد، إنما يصبح «يهودياً» أكثر فأكثر. لقد كان مقتنعاً أنه عندما يبدأ المجتمع الأوروبي بالتحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية يكفّ اليهودي والمسيحي على السواء عن كونهما «يهودياً» أو «مسيحياً». ويقول: «يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل لنبحث عن سر الدين اليهودي في اليهودي الواقعي. اليهودية دين المال، عبادة المتاجرة، المال هو إله إسرائيل الغيور. الأساس الدنيوي لليهودية هو الحاجة العملية، المنفعة الشخصية. مع انتصار المجتمع البورجوازي، الشعوب المسيحية صارت يهودية» (ماركس: المسألة اليهودية).

وفي حياة ماركس التي شهدت عصر الاندماج، كانت الهوية اليهودية تمر في طور التلاشي، على الأقل في غرب أوروبا. يقول إسحق دويتشر: إنني أعتقد بأن الأحداث المأساوية للعهد النازي في ألمانيا لم تبطل التحليل الماركسي الكلاسيكي للمسألة اليهودية وهي لا تدعو لإعادة النظر فيه. ومن البديهي أن الماركسية الكلاسيكية (ماركس: حول المسألة اليهودية 1843) لم تقرّ أو تسلّم بأي شيء من مثل «الحل النهائي» الذي قام به النازيون أو الصهاينة، أو التعقيدات الكبيرة للمشكلة في فترة حكم ستالين والفترة التي تلتها في الاتحاد السوفياتي. لقد ارتأت الماركسية الكلاسيكية تطوراً صحياً وأكثر انسجاماً مع الطبيعة العامة للحضارة البورجوازية ألا وهو الانتقال الزمني من المجتمع الرأسمالي إلى المجتمع الاشتراكي. ولكنها لم تأخذ في حسبانها استمرار بقاء الرأسمالية بآثارها الانحلالية على الحضارة بشكل عام. كان على العالم أن يعي ويتنبأ بمدى العمق البربري الذي سوف تغرق فيه البشرية إذا فشلت في إقامة النظام الاشتراكي الماركسي البديل.

أمّا النازية (والفاشية عموماً) فلم تكن أكثر من مجرد دفاع ذاتي للنظام القديم في وجه الشيوعية. لقد شعر النازيون بأن هذا هو دورهم، كذلك فقد رآهم المجتمع الألماني بأكمله، من خلال هذا الدور، ودفعت اليهودية الأوروبية ثمن بقاء الرأسمالية و«نجاحها» في حماية نفسها من الثورة الاشتراكية. إن هذه الحقيقة لا تدعو لإعادة النظر في التحليل الماركسي الكلاسيكي بل على العكس، إنها تؤكد صحة هذا التحليل.

إن الحديث عن «المجتمع اليهودي» كوجود كامل ومستقل لا معنى له. فبالإضافة إلى انتماء اليهود في المجتمعات المختلفة إلى طبقات مختلفة، كذلك فإن التقاليد الثقافية للأمم التي عاش اليهود بين ظهرانيها كأقليات، تركت تأثيراتها فيهم بصورة متفاوتة، وتركت على نظرتهم العقلية طابعاً يختلف من جماعة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر. فمثلاً لا يزال التوتر والعداء قائميْن بين اليهود الألمان ويهود شرق أوروبا، الأمر الذي يشكل موضوعاً لعدد لا يُحصى من النكات الساخرة.

لقد أدى تركز اليهود في المناطق الحدودية لروسيا إلى جعل أي نمو روحي عضوي بين اليهود والسلافيين أمراً غير ممكن. وفي بولندا أقام اليهود في أحياء مهجورة حتى قبل عام 1940. كانت القومية البولندية والعداء لليهود (اللاسامية) والإكليريكية (الظلامية) الكاثوليكية كلّها تعمل إلى جانب الانفصالية اليهودية. وعملت الأرثوذكسية والصهيونية من جهة أخرى ضد قيام تكافل مثمر لجهة الاندماج. يضاف إلى ذلك عمل اليهود في القطاعات الوسيطة غير المنتجة. ليس الاشتراكيون وحدهم من تكلم عن الصفة غير المنتجة لـ«النظام الاقتصادي اليهودي» في مجتمعاتهم، بل الجميع، ولذلك فإن العداوة بين العناصر المنتجة والعناصر غير المنتجة في المجتمع المعني كانت أمراً لا مفر منه في أيّ حال. ولقد نما على هذه العداوة الاجتماعية والاقتصادية عبر القرون، هذا البناء الفوقي الضخم للغربة الإيديولوجية والكراهية.

خلال القرن التاسع عشر كان اليهود في أوروبا الغربية ينتمون بصورة رئيسية إلى الطبقة الوسطى البورجوازية. كان هناك عدد قليل جداً من العمال اليهود وعدد من الحرفيين وأصحاب المحالّ الصغيرة. فمعظم اليهود كانوا من التجار الذين يقومون بمبادلاتهم على نطاق واسع في عواصم غربية عديدة، كما كان بعضهم من كبار أصحاب البنوك، وأصبح آل روتشيلد رمزاً للبورجوازية اليهودية المتغطرسة. وتميز المجتمع اليهودي بصفة البورجوازية السائدة في الغرب بشكل مناقض لصورة المجتمعات اليهودية في أوروبا الشرقية. صحيح أنه وُجدت في شرق أوروبا بورجوازية يهودية وتجار وأصحاب محالّ يهود، لكنّ الغالبية العظمى من اليهود كانت من الفقراء الكادحين والمهنيين البدائيين وما كان يُطلق عليهم بالتضخيم اسم «صناع الأدوات المعدنية»، ولكنهم في الحقيقة كانوا من صانعي الأقفال والسمكرجية ممن اعتادوا أن يشكلوا لأنفسهم جمعية يسمونها «نقابة عمال المعادن». وكان عدد كبير منهم بلا وظائف وبلا أرزاق منظّمة، أو كانوا باعة متجوّلين وسماسرة زيجات يساومون على نسبة حصتهم من المهر.

بعد قيام الثورة الفرنسية تمتّع اليهود بمساواة رسمية في نظر القانون في بلدان أوروبا الغربية. وصاحب هذه المساواة أمام القانون نموّ في اندماج اليهود بالمجتمع. حتى تلك الشرائح التي احتفظت بوعيها ودينها اليهودي أصبحت مندمجة من خلال تبنيها لغة البلاد التي عاشت فيها واكتسبت مظهر المواطنة.

أمّا الملايين من اليهود في بلدان شرق أوروبا فقد عاشوا ضمن مجتمعات مكتظّة بالسكان ومنفصلة عن بيئاتها غير اليهودية. ولم تكن أحياء اليهود ذات طابع رسمي، مع أنه كان يسمح لهم بالخروج منها بالطبع، ومع ذلك فقد عاشوا جماعات منغلقة يرتدون ملابس مميزة يطلقون لحاهم ويتكلمون لغتهم الخاصة ويطورون ثقافتهم وأدبهم. وفي الغالب كانت معرفتهم باللغة البولندية أو الروسية شبه بدائية، وبقيت اليديشية لغتهم التي يتكلمون بها. لقد شكّل يهود أوروبا الشرقية المنبع الرئيسي الذي نهلت منه الصهيونية تأييدها، فقد جاء منها معظم القادة والرواد والمجنّدين الإسرائيليين.

لقد تركت أوروبا الإقطاعية فراغات في نظامها الاقتصادي، كالاقتصاد النقدي والربا، جاء اليهود وملؤوها، وعندما جاءت الرأسمالية بـ«دين» الرأسمال وجد اليهوديّ في الرأسمال دينه. هكذا أعادت الرأسمالية المتأخرة، في طورها الإمبريالي، اليهوديّ إلى الحياة من جديد. يقول ماركس: «اليهودية بقيت ليس رغم التاريخ بل بالتاريخ» (حول المسألة اليهودية).

مرة أخرى: لكن من هو اليهوديّ؟ من أجل ذلك نحكي هذه الحكاية:

في ظل الاحتلال الألماني للأجزاء الغربية من الاتحاد السوفياتي أمر ستالين بتقديم المساعدة لمليونين ونصف مليون من اليهود في المناطق المحتلة، وذلك بنقلهم إلى المناطق الشرقية للبلاد. لقد وجد هؤلاء اليهود أنفسهم في موقف غريب، فقد أصبحوا بعد إخلائهم السريع وانتقالهم إلى كازاخستان وأوزبكستان وإلى جمهوريات وسط آسيا، في حالة ارتباك ويأس، وألقي بهم في أوساط غير مألوفة واقتلعوا من جذورهم. وكان عليهم أن يكسبوا قوتهم وسط فقر مدقع ونقصان في الطعام، وسط مجاعة حقيقية، وبذلك أصبحوا من جديد

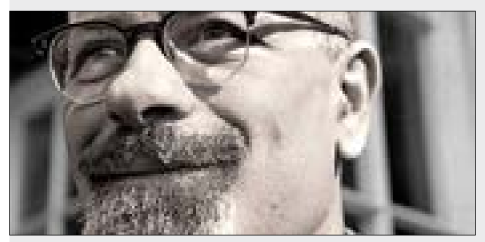

بارزين في السوق السوداء على حساب لقمة الفقراء، لقد عادوا سماسرة.

لقد كان برونو باور وماركس مناهضيْن لليهودية، وهذه المناهضة عامة تشمل باور، فيورباخ، ماركس، موزس (موسى) هس (الذي شكّل حلقة الوصل بين فيورباخ وماركس ثم انقلب وغدا صهيونياً)، سبينوزا، غوتيه، فولتير، وهنريش هاينه. «والمعروف عن هاينه أنه ابن عائلة يهودية تركها واعتنق المسيحية وكان معجباً بمارتن لوثر والمذهب البروتستانتي الإصلاحي للكنيسة»(الجبل السحري)، «والفكر البورجوازي الثوري كله، الأدب الإنساني، التراث التقدمي الخالد، يحمل هذا النفَس المناهض لليهودية. الأدب ترك لنا نماذج يهودية سلبية خالدة» (باور-ماركس: حول المسألة اليهودية، مقدمة مرقص)، كل هؤلاء يجمعون على مناهضة اليهودية. «الفكر البورجوازي الثوري الإنساني يأخذ على اليهودية (الدين والجماعة والصفة) خصوصيتها، انغلاقها، تعصبها، محدوديتها ولا إنسانيتها، ولا أخلاقيتها، بعدها عن البشر وسعادتهم وعن التاريخ، عن التاريخ ومصائر الشعوب والمخاض الأوروبي» (مرجع سابق) إن المأثرة الأولى الكبرى لرجال من طراز ابراهام ليون (الفهم المادي للمسألة اليهودية)، مكسيم رودنسون، إسحق دويتشر (جميعهم ماركسيون من أصل يهودي) وفضلهم على الفكر الماركسي والمصائر البشرية، أنهم وقفوا ضد الصهيونية، عارضوا الابتزاز بـ«اللاسامية»، وضربوا التجاهل الماركسي شبه العام للمسألة اليهودية ذاتها (فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية)، فعلى من لم يقرأ مؤلفاتهم أن يقرأها (مرجع سابق).

* كاتب سوري

مراجع:
1-إسحق دويتشر: «اليهودي اللايهودي»
2-باور-ماركس: «حول المسألة اليهودية»، ترجمة إلياس مرقص
3-دوستويفسكي: «الجريمة والعقاب»، ترجمة سامي الدروبي
4-توماس مان: «الجبل السحري»، ترجمها عن الألمانية عدنان حبّال

على الغلاف

حسين إبراهيم

يعيش الأردن، منذ سنوات، أوضاعاً سيّئة على مستويات مختلفة، ولا سيما منها المستوى الاقتصادي، في ما يبدو نتيجةَ حصارٍ غير معلَن تشارك فيه الولاياتُ المتحدة والسعودية، بهدف فرْض أجندةٍ بعيْنها على المملكة. أجندةٌ تحدّث عنها بوضوح الملك عبد الله الثاني، قبل عام، أمام مجموعة من الإعلاميين الأردنيين، متّهماً صهر الرئيس الأميركي السابق، جاريد كوشنير، بمحاولة فرْضها، مشيراً أيضاً إلى تورُّط دولة عربية كبرى لم يُسمّها، قبل أن يُفصح عن أن وليّ العهد السعودي، محمد بن سلمان، «يتآمر على الأردن، ويمنع الدول العربية الشقيقة من تقديم مساعدات إليه». ويُعتبر كلام الملك، الذي جاء في وثائق سرّية اطّلعت «الأخبار» على مضمونها، وتتناول الوضع في هذا البلد على الصُعد كافّة، إشارة مزدوجة إلى «صفقة القرن» التي أراد كوشنير فرْضها على عمّان، ومحاولة الانقلاب الفاشلة التي قادها شقيق عبد الله، الأمير حمزة، بمساعدة مستشار ابن سلمان، باسم عوض الله، المعتقَل حالياً لدى السلطات الأردنية، والذي مثّل حلقة الوصل بين وليّ العهد السعودي وبين الأمير حمزة، على رغم أن الرياض حرصت على ألّا تترك دليلاً على تورُّطها في تلك المحاولة.

وفي موازاة الجفاء مع السعودية، سعى الملك الأردني إلى تعزيز علاقته برئيس الإمارات، محمد بن زايد، في محاولة لكسر الحصار غير المعلَن على بلاده التي تفتقر إلى الموارد، وتعيش على المساعدات الخارجية. وجاء ذلك في وقت بدأت فيه ملامح «الأردن الجديد»، على حدّ وصْف السفير الأميركي في عمّان، هنري ووستر، تتشكّل، وتأخذ مظاهر سلبية للغاية، من بينها ارتفاع نسبة البطالة إلى 50%، وانتشار السلاح بين أيدي المواطنين، وتنامي ظاهرة فرْض الخوّات، وتزايُد لجوء الأردنيين إلى عشائرهم على حساب منطق القانون، واستمرار نعرة التمييز بين الأردنيين من أصل فلسطيني والأردنيين من عشائر شرق الأردن، هذا فضلاً عن التظاهرات الاعتراضية التي شهدتْها أخيراً عدد من المحافظات، ولا سيما معان والطفيلة والزرقاء، احتجاجاً على تردّي الأوضاع الاقتصادية واستمرار الاعتقالات السياسية. ويبدو، ممّا تَقدّم، أن «معاهدة السلام» مع العدو لم تَعُد تشفع للأردن، الذي صار منذ سنوات، حتى تحت حُكم الملك عبد الله، يمثّل إحدى الدول التي تقف عائقاً في وجه المشاريع الإسرائيلية والأميركية المستجدّة، خاصّة في ما يتعلّق بالأراضي الفلسطينية المحتلّة وتحديداً بالمسجد الأقصى. وإذ ارتبطت «شرعيّة» النظام، في نَظر الكثير من الأردنيين، بالوصاية الهاشمية على الحرم القدسي، فمن الطبيعي أن يفكّر اليمين الإسرائيلي الحاكم في التخلّص منها، إذا ما أراد المُضيّ في مشاريعه لتغيير «الوضع القائم» هناك. ولذا، فالخيار الأفضل بالنسبة إليه، كما يَظهر، هو إضعاف النظام الأردني، وبثّ الفوضى في هذا البلد.

في ما يلي ملخّص مضمون الوثائق التي اطّلعت عليها «الأخبار»:

وثائق تفنّد مشروع محاصرة الأردن... لإغراقه بالفوضى

عبد الله الثاني: ابن سلمان يتآمر علينا

في لقاء مع إعلاميين أردنيين في شباط 2022، بدا الملك عبد الله الثاني مستاءً جداً من مسار الحملات الإعلامية التي تستهدفه شخصياً والأسرة الحاكمة في المملكة، ولا سيما زوجته الملكة رانيا، في ضوء ما قيل عن أرصدة لهما في أحد المصارف السويسرية. وقال بعض مَن حضروا اللقاء إن عبد الله ذكر أن هناك محاولة لإملاء أجندة معيّنة على المملكة، وأن الأردن «لن يسمح للمتآمرين بكسره». وعندما سُئل عن هويّة الذين «تآمروا أو يتآمرون»، استذكر صهر الرئيس الأميركي السابق، جاريد كوشنير. كما أشار إلى دولة عربية كبرى من دون تسميتها، لكنه عاد وأفصح عن أن وليّ العهد السعودي، محمد بن سلمان، «يتآمر على الأردن، ويمنع الدول العربية الشقيقة من تقديم مساعدات إليه». وفي المقابل، أطلق الملك، خلال اللقاء نفسه، إشارات إيجابية نحو الإمارات والكويت والعراق.

وتشتبه الأجهزة الأمنية الأردنية في أن مستشار وليّ العهد السعودي، باسم عوض الله، كان قبل اعتقاله في ربيع العام الماضي، صلة وصْل بين محمد بن سلمان والأمير حمزة، الذي تمرّد على شقيقه ملك الأردن. وفي هذا الإطار، نقل المدير التنفيذي لـ«البنك الدولي»، ميرزا حسن، إلى مسؤول خليجي التقاه في حزيران 2021، معلومات تفيد بأن السعودية لم تُبدِ تأييداً لفكرة محاولة الانقلاب على عبد الله، ولكنها لم تُعارضها كذلك. وأضاف أن عوض الله أكد للأمير حمزة أنه يضْمن دعْم السعودية للعملية، منبّهاً إيّاه في الوقت نفسه إلى أن الأخيرة لا تريد أن يكون هناك دليل على تورّطها فيها. وتابع حسن أنه عند زيارة وزير الخارجية السعودي، فيصل بن فرحان، إلى الأردن إثر إحباط تحرُّك حمزة واعتقال عوض الله، جزم ابن فرحان أن الأخير لا يمثّل بلاده على رغم قُربه من ابن سلمان. لكنه أعطى الموضوع تفسيراً آخر، إذ أكّد لمُحادثيه أن محاولة الانقلاب غير بعيدة عن «صفقة القرن»، وأن مستشار الرئيس الأميركي السابق، جاريد كوشنير، يشعر بالاستياء الشديد حيال الملك الأردني، لعدم تَعاوُنه معه لتمرير الصفقة. والجدير ذكره، هنا أيضاً، أن وفداً من المخابرات السعودية حاول المشاركة في التحقيقات في القضية، لكن من دون جدوى.

من جهة أخرى، ذكر تقرير ديبلوماسي أعدّته دولة خليجية مطلع عام 2019، أن وليّ العهد السعودي يعمل من أجل انتزاع الوصاية الهاشمية على القدس، من الأردن لحساب السعودية. كما برزت مخاوف لاحقاً من سعي المغرب أيضاً لوضع يده على المقدسات الإسلامية في المدينة المحتلّة، في ضوء عملية التطبيع الرسمي التي بدأتْها الرباط مع تل أبيب. لا سيما أن ملك المغرب يرأس «لجنة القدس» في «منظّمة التعاون الإسلامي». كذلك، يشير ديبلوماسيون مطّلعون على الوضع في الأردن، إلى ازدياد التدخّلات الخارجية في شؤونه الداخلية، بدءاً من البحث الأميركي عن حلول للقضية الفلسطينية عبر «صفقة القرن» والمخاطر التي حملتْها على مستقبل هذا البلد باعتباره «الوطن البديل» المفترَض للفلسطينيين، وانتهاءً بالتنافس الإقليمي على تشكيل أدوات ضغط في الساحة الأردنية. ويندرج، في الإطار المتقدّم، التنافس بين السعودية والإمارات من جهة، وقطر وتركيا من جهة أخرى، والذي يفيد ديبلوماسيون بأن بعض المعارضين الأردنيين الناشطين في الخارج يتمّ استخدامهم في سياقه.

وعلى رغم ذلك، سُجّل تقارُب متزايد بين الأردن والإمارات، بموازاة جفاء بين الأوّل والسعودية. وقد قام الملك الأردني، في تموز 2020، بزيارة سريعة إلى أبو ظبي، في إطار حرْصه على إبقاء نافذة تواصُل مفتوحة معها، بعد أن أصبحت العلاقات الأردنية مع السعودية محاطةً بالهواجس منذ تولّي ابن سلمان ولاية العهد. وجاء في تقرير ديبلوماسي أن الهدف من الزيارة هو التقرّب من الرئيس الإماراتي، محمد بن زايد (كان وقتها وليّاً لعهد أبو ظبي)، لما له من تأثير على ابن سلمان. ولوحظ أنه بعد عودة الملك من الإمارات، أصدر النائب العام قراراً بوقف عمل نقابة المعلّمين، وهي نقابة تحظى فيها جماعة «الإخوان المسلمين» بنفوذ هام. كما أصدرت محكمة التمييز قراراً باعتبار الجماعة فاقدة للشخصية القانونية والاعتبارية، علماً أن «الإخوان» يمارسون عملهم السياسي من خلال حزب «جبهة العمل الإسلامي». وفي الإطار نفسه، أفادت المعلومات بأن عبد الله طلب من إدارة المخابرات العامّة، في شهر حزيران عام 2022، مراقبة تحرّكات الجماعة، والاستعداد لضبطها عندما تدعو الحاجة. وتنبع بعض مخاوف الملك من احتمال لجوء «الإخوان» إلى الإفادة من الأوضاع الصعبة في البلاد لتعزيز حضورهم. وأشرت إلى ذلك انتخابات نقابة المحامين التي أسفرت عن فوز أحد المحامين المحسوبين على الجماعة بمنصب النقيب، إضافة إلى استمرار تدفُّق التبرعات لبعض جمعياتها من مصادر خليجية.

وحول العلاقات الأميركية - الأردنية، لوحظ أنه في كلمة السفير الأميركي المعيَّن لدى الأردن، هنري ووستر، أمام إحدى لجان الكونغرس في أيار 2020، استخدم عبارة «الأردن الجديد»، الأمر الذي أعطي تفسيرات عدّة في ظلّ المناخ السياسي الغامض الذي أحاط آنذاك بطرح «صفقة القرن»، مع التذكير هنا بأن السفارة الأميركية في عمّان بقيت على مستوى القائم بالأعمال مدّة ثلاث سنوات، إثر مغادرة السفيرة السابقة، أليس ويلز. وتستغلّ الإدارة الأميركية ظروف الأردن الصعبة لتحويل أراضيه إلى قاعدة لدعم قوّاتها في المنطقة، ولدفعه إلى تبنّي مشاريع تطبيع على غرار اتّفاقية التعاون مع الكيان الإسرائيلي في مجالَي المياه والكهرباء. وقد أثار ذلك اعتراضات كان من أبرزها إصدار 148 شخصية سياسية وحقوقية وعشائرية، في أيلول 2022، بياناً تضمّن رفْض تلك الاتّفاقية.

أيضاً، أشار تقرير ديبلوماسي عربي، في أيلول 2022، إلى تفاقُم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الأردن بشكل مقلق. تفاقُمٌ تتجلّى بعض مظاهره في ارتفاع نسبة البطالة (تُقدَّر بـ50 % وفق تقرير دولي)، وانتشار السلاح بين أيدي المواطنين، وتنامي ظاهرة فرْض الخوّات، وتزايُد لجوء الأردنيين إلى عشائرهم على حساب منطق القانون، واستمرار نعرة التمييز بين الأردنيين من أصل فلسطيني والأردنيين من عشائر شرق الأردن. وترافق ذلك، أخيراً، مع تنظيم تظاهرات اعتراضية في عدد من المحافظات، ولا سيما معان والطفيلة والزرقاء، احتجاجاً على تردّي الأوضاع واستمرار الاعتقالات السياسية.

تحدّث عبد الله عن محاولة لإملاء أجندة معيّنة على الأردن (أ ف ب - أرشيف)

> الملك سعى إلى التقارب مع ابن زايد في موازاة الجفاء مع ابن سلمان
>
> باسم عوض الله كان صلة وصْل بين ابن سلمان والأمير حمزة

فلسطين

فدائي «استثنائي» يوجع العدو ويرعبه

القدس تنتقم لجنين

بعد أقلّ من 48 ساعة على ارتكاب العدو جريمة مخيّم جنين، عمد مقاوم فلسطيني من سكّان القدس المحتلّة، إلى إطلاق النار من سلاحه الفردي على مستوطنين إسرائيليين كانوا خارجين لتوّهم من كنيس في حيّ «نيفي يعقوب» الاستيطاني. وأدّت هذه العملية الفدائية غير المسبوقة منذ حوالى 15 عاماً، إلى مقتل 7 إسرائيليين، وجرْح نحو 10 أثناء منهم في حال الخطر، ما يجعل حصيلة القتلى مرشّحة للارتفاع. في المقابل، استُشهد منفّذ العملية بعد وقت قصير، عند اشتباكه مع شرطة العدو. وكانت المقاومة الفلسطينية في غزة أطلقت، في ردّها الأوّلي على مجزرة المخيّم، عدداً من الصواريخ على مستوطنات «الغلاف». تأكيداً منها أن «معادلة غزة - جنين» لا تزال قائمة، في وقت تصاعدت فيه مطالبات أقطاب الفاشية لجيش الاحتلال وحكومته، بتعزيز توازنات الردع مع القطاع، عبر إطباق الحصار أكثر، والتجويع، والاغتيالات، والمزيد من القتل العبثي

غزة - **رجب المدهون**

حتى ساعة متأخّرة من ليل أمس، كانت لا تزال وسائل إعلام العدو تنشر أرقاماً متضاربة حول حصيلة عملية إطلاق النار التي نفّذها المقاوم الفلسطيني في حيّ «نفي يعقوب» الاستيطاني في القدس. لكن في المحصّلة، فإن أبلغ تعبير يخلّص المشهد، يكاد يكون هو الذي استعملتْه «القناة 12» العبرية، تعليقاً على الحدث، إذ قالت إن «مذبحة وقعت في القدس». ومن موقع العملية - والذي زاره في وقت لاحق رئيس الحكومة، بنيامين نتنياهو، في حدث غير معتاد -، وبينما كان وزير «الأمن القومي»، إيتمار بن غفير، محاطاً بعدد كبير من الحرّاس والمستوطنين، وصف الهجوم بأنه «من الأسوأ خلال السنوات الأخيرة»، قبل أن يلتزم الصمت ويبتلع لسانه، في وقت حاولت فيه وسائل الإعلام العبرية استصراحه، وهو المعروف بوصوله دائماً أولاً إلى موقع أيّ ضربة ضدّ إسرائيليين، حيث يشرع في تصريحات مزايدة على حكومة خصومه السابقة بقيادة نفتالي بينت ثمّ يائير لابيد. لكن أمس، خرس بن غفير أمام هول الحدث ونتائجه، وهو الوزير الأساسي في الحكومة، وتحت سلطته تقع عدّة أجهزة أمنية تعمل في الأراضي المحتلة، وأنصت محنيّ الرأس إلى صرخات المستوطنين، وهم يطالبونه بأن يفي بوعوده الإجرامية، وتصعيد التنكيل بالفلسطينيين، محمّلين إيّاه المسؤولية، كون العملية وقعت خلال ولايته كوزير. وفي آخر المعلومات التي وردت مساء أمس، فإن المقاوم الفلسطيني، منفّذ الضربة، هو الشهيد علقم خيري (21 عاماً) من سكّان شرق القدس. وبحسب مفوض عام الشرطة الإسرائيلية، «كان لوحده، وهو من نفّذ الهجوم كاملاً». من جهته، قطع وزير الأمن، يوآف غالانت، زيارته إلى واشنطن، وعاد إلى تل أبيب للمشاركة في المشاورات الأمنية التي كان يعقدها نتنياهو مع قادة الأجهزة الأمنية والعسكرية المختلفة، والتي خلصت إلى التوجيه بالاستعداد لتصعيد محتمل. وعلى المستوى الميداني، اقتحمت قوات الاحتلال مخيم شعفاط شمالي القدس، حيث تصدّى لها شبّان المخيم، ووقعت عدّة إصابات في صفوفهم. وأشارت وسائل إعلام العدو إلى أن قوات الأمن الإسرائيلية اقتحمت «شعفاط» لكون منفّذ العملية ينحدر أساساً منه، لكنه يسكن حيّاً آخر في القدس المحتلة.

على صعيد موازٍ، وقبل ذلك بليلة واحدة، ردّت المقاومة الفلسطينية، مبدئيّاً، على جريمة مخيم جنين، بإطلاقها صواريخ من قطاع غزة، تجاه مدينة عسقلان ومستوطنات «غلاف غزة»، لتؤكد استمرار «معادلة غزة - جنين» التي أراد الاحتلال تحييدها، في الفترة الماضية. وشهدت أجواء القطاع ليلة ساخنة، تخلّلها إطلاق الصواريخ والمضادات الأرضية للطيران من قِبَل المقاومة من جهة، وقصف إسرائيلي وإطلاق صواريخ «القبّة الحديدية» من جهة ثانية. وفي التفاصيل، أطلقت فصائل المقاومة، في ساعة مبكرة من فجر يوم أمس الجمعة، صاروخَين تجاه مدينة عسقلان المحتلّة، وذلك رداً على العدوان الذي استهدف مخيم جنين، لم تتمكّن منظومة «القبّة الحديدية» من اعتراضهما، على رغم إطلاقها عشرات الصواريخ لهذا الغرض، ولتدوّي من بعدها صافرات الإنذار في مختلف مناطق «الغلاف». وما هي إلّا ساعات قليلة، حتى شنّت طائرات الاحتلال سلسلة غارات على المواقع العسكرية التابعة لـ«كتائب القسام»، الجناح العسكري لحركة «حماس»، في منطقتَي وسط وجنوب غزة، تصدّت لها المضادات الأرضية التابعة للمقاومة، فيما أطلقت «وحدات الدفاع الجوي» صاروخَين موجّهَين تجاه الطائرات المغيرة، ما أدّى إلى إبعادها عن سماء القطاع. ولاحقاً، بثّت «كتائب القسام» فيديوهات لعمليات اعتراض الطائرات الإسرائيلية في سماء غزة، ولعمليّات إطلاق صليات من الرصاص المضاد للطائرات والصواريخ الموجّهة. ووفق مصادر محلّية، تحدّثت إلى «الأخبار»، فإن قوات الاحتلال استهدفت موقع «الكتيبة 13» التابع لـ«القسام»، في مخيم المغازي وسط القطاع، بأكثر من 15 صاروخاً، كما استهدفت غارة من طائرة حربيّة من دون طيار مرصداً للمقاومة شرق بيت حانون، شمال غزة.

وتزامناً مع غارات الاحتلال والتصدّي للطائرات المغيرة، أطلقت المقاومة الفلسطينية خمسة صواريخ من غزة تجاه مستوطنات «الغلاف»، فيما أعلن جيش الاحتلال، من جهته، أنه تمّ إطلاق سبعة صواريخ تجاه المستوطنات، زاعماً أنه تم اعتراض أربعة منها، وثلاثة سقطت في مناطق مفتوحة، وأنه تمّ إطلاق عدّة صواريخ أخرى لكنها لم تعبر السياج. وعلمت «الأخبار» من مصادر في حركتَي «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، أن تفاهماً جرى بينهما على الردّ من قطاع غزة على جريمة الاحتلال في مخيم جنين، تأكيداً منهما على «وحدة الساحات» الفلسطينية، واستمرار «معادلة غزة - جنين»، وعلى عدم السماح للعدو بالتفرّد بالضفة المحتلة. وأعلن عضو المكتب السياسي لـ«الجهاد»، خالد البطش، أن «سرايا القدس»، الجناح العسكري للحركة، هي المسؤولة عن إطلاق الصواريخ، موضحاً أنه «تجسيداً منّا لمعركة وحدة الساحات هنا في غزة، ردّت، الليلة (أمس)، سرايا القدس بالقصف الصاروخي، وكتائب القسام بالدفاع الجوي، في مشهد متكامل يؤكد وحدة الموقف والسلاح»، مشدّداً على أنه «لن نسمح للعدو بتفريق الساحات».

> حمّل مستوطنون بن غفير المسؤولية وطالبوه بالثأر

من جهته، قال القيادي في حركة «الجهاد»، درويش الغرابلي، خلال مسيرة جماهيرية حاشدة في خان يونس جنوب غزة، إن «إطلاق صواريخ من القطاع، هي رسالة واضحة للعدو الإسرائيلي بأنّنا لا نخافه ولا نخشى مواجهته»، محذّراً من «توسيع بقعة الزيت»، في حال تكرّرت الاعتداءات الإسرائيلية على القدس وجنين والخان الأحمر وأيّ منطقة من فلسطين، ولفت إلى أن ما حدث من إطلاق صواريخ هو «جزء بسيط من ردّ المقاومة على الجريمة التي ارتكبها الاحتلال في جنين». وفي هذا السياق أيضاً، قال الناطق باسم «حماس»، حازم قاسم، إن «المقاومة الباسلة في قطاع غزة تواصل القيام بواجبها بالدفاع عن الشعب الفلسطيني ومقدّساته، وستبقى درع الشعب وسيفه»، موجّهاً التحية إلى مجاهدي «القسام» الذين «تصدّوا للعدوان الصهيوني بالصواريخ المضادة للطيران والمضادات الأرضية التي أربكت جيش الاحتلال ومستوطنيه». وشدّد قاسم على أن القصف على قطاع غزة يشكّل «امتداداً لجرائم الاحتلال ضدّ الشعب الفلسطيني في الضفة والقدس والداخل المحتلّ»، وأن من «حقّ الشعب الفلسطيني ومقاومته أن يقاتلا بكل الأساليب رداً على عدوان الاحتلال واستمرار جرائمه».

وللمرّة الأولى منذ عام، أُطلقت من قطاع غزة بالونات تحمل أجساماً رمزية تجاه مستوطنات «الغلاف»، في إشارة إلى أن فلسطينيي القطاع قد يعودون إلى أدوات الضغط الشعبي والميداني مع تصاعد جرائم الاحتلال.

وعلى الجانب الآخر، برزت انتقادات لجيش الاحتلال وحكومة بنيامين نتنياهو، حول تعاملها مع قطاع غزة، إذ وجّه الجنرال احتياط، تسيفكا فوغل، عضو «الكنيست» عن حزب وزير الأمن القومي، إيتمار بن غفير، «القوة اليهودية»، انتقاداً لاذعاً إلى وزير الأمن، قائلاً: «غالانت، هل تريد تحقيق الردع؟ حسناً، هكذا يتحقّق الردع: يجب إغلاق المعابر مع غزة، ومنْع مرور البضائع وخروج العمّال حتى عودة الأسرى الإسرائيليين، كما يجب اغتيال كبار المسؤولين في غزة، وعدم إهدار الذخيرة على العقارات، والأهم من ذلك: شنّ هجمات، وليس شرطاً أن تكون ردوداً على حدث ما». من جهتها، قالت الوزيرة السابقة، ميراف ميخائيلي: «نتنياهو عاد - وسياسة تنقيط الصواريخ على الجنوب عادت بعد عام ونصف عام من السلوك الأمني المسؤول خلال فترة حكومة التغيير - نتنياهو يعيدنا إلى الوراء»، بينما رأى معلّق الشؤون العربية في «القناة 13»، تسفي يحزكلي، أن «حركتَي حماس والجهاد تمتلكان السطوة، وقد صنعتا معادلة ردع ضدّنا».

قطع وزير الأمن زيارته إلى واشنطن، وعاد إلى تل أبيب للمشاركة في المشاورات الأمنية (أ ف ب)

الحدث

الجولاني للفصائل: مصيركم إلى أوكرانيا

أنقرة - دمشق: استماتة أميركية لعرقلة التفاهم

استكمالاً للحملة التصعيدية السياسية والاقتصادية التي تقودها لمنع اكتمال مسار التقارب السوري - التركي، تابعت الولايات المتحدة عملية إعادة انتشار لبعض قوّاتها في مواقع متقدّمة في الشمال السوري. يأتي ذلك بالتزامن وبلورة الخارجية الأميركية خطّة بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا والمانيا لضمان الحؤول دون التقدّم في عملية تسوية الأزمة. ويلاقي تلك المساعي، زعيمُ «هيئة تحرير الشام» الذي يعمل على إعادة ترتيب «البيت الإدلبي» الداخلي استعداداً لما هو قادم

علاء حلبي

بعد سلسلة اجتماعات عقدتْها دول «الاتحاد الأوروبي» في ما بينها من جهة، والولايات المتحدة وممثّلون عن «الاتحاد» ودول حليفة أخرى من جهة ثانية، خرج المبعوث الأممي إلى سوريا، غير بيدرسن، ليعلن فشله، مرّة أخرى، في تحقيق أيّ تقدّم في مسار الحلّ السياسي في سوريا، معتبراً أن الأوضاع الشائكة في هذا البلد تعيد ترتيب الأولويات وتضع «الوضع الإنساني» على رأس القائمة. بدورها، كثّفت واشنطن نشاطها السياسي، خلال الأسبوعَين الماضيَين، على الساحة السورية، في محاولة متجدّدة من قبلها لعرقلة التقارب السوري – التركي. وقد نظّمت الولايات المتحدة سلسلة اجتماعات مع ممثّلين للمعارضة، من «الائتلاف السوري»، ومن جماعات أخرى تنشط من نيويورك (أميركيون من أصول سورية)، حضَرها المبعوث الأممي، يوم الثلاثاء الماضي، لتُخرج هذه الاجتماعات ببيان مقتضب ركّز على دعم المعارضة، الأمر الذي ردّت عليه الخارجية السورية ببيان اعتبرت فيه اللقاءات وما نجم عنها «تكراراً ممجوجاً». وتعليقاً على ما سبق، ترى مصادر سورية معارضة، في حديث إلى «الأخبار»، أن «الولايات المتحدة لم تعُد تحضُر اهتمامها بالائتلاف كما كان سابقاً، بعدما لمست تبعيّته المطلقة لأنقرة، وهي تعمل بالتعاون مع شركائها على إحياء مسارات جديدة، سواء عبر تقوية الحضور السياسي للإدارة الذاتية الكردية، أو عن طريق الجماعات المعارضة الجديدة التي تنشط من نيويورك»، وهو ما ترى فيه المصادر نفسها مقدّمة لـ«مرحلة جديدة قد ينتهي فيها دور الائتلاف».

وتزامنت هذه التحرّكات الأميركية مع إعادة تحريك لملفّ «الأسلحة الكيميائية»، حيث أصدرت منظّمة «حظْر الأسلحة الكيميائية» تقريراً، أمس، يتّهم الحكومة السورية بـ«الوقوف وراء الهجوم الكيميائي في الغوطة عام 2018»، ويَرد فيه أن «هناك أسباباً معقولة للاعتقاد بأن القوات الجوّية السورية هي التي ارتكبت الهجوم». وفي مقابل حملة التصعيد الأميركية، أعادت روسيا الحديث عن ملفّ «المساعدات الإنسانية»، وإمكانية عدم تمديد القرار الذي جرى تجديده قبل نحو ثلاثة أسابيع وتنتهي مفاعيله في شهر تموز المقبل، والذي يسمح بإدخال مساعدات إلى الشمال الغربي من سوريا عبر معبر باب الهوى الحدودي، وعبر خطوط التماس (المعابر الحكومية)، مقابل تعهّدات غربية بتقديم دعم حقيقي وملموس لمشاريع «التعافي المبكر»، تضمن إنعاش قطاعات الطاقة والبنى التحتية. وهي تعهّدات ترى موسكو أن الدول الغربية لم تفِ بها، وخصوصاً مع تشديد واشنطن حزمة عقوباتها ضدّ دمشق أخيراً، الأمر الذي من شأنه أن يعيق أيّ محاولة تقدّم في المشاريع المذكورة.

توازياً، ذكرت مصادر «جهادية»، لـ«الأخبار»، أن قيادة «هيئة تحرير الشام» تُجري هذه الفترة عملية «إعادة هيكلة» في تشكيلاتها الأمنية، استعداداً للمرحلة المقبلة التي يُتوقّع أن تتصدّر فيها إدلب المشهد السوري، في ظلّ إصرار دمشق على وفاء أنقرة بتعهّداتها وإزالة «الإرهابيين» من إدلب، وفتْح طريق حلب – اللاذقية الدولي. ووجّهت «تحرير الشام» خطاباً إلى فصائل «جهادية» عدّة تمتلك حضوراً في المحافظة، مفاده ضرورة اتّخاذ قرار واضح بالالتزام بقرارات «الهيئة» أو الخروج من سوريا، مع تقديم ضمانات بانسحاب آمن نحو أوكرانيا، على غرار عمليات إخراج سابقة. وتأتي التحرّكات الجديدة هذه، بعدما حاولت بعض الفصائل الاستفادة من حملة التصعيد المضبوطة التي تنفّذها «تحرير الشام» - عبر عمليات محدودة ضدّ مواقع الجيش السوري -، لتشنّ هجمات منفردة من دون التنسيق مع جماعة أبو محمد الجولاني. ويُنذر ذلك بهجمات تخريبية أخرى قد تُطاول طريق حلب – اللاذقية، الذي تستكمل تركيا استعداداتها لفتحه في حال التوصّل إلى اتّفاق مع دمشق، ومن بينها انتزاعها تعهّدات من «الهيئة»، خلال اجتماعَين مع مسؤوليها، بالالتزام بالقرارات التركية فوْر اتّخاذها في هذا الشأن. وفي السياق نفسه، تابعت «الهيئة» خطوات تمتين حضورها في ريف حلب الشمالي، وضمان سيطرتها على أهمّ المعابر، في ردّ مباشر على محاولة «الحكومة المؤقّتة» التابعة لـ«الائتلاف» تنفيذ الأوامر التركية بتأمين مصادر دخْل ذاتية. وتتوقّع المصادر أن يؤدّي هذا التضييق في الفترة المقبلة إلى انشقاقات جديدة في صفوف الفصائل، وانضمامها إلى «تحرير الشام» مقابل مغريات مالية وعسكرية، بما قد يضمن للجولاني خطوط انسحاب آمنة من إدلب إلى عفرين ومحيطها، في حال التوصّل إلى اتّفاق سوري – تركي.

(أ ف ب)

العراق

السوداني في باريس: محطّة «لازمة»... على طريق واشنطن

اختتم رئيس الحكومة العراقية، محمد شياع السوداني، زيارة له إلى فرنسا، جرى خلالها التوقيع على «اتفاقية الشراكة الاستراتيجية» التي تشمل مجالات مكافحة الفساد والأمن والطاقة المتجدّدة، وسط حديث أيضاً عن وساطة طلَبها السوداني من باريس، لدى واشنطن، بهدف حمْل الأخيرة على تخفيف إجراء أتمها التقييدية الأخيرة على العراق. وتشكّل زيارة رئيس الحكومة لفرنسا محطّة جديدة في سلسلة جولاته الخارجية التي بدأها منذ تولّيه منصبه، والتي يُفترض أن تتوّج بزيارة إلى الولايات المتحدة، في إطار سعي السوداني إلى كسْر الجمود الديبلوماسي، وتعزيز الانفتاح على جميع الأطراف الإقليمية والدولية، والابتعاد عن ما يسمّيها «سياسة الاستقطابات والمحاور»

بغداد ـ فقار فاضل

حطّ رئيس الحكومة العراقية، محمد شياع السوداني، رحاله في فرنسا، متطلّعاً إلى إحياء اتّفاقات اقتصادية وأمنية وعسكرية بين بغداد وباريس. وبالفعل، جرى، في خلال الزيارة التي استمرّت يوماً واحداً، توقيع «اتّفاقية الشراكة الاستراتيجية» التي تهدف إلى «تحقيق المصالح المشتركة على قاعدة المساواة في السيادة والحقوق، وبما يتوافق مع مبدأ عدم التدخّل في الشؤون الداخلية»، وفق ما أعلن الإليزيه، بينما أوضح السوداني أن هذه الاتّفاقية «تضع خريطة طريق لتوسيع أفق التعاون بين بلدَينا في مختلف المجالات». وتُعدّ زيارة رئيس الحكومة لفرنسا سابع رحلة خارجية يجريها منذ تولّي حكومته مهامّها قبل ثلاثة أشهر، بعد زياراته إلى ألمانيا وإيران والأردن والسعودية والكويت وقطر، فيما تضع مصادر سياسية تفعيل ملفّ العلاقات الخارجية وإعطاءه أهمية قصوى، ضمن سعي الرجل لنفي تصنيف «كابينته» ضمن المحاور السياسية في المنطقة. ويُنتظر أن يتوّج السوداني جولاته تلك برحلة إلى واشنطن، يُتوقّع أن يَجري خلالها حسْم الكثير من الخلافات، بعدما أعلنت الولايات المتحدة دعْمها لحكومته في البداية، ثمّ أثارت الكثير من الأسئلة حول هذا الدعم بفرْضها قيوداً على التحويلات الدولارية منها إلى العراق. وكان مصدر رفيع المستوى في مجلس النواب العراقي أكد، لـ«الأخبار»، نيّة السوداني طلب وساطة فرنسية من أجل تحديد موعد زيارة قريبة له إلى واشنطن، لبحث أزمة الدولار والقيود الأميركية على الحوالات.

ويرى مصدر حكومي طلب عدم ذكر اسمه، في حديث إلى «الأخبار»، أن «زيارة السوداني إلى باريس ستعود بنتائج إيجابية على العراق، وذلك لأنها تشمل اتّفاقات كبيرة تخصّ الأمن ومعالجة الغاز المستخرَج من النفط الخام والتخطيط لبناء محطّات طاقة في محافظات العراق». ويَلفت المصدر إلى أن «السوداني طامحٌ إلى شراء طائرات ومقاتلات عسكرية متطوّرة من فرنسا، فضلاً عن استئناف اتّفاقات سابقة مع شركة توتال للطاقة والتعاون معها»، مبيّناً أن «جدول المحادثات مع (الرئيس الفرنسي إيمانويل) ماكرون شمل قضايا إقليمية مهمّة، منها مواصلة الحوار وتقريب وجهات النظر بين الرياض وطهران، من باب تأمين المنطقة الإقليمية من الصراعات والتجاذبات المشتعلة منذ سنوات».

وكان السوداني أكد، في مقابلات مع وسائل إعلام أجنبية، أن حكومته ستسعى إلى تفعيل الاتّفاقات المُبرَمة مع فرنسا، خصوصاً في قطاعات النقل والطاقة والاستثمار، وفي مجال شراء السلاح والتدريب وتطوير قدرات العنصر الأمني العراقي.

من جهته، يوافق رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان العراقي، عامر الفائز، على أن زيارة السوداني إلى فرنسا هي «تكملة لسلسلة زيارات يقوم بها ضمن برنامجه الحكومي، بهدف الانفتاح على دول العالم بشكل عام، ولغرض إرجاع العراق إلى مكانته الريادية». ويرى، في تصريح إلى «الأخبار»، أن رئيس الحكومة يسعى إلى الاستفادة من «أصدقاء العراق» في ما يتعلّق بالتطوير الاقتصادي والصناعي والزراعي وغيرها من المجالات، مضيفاً أن الحكومة ضدّ ما سمّاها «سياسة المحاور الإقليمية والدولية»، وهي تعمل «باعتدال» مع جميع الدول - بما فيها إيران والولايات المتحدة والدول الأخرى -، وكذلك على عودة الهدوء إلى المنطقة من خلال توثيق علاقاتها بشكل متوازن مع جميع الأطراف.

وفي الاتّجاه نفسه، يرى المحلّل، واثق الجابري، أن «حكومة السوداني دأبت على سياسة اليد المفتوحة وتنويع الديبلوماسية من أجل تحقيق شراكات وتعاون في مجالات متنوّعة بحسب المصلحة المتبادَلة للبلدَين». ويَعتبر أن «الحكومة تُحقّق، بالنتيجة، حلولاً في بعض الملفّات، وبالذات في مجال البنى التحتية»، لافتاً إلى أن «العالم فيه متغيّرات كبيرة، لذلك فإن تنويع العلاقات يُخرج العراق من الهيمنة الأميركية، ويبعده عن الضغوط التي جعلت من أرضه ساحة لتصفية الخلافات الإقليمية والدولية. ومن هنا، يسعى السوداني إلى الاتّفاق مع الشركات الرصينة لأنه يدرك أن الاتّفاقات مع غيرها تؤثّر بشكل سلبي على الاقتصاد العراقي». ويضيف أن الحكومة «تُجري تفاهمات مع فرنسا بخصوص الطاقة والطرق، لن تكون بروتوكولية فقط؛ إذ جرى رصْد أموال لذلك. وبالتالي، ستكون الاتّفاقات مباشرة، ومن دون المرور بالروتين والابتزاز والفساد الإداري».

في المقابل، يشير الصحافي والكاتب المقيم في باريس، علي نصر الدين، إلى أن «العراق يبحث عن استثمارات فرنسية، وهذا ما سيكون من الصعب على الحكومة الفرنسية التحكّم فيه، لأن القطاع الخاص هو المستثمر الأساسي، وقد لا يتجاوب مع طلب السلطات الفرنسية الرسمية، بسبب عدم الاستقرار على الساحة العراقية»، لافتاً إلى أن «المحور الثاني الرئيس لزيارة السوداني هو الطاقة، من غاز ونفط، كون فرنسا بحاجة إلى هاتَين المادتَين خصوصاً بعد حرب أوكرانيا وروسيا». أمّا أستاذ العلاقات الدولية، عمر عبد الستار، فيقلّل من أهمية الزيارة، إذ إن «اختلال التوازنات الدولية والإقليمية سينعكس سلباً على جهود السوداني في ضبْط إيقاعها، والتي قد لا تأتي بنتيجة إيجابية للعراق أوّلاً والمنطقة ثانياً». ويعتقد عبد الستار أن «تحرّكات الحكومة العراقية في ملفّ السياسة الخارجية هي بمثابة صيحة في واد». كما يرى أن «سياسة ماكرون في المنطقة واضحة، وتقوم على تقليم النفوذ الإيراني في العراق وسوريا ولبنان، وهذا ما تحدّث عنه خلال لقاء عقده معه بعض الصحافيين».

> زيارات السوداني إلى الدول الأوروبية مقدّمة للرحلة المتوقّعة إلى واشنطن

ترى مصادر حكومية أن زيارة السوداني إلى باريس ستعود بنتائج إيجابية على العراق (أ ف ب)

إعلانات رسمية

تبليغ

الموضوع: تبليغ مجهول محل الإقامة
المرجع: محكمة النبطية الشرعية الجعفرية

ورقة دعوة صادرة عن محكمة النبطية الشرعية الجعفرية، موجهة الى كل من فاطمة نضال عليق وجنى نضال عليق مجهولتي محل الإقامة.

في الدعوى المقامة عليكما من زينب علي جحا بمادة إثبات نسب أساس 2023/318/552، تعين موعد الجلسة فيها يوم الثلاثاء في 2023/2/28 فيقتضي حضوركما أو إرسال من ينوب عنكما إلى قلم المحكمة لإستلام نسخة عن إستحضار الدعوى وإلا اعتبرتما مبلغتين حسب الأصول، وجرت بحقكما المعاملات القانونية وكل تبليغ لكما على لوحة الإعلانات في المحكمة حتى تبليغ الحكم القطعي يكون صحيحاً.

رئيس قلم محكمة النبطية الشرعية الجعفرية
هشام فحص

وفيات

بِمُنَاسَبَةِ رحيلِ الفَقِيدِ الغالي النائبِ والوزيرِ السابقِ المَرحومِ:
السيّدِ عبدِ اللهِ الأمينِ

تُقبلُ التّعازي في بَيروتَ اليومَ السبتِ فِي جَمعيَّةِ التخصّصِ وَالتّوجيهِ العلميِّ، الجنَاح، قُربَ مُديريَّةِ أمنِ الدولةِ، مِنَ الساعةِ الثالثةِ بعد الظهر حتى الساعةِ السابعةِ مساءً.

الدّعوةُ للرجالِ وللنساءِ إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعونَ للسيّدِ الفقيدِ الرحمةُ، ولكمُ عظيمُ الأجرِ والثوابِ

بسم الله الرحمن الرحيم
(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي).
صدق الله العظيم.
ذكرى ثالث
تُصادف نهار الأحد الواقع فيه 29 كانون الثاني 2023
ذكرى مرور ثلاثة أيام على وفاة فقيد الشباب الغالي المرحوم
الدكتور الحاج أحمد محمد حسون

والده: المرحوم الحاج محمد حسون
والدته: المرحومة الحاجة سهيلا غدار
أولاده: رامي ورايا
شقيقه: الحاج حسين (زوجته الحاجة ندى قاووق).
شقيقاته: بتول، ليلى (زوجة محمد حلاوي)، إيمان (أرملة المرحوم سمير صفي الدين)، المرحومة لبنى (زوجة أحمد فرج) وسوسن.
وبهذه المناسبة ستتلى آيات من الذكر الحكيم ومجلس عزاء عن روحه الطاهرة في تمام الساعة العاشرة صباحاً في النادي الحسيني لبلدة الغازية (للنساء في منزل الفقيد الكائن في الغازية - ساحة الملعب «طيلة النهار»).
تُقبل التعازي في منزل الفقيد الكائن في الغازية يومي السبت 28 والأحد 29 كانون الثاني 2023.
للفقيد الرحمة ولكم الأجر والثواب الأسفون: آل حسون، غدار، قاووق، حلاوي، صفي الدين، فرح وعموم أهالي بلدة الغازية.

استراحة

كلمات متقاطعة 4231

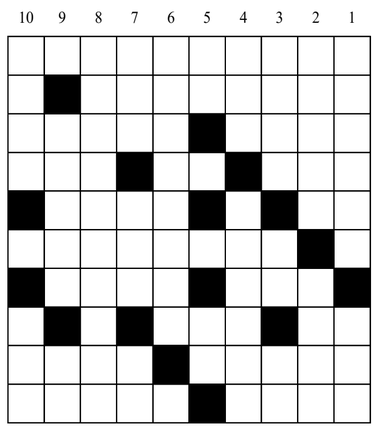

أفقيا

1- ممثلة ومغنية وراقصة أميركية – 2- أحد متصرفي جبل لبنان – 3- احدى المهن – من الأحجار الكريمة – 4- وقت وحين – للتمني – وجع – 5- عكسها سقي – رقادي – 6- مواطن من بلد اوقياني – 7- غصن مستقيم – يعلم – 8- نور بالعامية – عائلة أديب وصحافي مصري راحل – 9- من أدوات النجّار – جَلود لا يشتكي – 10- ريحان يُزيّن به مجلس الشراب – مصنوع من زجاج نقي صافٍ

عمودياً

1- زوجة نابليون الأولى – من الحيوانات – 2- جامعة في اسكتلندا – شكل وهيئة بالأجنبية – 3- يُحفظ – حرف نصب – متشابهان – 4- نهر في دولة جنوب أفريقيا – عائلة موسيقي سويسري راحل – 5- إله – حرف نصب – 6- شاعر فرنسي راحل – 7- حسَن الثوب بالألوان والنقوش – من أسماء الأسد – حبّة خبيثة – 8- عاصمة سورينام – 9- موقع أثري في المغرب – وَرِك – 10- بئر في مكة في الحرم الشريف – من الطيور

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1- أرمسترونغ – 2- وأد – احيرام – 3- ست – كيا – نمر – 4- الوقت – بو – 5- الضبا – آسيا – 6- ريف – نورهان – 7- مرض – بني – 8- فا – لير – لجج – 9- مال – نا – 10- شارل بودلير

عمودياً

1- أوسكار – فوش – 2- رأت – ليما – 3- مد – أصفر – مر – 4- كلب – ضلال – 5- تايوان – يلب – 6- رُحاق – وبر – 7- وي – تارن – ود – 8- نرنّ – سهيل – 9- غامبيا – جني – 10- مروان نجار

sudoku 4231

6	3					5	
9		4	6			7	
		7			5	3	9
	2			9	7	1	6
			3	8	6		
5		8	1				
1		5	9			2	
		6			1	4	3
	9			7			5

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أو عمودي.

حل الشبكة 4230

2	1	7	5	9	6	4	3	8
5	4	6	8	7	3	1	9	2
3	8	9	1	2	4	5	7	6
6	7	8	2	1	5	9	4	3
1	9	5	3	4	8	2	6	7
4	3	2	7	6	9	8	1	5
8	6	1	9	3	2	7	5	4
9	2	3	4	5	7	6	8	1
7	5	4	6	8	1	3	2	9

مشاهير 4231

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

ممثل وطيار أميركي بدأت شهرته في أواخر سبعينيات القرن الماضي

5+4+11+7+9+6 = بين الحار والبارد ■ 8+3+2+1 = عاصمة الاسكا ■ 10+5 = خنزير بري

حل الشبكة الماضية: **عدي بن الرقاع**

إعداد
نعوم مسعود

البلاد

شتات

وإن استمرّت هجرتنا سنحرّرها

مطر عدوان

بعد وقت ليس طويلاً، سيصير الفلسطينيُّ، فلسطينياً سورياً - لبنانياً - غزاوياً، تضاف إليه الجنسية الجديدة التي سيحملها من أوروبا أو أميركا. سيصير اللاجئ الفلسطيني لاجئاً ومواطناً في بلد ما، بعدما عاش عمراً طويلاً هو وأجيال من اللاجئين كلاجئين في دول عربية عدة، بعضها اعترف له ببعض الحقوق الطبيعية له كإنسان، وبعضها لم تعترف به كإنسان ولا كفيره، ظلّت تعتبره زائداً على أرضها، ومعنى وجوده الوحيد الكارثة المستمرة.

أن يصير اللاجئ الفلسطيني مواطناً في بلد ما، يعني أنه مرّ بلجوء جديد على الأغلب، وحمل جنسية بدلالة لجوءين أو أكثر، واحد من وطن مستعمَر، وآخر من مخيم سكنه الفلسطيني بعدما هجّره المستعمر من وطنه.

التهجير بسبب المستعمِر، واضح جليّ، ومعروفة أحداثه، ونتائجه واضحة بعشرات المخيمات المنتشرة بين فلسطين وسوريا ولبنان والأردن، بينما «الهجرة» أو التهجير من البلدان خارج فلسطين، فأسبابها متعددة، منها الحروب، وما يطرأ عنها من موت وألم وعوز، وتحوّل البيئة الحاضنة إلى بيئة طاردة رافضة للآخر «الغريب».

هؤلاء الفلسطينيون الذين يهاجرون، يحملون أطفالهم، وينجبون في البلاد الجديدة، يحاولون تعليم الصغار لغتهم العربية، وثقافتهم الأصلية، بينما تقوم البلاد الجديدة بتعليمهم لغة البلاد وثقافتها. سيعرف هؤلاء الصغار منذ نعومة أظفارهم أنهم من فلسطين، وأنّ أهلهم تربّوا في مخيمات، وأنهم خرجوا منها لأسباب عديدة، منها المعاناة، ومنها أنهم بلا جنسية، وأن الانتماء المعنوي لفلسطين لم يكتمل بعلاقة مادية خارج أوراق الأونروا، وبطاقات الهوية من البلدان المضيفة المعنونة بتوضيح، أنها «بطاقة لاجئ» مؤقتة، وهذا التوقيت، كما يوضحون، حتى تحرير فلسطين وعودة اللاجئين، لكنّ أحداً لم يوضح، أنها مؤقتة حتى تغضب تلك الدول المضيفة على الفلسطينيين، فترحّل أو تضيّق أو تشلّ حياة اللاجئين، فيخرجون «طوعاً» بحثاً عن بلاد جديدة.

في تلك البلاد الباردة غالباً، يحدث أن يصغي الفلسطيني إلى شعوب لم تعرف عن قضيتهم، ولم تسمع بمكان على الخريطة اسمه فلسطين، لكن مع إحالة صغيرة، أن المكان ذاته أمسى اسمه «إسرائيل» يستقيم النقاش، ويدخل حيّزاً جديداً، يضطرّ فيه اللاجئ - المهاجر، إلى شرح وتوضيح الحكاية منذ البداية، ومع ذلك، ستتفاوت الردود بين المتعاطفين والرافضين المتمسّكين برواية الغرب - إسرائيل عن تلك الأرض التي اسمها فلسطين، والصدمة ستأتي حين ينتبه اللاجئ إلى أن قضيته، في نظر الغرب، لن تكون قضية حقّ، بل إنها مسألة قابلة للمساومة، وقابلة للأخذ والردّ والنقاش الطويل، وصولاً إلى الإقناع أو عدمه، لكن مع مزيد من النقاشات، مع مزيد من الدأب على الانتماء،

سيتغيّر الأمر، هذا ما يحدث خلال الحروب التي تشنها إسرائيل على قطاع غزة، تخرج تظاهرات كبرى في شوارع أوروبا وأميركا، تعلن رفضها للقتل، وتضامنها مع الفلسطينيين، إنها جهود هؤلاء الذين هاجروا، وجهود عرب ومتضامنين غربيين مع فلسطين. سيكتشف اللاجئ - المهاجر، أنه ملزم بتعليم صغاره عن فلسطين، وإخبارهم أنّها حقهم، وما هجرتهم إلا مؤقتة في سبيل عودة دائمة إلى فلسطين، حيث كان الأجداد وأجداد الأجداد يسكنون ويعيشون ويموتون. وحتى تحقيق ذلك، لا بدّ من عمل، عمل كثير، لا أعرف اليوم مسؤولية من، لكنه على الأقل مسؤوليتنا جميعاً أن نوفّر كل اللازم لتعليم أجيال قادمة عن أرضهم، وتعليمهم بأنهم ملزمون بالنضال من أجل فلسطين، من أجل تحريرها والعودة إليها.

هجرة أبناء المخيمات: طريق آلام ووطنان

نعيم إبراهيم

غادروا عالم المخيّم في سوريا مكرهين لا مخيّرين، والغصة تملأ قلوبهم. ساروا إلى عالم مجهول في طرق جلّها كانت وعرة وقاسية، وواجهوا الموت في البحر هروباً من واقع لا يتحمّل اللاجئون الفلسطينيون مسؤوليته، بل هم بالفعل ضحاياه.

لقد عاشت المخيمات الفلسطينية في سوريا منذ عام 2011 ظروفاً تعدّ الأصعب، منذ نكبة عام 1948؛ تدمير للمنازل وقتل وخطف وتهديد وتشريد ونهب على أيدي فصائل مسلحة حاولت أن تجبر الفلسطينيين على المشاركة الفعلية في تدمير سوريا مثلما حصل في عدد من الدول العربية تحت مسمّى «الربيع العربي».

عدد كبير من الفلسطينيين الذين عانوا من كل ذلك، لم يملكوا أيّ خيار آخر غير الهجرة، لأنهم فقدوا بيوتهم وممتلكاتهم وحتى أعمالهم، ومنهم من حصلوا على درجات عليا في الدراسة ونالوا شهادات بمختلف الاختصاصات العلمية والأدبية والمهنية.

ضريبة البقاء والخروج

«م. ع.» مسنٌّ (84 عاماً) رأيناه جالساً أمام منزله الذي تهدّم جزء كبير منه في مخيم خان الشيح في ريف دمشق، اقتربنا منه وسألناه عن وضع أسرته بعدما عادت الحياة الطبيعية إلى المخيم، رفض في البداية التحدث، لكنه بعد برهة من الصمت وبقائنا معه أمام منزله، وإصرارنا على سؤاله مجدداً، انطلق في الحديث ببطء شديد، كانت كلماته غير واضحة تماماً، غير أن تعابير وجهه وحركات جسمه كانت كافية لفهم ما قال: «استشهد ابني إبراهيم وهو يدافع عن هالمخيم وهالبلد قبل عدة سنين، وهاجر أخوه سعيد، وبقيت أنا وحرمتي هين، وبتجي بنتي نمرة المتزوجة كل يوم علينا، بتطبخلنا وبتنظف البيت وبترجع لبيتها».

عاد العم «م. ع.» إلى الصمت ورفع رأسه بتثاقل، نظر إلينا وإذا بدموعه تنهمر على وجنتيه، محاولاً متابعة روايته عن معاناتهم وما ترك استشهاد أحد أولاده وهجرة الآخر من غصة في صدره: «ما عاد حيلتنا شي، بس كرامتنا فوق كل شي، وفلسطين كانت بلدنا وراح تبقى بلدنا مهما حصل ما راح ننساها. ابني استشهد والتاني راح على الغربة وأنا وحرمتي هان راح نبقى ونموت وكلياتنا فدا بلادنا».

سامي ر.، مدرّس عمره 33 عاماً، كان في مخيم حندرات في محافظة حلب شمال سوريا، وتهجّر إلى مدينة حمص وسط البلاد، بعد تدمير بيته بالكامل من قبل مسلحين، يعيش الآن مع ابنته في بيت للإيجار، يقول: «لم يعد أمامي أيّ خيار سوى إرسال زوجتي وطفلي إلى هولندا، لأن الوضع هنا لا يطاق أبداً، بعدما فقدنا كل شيء والمعيشة أصبحت صعبة وراتبي لا يكفي إلا لأيام قليلة في الشهر، ولا تقدم مساعدات كافية لنا، ولا أستطيع بناء منزل جديد، لذلك ننتظر لمّ الشمل قريباً».

> اكتشفت أنّي فاشل بالنسيان وأنّ المخيّم وفلسطين سيبقيان في وجداني وضميري، وساوصي أولادي بذلك أيضاً، وكفى

بقاء الطفل حياً... أمل جديد

خولة ع.، ربة منزل عمرها 42 عاماً، تعيش في مخيم السيدة زينب، ماتت ابنتها وزوجها بعدما انقلب «البلم» في البحر أثناء التوجه إلى اليونان، تاركة طفلها الذي نجا بأعجوبة عن طريق بعض الأشخاص ممن كانوا على متن قارب آخر، روت لـ«الأخبار» القصة كاملة: «تزوجت بنتي من قريب إلنا قبل عدة سنوات، أنجبا طفلاً وكانوا يسكنون في غرفة داخل بيتنا الصغير، ولأنو ظروفنا صعبة كتير، والبيت صغير، وما في مصاري معنا تكفي لنعيش منيح، ويكون لبنتي وأسرتها بيت يعيشوا فيو، اتفقت هي وزوجها على السفر إلى أوروبا، وبعدما آمنوا المصاري بالدَّين من بعض الأقارب والمعارف، راحوا ع لبنان، ومن هناك ع تركيا ومنها ع اليونان. لكن ما حصل في البحر إنو انقلب البلم، ومات عدد من الناس بينهم بنتي وزوجها، وبقي طفلهما حيّ، لأنو كان في ناس تانيين في زورق ثاني، كان قريب من البلم، أنقذوا بعض ركاب البلم، ومنهم حفيدي. موت بنتي وزوجها كان صعباً كتير علينا وكسر ظهرنا، لكن هذا قدرنا وقدرهم، والحمد لله بكل الأحوال».

خوف من تفكيك المخيمات

ثمّة تخوّف كبير في صفوف أبناء الشعب الفلسطيني، ممّا يتم التخطيط له لجهة تفكيك التجمعات والمخيمات الفلسطينية في الشتات، بهدف تمزيق النسيج الاجتماعي والوطني للاجئين الفلسطينيين، وتمزيق وحدة فلسطينيّي الشتات، وتذويب هويتهم الوطنية عبر إجبارهم على المغادرة والبحث عن الأمن والأمان في بلاد العالم، وصولاً إلى تمويت الانتماء للوطن الفلسطيني، وإنهاء التمسك بمواقف الإجماع الوطني التي تقول بحق العودة إلى فلسطين، غير أن ما يبدد هذا التخوف هو إصرار الفلسطينيين على حبهم لبلدهم، حتى لو هاجروا إلى أصقاع العالم. هذا ما أكده الشاب الثلاثيني بشير ز.، من مخيم اليرموك، يعمل نجار موبيليا، ويعيش الآن في ألمانيا: «أعيش في ألمانيا منذ تسع سنوات، وحصلت على الجنسية، وتزوجت فتاة ألمانية، وأنجبت منها ثلاثة أولاد، أوضاعنا تحسّنت كتير بعدما فتحت ورشة نجارة موبيليا، ولقيت الدعم الكافي من السلطات المعنية. صحيح إنّي غادرت مخيم اليرموك مجبراً مثل كل أهله، لكن ما راح إنسى أهمية المخيم وطفولتي فيه، وحتى بداية شبابي، وهو راح يبقى بذاكرتي وضميري، مثل ما هي فلسطين ستبقى بلدي، حتى وإن أخذت جنسية ثانية، وراح نبقى نكافح ونعلّم أولادنا على حبّ وطنهم المزدوج فلسطين وألمانيا، وممكن بالمستقبل يكون إلنا دور كبير في الدفاع عن حقوقنا وقضايانا».

ساوصي أولادي... وكفى

هذه القناعة تنسحب أيضاً على المهندس الثلاثيني كمال ح.، الذي يعيش الآن في السويد، بعدما كان من سكان مخيم درعا جنوب سوريا: «أنا حزين على كل الذين تركتهم بالمخيم، حيث تعلّمت معنى الحياة بزواريبه، ودرست في مدارس درعا وجامعاتها، لكني أجبرت على الخروج عام 2012 تحت وطأة جسامة الأحداث وفقدان السكن والمورد الاقتصادي، وكابدت مثل غيري البؤس والفقر، ولم تكن الرحلة سهلة أبداً، لأني من أول ما طلعت عالمركب كان لازم إتعلم أنسى. ومن أول ما وصلت إلى السويد، وطوال كل هذه السنين، مع تحسن وضعي الاجتماعي والاقتصادي والمهني كثيراً، اكتشفت أني فاشل بالنسيان وأن المخيم وفلسطين سيبقيان في وجداني وضميري، وساوصي أولادي بذلك أيضاً، وكفى».

من المخيم إلى أوروبا... إلى؟!

حنين رياح

ترك خلفه دلواً من الدهان، وأغلق رامي (اسم مستعار) باب غرفته في مخيم برج الشمالي، وتوجّه منذ 10 سنوات إلى «الحلم الأوروبي»، على متن مركب من الخشب مع 114 آخرين. تاه في البحر لمدة أربعة أيام، في رحلة تستغرق ثلاث ساعات كحدّ أقصى، ووصل إلى قبرص، اضطرّ إلى البقاء أكثر من سنة ونصف سنة، ليسافر بعدها بجواز سفر تونسي مزوّر إلى تركيا وبعدها إلى اليونان، ثم وصل إلى رومانيا التي سجن فيها 8 أشهر، ليتوجّه بعدها إلى لندن حيث يستقر الآن منذ سنوات، من دون أن يحصل على أوراق لجوء أو إقامة. إنها «رمية حظ»، هكذا يرى رامي الهجرة من المخيم. فالبعض يحصل على أوراق الإقامة في أربعة أيام، في حين أن عمّه لا يزال يقدّم طلبات إلى السلطات للحصول على الإقامة ويفشل منذ 17 عاماً، ورامي ينتظر منذ ما يقارب التسع سنوات.

رامي يحارب للعيش هناك، ولا يزال لاجئاً أينما حلّ، لكنه يدعو كل شخص يعرفه إلى الخروج من لبنان، واللجوء إلى أي دولة أوروبية، لأنه حسب ما يقول: «لن تموت من الجوع في هذه البلاد عندما تعمل». فعلى الرغم من أنه لا يزال يعمل بمهنة البناء، ووصفه لحال الطبابة بالمملّة وغيّر الفعّالة في بريطانيا، وانتقاله من لندن إلى مدينة في الأطراف بسبب الأزمة المالية بعد الحرب الروسية - الأوكرانية، فإن الحياة مع بعض «الشوارع النظيفة» أسهل من «ضيق التنفس» في زواريب المخيم.

يخرجون صغاراً وكباراً

هناء دغمان، لاجئة فلسطينية أخرى من مخيم برج البراجنة، وصلت حديثاً إلى ألمانيا من دون أي فرد من عائلتها، بعد حوالي 90 يوماً قضتها متنقلة بين المطارات والبحار. أغلقت منزلها في مخيم البرج بجنزير حديدي، وأخذت مفتاحه معها كما فعلت والدتها عندما خرجت من فلسطين أول مرة. لم يكن خروجها من المخيم بالأمر السهل، فهي ابنة الـ 63 عاماً، ولدت في المخيم وكوّنت كل ذكرياتها فيه. تركت لبنان لأنها «تفضّل الموت على طريق أوروبا على الموت في مستشفيات لبنان». شجّعها ابنها الذي هاجر قبل 10 سنوات وكوّن أسرته في ألمانيا.

لم تكن رحلتها مريحة، مع تكلفتها الباهظة مقارنة بأسعار السوق، إذ بلغت مصاريف طريق سفرها، من لبنان إلى سوريا فتركيا ثم اليونان، قرابة الـ 17 ألف يورو، بسبب حاجتها إلى اجتياز الطريق من دون «تخطّي الجدران وتسلّقها». كسرت هناء الصورة النمطية للمهاجرين الذين عادة ما يكونون في عمر الشباب.

لاجئ أينما حللت

«من بيت تملكه في المخيم إلى غرفة تشبه غرف مستشفى حيفا في مخيم برج البراجنة، ودورة مياه مشتركة مع الآلاف»، هكذا يصف ربيع السلعوس السنوات الأولى في ألمانيا. فالعنصرية في كل مكان، والأولوية للأوكراني اليوم، ويختلف الوضع القانوني من بلد أوروبي إلى آخر. ينصح ربيع أيّ مهاجر بأن يعرف «دهاليز القوانين» في الدول الأوروبية، يلجأ البعض إلى إنجاب الأطفال ليحصل على الإقامة التي تخوّله السفر والخروج بشكل قانوني من البلاد. أمّا في ألمانيا، فدائماً ما يصدر تحديث للقوانين في ظل الأزمة العالمية الراهنة.

> أغلقت منزلها في مخيّم البرج بجنزير حديدي، وأخذت مفتاحه معها كما فعلت والدتها عندما خرجت من فلسطين أوّل مرّة

عائق اللغة والتأقلم البطيء يجعلك «المهاجرين القدامى»، أمّا من يصل في هذه السنوات فلن يتمكن من إتقان الألمانية مثلاً بسبب كثرة من يتكلمون العربية في المحيط. ربيع مهاجر منذ أكثر من 10 سنوات، بات يعرف شبكة كبيرة من الفلسطينيين في أوروبا، وأصبح يساعد العديد من الأصدقاء أو من يطلب المساعدة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، من خلال تقديم المعلومات لطرق الهجرة، من دون مقابل. فمجموعات عديدة في «فايسبوك» تعجّ براغبي الهجرة، إلا أنه يرى أن الغالبية تتّجه إلى مهرب حتى لو طلب 5 أضعاف المبلغ اللازم، فبعض المهرّبين يذيع صيتهم في المخيمات، يطلبون مبالغ تتراوح بين 5 آلاف إلى 10 آلاف دولار للشخص الواحد، مع العلم أن بعض الطرق تكلف ألفي دولار فقط.

لا يفكر ربيع بالعودة الدائمة، فما يعتبره الأوروبي وضعاً أو معيشة سيئة يراه الفلسطيني أفضل من الحياة في لبنان، ويمكن أن يكون مصدر رزق عائلة كاملة في المخيم، وخاصة مع ارتفاع سعر صرف الدولار مقابل الليرة اللبنانية، ما جعل بعض الدولارات القليلة عوناً كبيراً لعائلات المغتربين من المخيمات. وجود ربيع في بلاد بعيدة عن فلسطين يجعله أكثر فهماً وتمسكاً بحقه، كما يقول: «نحن نحمل الحقد على عدونا الذي بسببه وصلنا إلى هذا الشكل من الحياة».

خروج من الموت

يحلم بهاء أبو دوما صاحب «قهوة» في مخيم شاتيلا بحياة وردية، فبعد رحلة صعبة من طرابلس، غرق فيها المركب في عرض البحر، إلا أنه يكرر دائماً «في غد نسافر» على مسامع أهل المخيم، يحدثه صديقه الأربعيني عن رحلته إلى ألمانيا التي عاد منها بعد 3 سنوات ليشاعة المخيمات هناك و«كثرة الذلّ وقلة الكرامة»، إلا أنه لا يكترث ويدير «أذنه الصماء».

في رحلته الأولى، باع جميع الذهب الذي تملكه والدته، والآن ينتظر ليجمع القليل من المال ليهاجر مع خطيبته. يضحك أبو دوما عندما نسأله عن شعوره بالخوف عند غرق المركب، يستذكر مشهداً واحداً، هو إجبار أحد المهاجرين على متن القارب، على خلع سترة النجاة بالقوة، لأنه لا يملك واحدة منها قبل الإبحار، وصل إلى تركيا وهو يسبح وقضى فيها أشهراً ليعود إلى لبنان، ويبدأ التخطيط من جديد لسلوك طريق آخر أكثر أماناً، غريب أمره، يظن الواحد منا أن مجرد سماع أخبار غرق المهاجرين، رادع كبير للآخرين، فكيف بمن جرّب الغرق، إنّه إصرار الخروج من الموت عبر طريق الموت.

(هيثم الموسوي)

«القمح مرّ في حقول الآخرين»

يوسف فارس

خرج سطر الشاعر محمود درويش الشعري «القمح مرّ في حقول الآخرين.. والماء جارح» من حيّز تجربته الذاتية، ليصبح تجربة جمعية عايشها الآلاف من مهاجري القطاع، عقب حرب عام 2014. لم يعد خيار الهجرة من الوطن طرحاً شاذاً، بل تحول «مشروع العمر»، ليس للشباب الذي لم يجد فرصة لتكوين نفسه فحسب، إنما للمئات من الكفاءات المهنية والعملية.

غير أن الصور الجميلة التي تضج بها وسائل التواصل الاجتماعي، لا تعكس حقيقة أوضاع المهاجرين، يقول المصور الصحافي محمود أبو سلامة: «إن الحكم على العيش في الغربة، انطلاقاً من صورة بديعة لأحدهم أمام مضيق البوسفور، هي أعلى درجات الخديعة، خلف هذه الصورة الجميلة، ثمة حياة مزدحمة بالمصائب والصراع لتأمين لقمة العيش، العمل لأكثر من 12 ساعة يومياً لتدفع أجرة المسكن... انعدام الأمان الاجتماعي والشعور بالفراغ». يتابع الشاب، الذي هاجر من غزة إلى تركيا لمدة خمس سنوات ثم عاد أخيراً بسبب ظروف عائلية خاصة، حديثه إلى «الأخبار»: «عندما تركت القطاع، كنت قد استنفدت كل محاولاتي للحصول على وظيفة، أو مصدر دخل شهري مستقر، لكني لم أوفق، كان خيار الهجرة هو الخيار الأخير، تجربتي كانت جيدة، رغم أن تجارب أكثر من رأيت من المهاجرين، كانت من أسوأ ما يكون، الشعور بالوحدة وانعدام السند، شعور قاسٍ».

أمّا الصحافي محمد عثمان، فقد اضطر لترك القطاع عام 2016، بعد نشره تحقيقات استقصائية عدة، كشفت فساد بعض الجهات المتنفّذة، وبعد تراكم المشكلات، وضيق فرص العمل، خرج من غزة باحثاً عن عمل ضمن تخصّصه في مصر، قبل أن يقرر الهجرة إلى بلجيكا، يروي تجربة الهجرة لـ«الأخبار»: «لم أكن أفكر في الهجرة، لكني لم أنجح بالعمل في مجالي الصحافي في مصر، لذا اضطررت للهجرة وأنا لا أمتلك تصوراً مسبقاً عن الحياة هناك» يواصل: «اضطررت للعمل في غير تخصصي، في مهن مثل قطف الفواكه والعمل في مصنع للأجبان، كان علي التأقلم مع كثير من التفاصيل غير المرضية».

> تتقاطع تجارب المهاجرين في عاملين مشتركين، الأول هو التحدي الثقافي والاجتماعي، والثاني هو الشعور الحاد بالاغتراب

تتقاطع تجارب المهاجرين في عاملين مشتركين، الأول هو التحدي الثقافي والاجتماعي، والثاني هو الشعور الحاد بالاغتراب، يقول الشاب أحمد جمال، الذي كان قد هاجر من القطاع قبل 10 سنوات، أن الحياة في النرويج وفرت له كل ما يشتهي، خصوصاً أنه لم يهاجر بدافع البحث عن عمل أو الحاجة المادية، إنما في سبيل العيش في ظروف حياتية مستقرة غير مهددة بالحروب. يستدرك الشاب الثلاثيني الذي كان يعمل محاضراً جامعياً في القطاع: «لم تكن فكرة العودة إلى غزة حاضرة في ذهني، إلا عندما كبر أطفالي الثلاثة، في كل عام دراسي يحاصرني تحدي خروجهم في رحلات تخييم مشتركة، رفضي الدائم عرضني للمساءلة... من المستحيل أن يكبر أبنائي بذات القيم الدينية والاجتماعية التي تربينا عليها في مجتمعاتنا، المدرسة والشارع وكل التفاصيل تزاحمني تربيتهم».

يواصل حديثه إلى «الأخبار»: «ثمة تحدٍّ لا يقل صعوبة، هو الوحدة، الغربة، الشعور القاسي بغياب السند الاجتماعي، ويتضاعف ذاك في الحروب، يحاصرنا القلق على ذوينا وأهلنا، نشعر حينها بأن الرفاه الاقتصادي والحياة الراقية، أصفار على شمال كل التفاصيل التي نفقدها».

البلاد

شتات

فحوى الهويّة بين بحر وبحر!

وليد عبد الرحيم

في اكتمال اغتراب الأفراد والجماعات عن جغرافيا الوطن - أو ربما عمّا كان يعتبر وطناً في بعض مواضعه ضمن صيغة الشتات كأمر واقع - فإنه في حالة الاستثناء السائدة، تبرز انتكاسات إعادة صياغة الهوية أكثر وضوحاً، ذلك أنّ الجغرافيا تمتحن حدود الاختلاف بنفس القدر الذي تتفق فيه مع سياق الرغبة الدفينة في الإبقاء على عنوان لافتة الانتماء، هذا العنوان الذي يصعب محوه من خريطة الشخصية بحكم الرسوخ والتجذّر وصلابة نقوشه على جدران الذاكرة.

ولئن كانت الهوية تعريفاً بالذات ضمن الجماعة، فإنها من جانب آخر تعني تميزاً للشخصية بمقاميها

رموا بهوياتهم مع وصول البواخر إلى شواطئ يافا وحيفا، في حين وصل الفلسطينيون بالآلاف إلى أوروبا فردياً بكل مشهدية مأسوية. لكنهم رموا بزوارقهم

الفردي والجمعي، سواء من ناحية الحفاظ على تجلياتها اليومية، أو لجهة عدم الفكاك من تقييم الآخر الذي يكون غالباً فاقم الصورة في بلد الانتقال الجديد، وقد يدلي بعنصريته العلنية أو الممارساتية اليومية غير المباشرة. هنا تستفزّ الهوية الأصليّة، من زاويتي كيانها الفردي والجمعي في آن معاً، ليندمجا غالباً في دائرة مشتركة ضمن مشهد تعبيري يستقي جدليّته منهما إلى أن يظهرا كمتّحدين، ليسطع أكثر منسوب النزعة الهويّاتيّة الوطنية بحكم انسجام استهداف وتداخل العام والخاص - الفردي والجمعي، السياسي والثقافي، المعاصر والقبلي.

هنا يتم اقتراض الهويات الفردية من قبل الجمعية، كما يتم رفد الجمعي بالفردي، هكذا تشكلت القبيلة البدائية ذاتياً، وكذا تستمر بمفردات أكثر حداثة حتى تصل أحياناً إلى نزعة العنصرية القبلية وتطغى على ممارساتها التي تصل إلى مستوى الوحشية أحياناً.

يمكن الذهاب نحو الاستماع إلى إيقاع يوميّ السّطوع، يعنى بذلك ما يجري في فلسطين ومع الفلسطينيين، باعتبارها الصفة التي كلما ترسّخت هويتها/ هويتهم اشتدّت أزمتها/ أزمتهم، بحكم اشتباكها مع هوية إلغائية مضادة مصنّعة في معامل السياسة الاستعمارية مع طباعة «لوغو» ديني عنصري على صندوق أذهان جمهورها، «الضحية القاتلة»، وهي ضحية مخدوعة بالهوية المشتركة الوهمية، وبالتالي فإنها تمارس القتل وتكرّس عنصريتها لتصديق ذاتها، لكنها مع مرور قرن بدأت بالاقتناع بلا جدوى تصنيع الهوية، ذلك أنها - أي الهوية - في الأصل كيانيّة تجتمع فيها مميّزات الذاتي التلقائي للانتماء مع الإدراك الواعي للخصوصيات المشتركة مع الجمعي.

ما سبق من عرض هوية الآخر يناقض واقع الهوية الفلسطينية، ويشكّل تضاداً صارخاً في شتى محتوياته وتجلّياته، فالفلسطيني إن وضع أو هجّر إلى أي مكان يحمل خصوصية الهوية بشقّيها الفردي والجمعي معه في حقيبة السفر، على النقيض من الآخر/ العدو الذي تخلّى عن هويته الحقيقية الفردية والجمعية أيضاً خلال اشتراكه المباشر في محاولة اقتباس هوية أخرى، صناعية، أبعد ما تكون عن حقيقة خفايا ثقافته وسماته وآلية تفكيره ولغته، تلك الهوية التي لم يسمع بها يوماً إلّا في المعبد والأساطير وعبر خطب الساسة، ليجذب المقولة الدينية إلى حقل هو ذاته يدرك مسبقاً بأنه ليس حقله، من هنا يبدو اليهودي المستوطن في فلسطين مدافعاً بقوة الطائرات والقتل والرصاص ودعم العالم عن وهم الهوية، في حين يبدو الفلسطيني غير مضطر تماماً إلى الدفاع عن هويته المستهدفة من حيث الصياغة أو التأويل، إنه مشغول فقط بترسيخ ما هو قائم، لا استجلاب ما هو قادم.

وحدهم الفلسطينيون يجيبون عن السؤال الهويّاتي الاعتيادي بطريقة غير اعتيادية، لتبدو الهوية عندهم بمثابة حمض نووي «D.N.A»، لا مجرّد انتماء تلقائي لمكان ولادة أو أصل عائلة. لهذا هم يفهمونها بطريقة مغايرة لأي شعب في العالم بحكم فرادة الراهن، ولذا سوف يجيبك بخصوص الفحوى وكأنه يردّ على سؤال مصدره هجومي أو مشكك، ذلك رد فعل على النكران، وقد يحتوي الرد بعض العصبية، وربما التحدي أحياناً بحسب منطق السائل، فإجاباتهم لموظفي المطارات تختلف عنها في المقاهي، وأمام تعقيدات الحدود يتم استلهام المسألة بطريقة أكثر ابتكاراً ووضوحاً، لكنهم لن يكونوا في الحالات كافة مرتبكين بصياغة الفحوى، تلك واحدة من أهم سمات الشخصية الهوياتية عندهم. ومن هنا يشعر القريب والبعيد بذلك التشابه في السمات العامة لهذا الشعب من حيث مفردات التعريف، كما يدرك الآخر/ العدو ذلك، فلا ينظر إلى الفلسطيني إلا على أنه مجموعة صور وشخصيات متكررة الجوهر ليبدو «داعية السلام» نسخة معدّلة عن الفدائي «الإرهابي» يكملان بعضهما ويشحذان همّة بعضهما، لهذا تصدر الدعوات المتكررة بعدم الانخداع بجهود المتنازلين عن جزء أو عن كل الجغرافيا، فينظر إلى المقاتل الذي يقوم بعملية كالسياسي المهادن، ومن هنا يمكن فهم تعبيرات الصحافة الإسرائيلية التي تصرّح مراراً بأن عرفات وحتى عباس يدعوان إلى السلام بدعم من المقاتلين، والمقاتلون يقومون بعمليات لدعم كذبة السلام!

إذاً، تبدو صراعات الهوية المحتدمة على أرض فلسطين فريدة من نوعها عبر التاريخ، وهي في كل الأحوال تمثل البؤرة الأولى، والمانشيت الأساسي لعناوين ومفردات الصراع كافة، تلك مسألة مفهومة للطرفين بكل جلاء، لهذا يبدو التقارب أو التكامل بين الهويتين مستحيلاً في كل مرة وكل حين، فالفلسطينيون في المناطق المحتلة عام 48 يحملون الهوية الإسرائيلية ورقياً، وينتمون في الواقع بقوة إلى الهوية الجمعية ذات الدلالة الوطنية المترسّخة تاريخياً وتلقائياً، حتى إن بعضهم ممن توهّم بالانتماء في فترة ما لجدوى «الأسرلة» سرعان ما بدأ باستعادة اكتشاف ذاته/ هويته بالتدريج، وساعده على ذلك وضوح العنصرية المتنامي على الجانب الآخر متمثلاً في أوجه بقانون «الدولة اليهودية» التي أعادت إلى أذهان الفلسطينيين الذين كان بعضهم قد سكن للأمر الواقع مقولة الشعب صاحب البلاد وفكرة الوطن بشكله وحلمه الأبدي. ومع كل الضعف الذي يعانونه بدأوا بالتعبير أكثر عن الهوية الوطنية، سواء كما جرى في مدن الداخل المحتل عام 48 عقب هبّة حي الشيخ جراح، أو ما يظهر هذه الأيام من خلال تحدّي تحذيرات حكومة الاحتلال مثل منع رفع علم فلسطين في عموم البلاد.

على ذلك، فقد تم تهجير الآلاف من مخيمات لبنان، ومن مخيمات سوريا، ودفع اللاجئون نحو أوروبا على متن قوارب الموت، وما إن وصلوا حتى خرقوا كلّ التوقعات خلال فترة وجيزة. بعضهم ذهب نحو ذاكرته الأولى الموروثة، مبيّناً شطر فلسطين زائراً فور حصوله على جواز سفر أوروبي. البعض الآخر بدأ بالعمل على تشكيل جمعيات ثقافية وفكرية وتجمّعات غلب عليها طابع التمسك بالهوية الأمّ ووطنها الطبيعي جغرافياً الراسخ تاريخياً. هنا تبرز أيضاً من جانب ما معضلة الاندماج والتعايش في البلدان الأوروبية، ذلك مفصل خطير، فلا الاندماج الكلّي ممكن أو وارد - وهو مطلب بلدان اللجوء - ولا التعايش عن الهوية مندرج في الحسبان. ويا للمصادفة الغريبة إذاً، فقد أتى المستوطنون اليهود من أوروبا جماعات وفرادى، ثم رموا بهوياتهم مع وصول البواخر إلى شواطئ يافا وحيفا، في حين وصل الفلسطينيون بالآلاف إلى أوروبا فردياً بكلّ مشهدية مأسوية، لكنهم رموا بزوارقهم وأحياناً أجسادهم في البحر، ثم احتفظوا بالهوية، تلك الهوية المضنية التي لا تعتريها أيّة صناعة قسريّة.

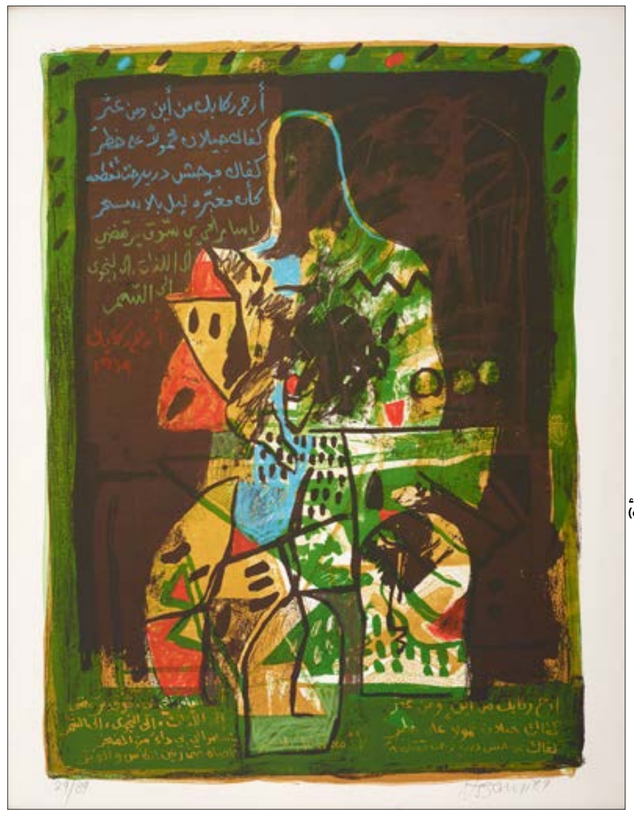

(ضياء العزاوي)

كيف نجد شمس فلسطين... في أوروبا؟

نضال خلف

لطالما شكّلت الرحلة جزءاً من الرواية الفلسطينية. من رحلة القسّام إلى «رجال في الشمس» وليس انتهاءً برحلات الموت عبر البحر المتوسّط وغابات أوروبا. وإن كان خيار «التنقّل» إكراهاً للفلسطيني، يبقى البحث عن جدوى التجربة خياراً حرّاً لا تقيّده ظروفٌ ولا اختلاف التجارب. فيما يلي عبورٌ سريع على تجربة فلسطينية في أوروبا، تنطلق من منظور الفئة المتعارف عليها باسم «فلسطينيي لبنان» ولا تتوقّف عند حدود الانعزالية، في محاولة لاستخلاص ما أمكن من الدروس والمفاهيم التي تصبّ في رحلة البحث عن الخلاص الجماعي لشعبنا العربي الفلسطيني.

لعلّ أولى الصدمات التي يتلقاها الفلسطيني عموماً، وفلسطينيو لبنان خصوصاً، هي حقيقة عدم حصريّة اللجوء في الخارج، وهو أمرٌ شكّل جزءاً أساسياً من الهويّة السياسية الفلسطينية على مدى عقود. ففي أوروبا، يذوب اللجوء الفلسطيني «الأول» في بحر اللاجئين القادمين من بلادٍ مختلفة، إلى أن يخالج المرء شكّاً حول جوهر هويته كلاجئ فلسطيني من خلال الطرح التالي: «الكلّ هنا لاجئ، فما الذي يجعل لجوئي مميّزاً؟».

والواقع أنّ هذه الصدمة، على عكس ما يظنّ البعض، هي فرصةٌ لتوسيع آفاق فهمنا لهويتنا كلاجئين فلسطينيين ضمن المسار السياسي العالمي. فمنذ البدايات، كانت هوية اللجوء تجسّد ركناً من أركان قضيّتنا العربية، لأنّ اللجوء بوصفه نتاجاً مادياً لعملية التهجير القسريّ التي يقوم عليها المشروع المُعادي، شكّل لنا مرآةً ننظر من خلالها إلى حقيقة صراعنا. وعبر هذه المرآة، تشكّلت لدينا غايةٌ جماعيةٌ تقوم على فكرة بسيطة وهي أنّ الخلاص من اللجوء وأزماته لن يتمّ إلا عبر التخلّص من مسبّب اللجوء، أي إسرائيل. ولهذا، تكمن ميزة اللجوء الفلسطيني بارتباطه السببيّ المباشر بالمشروع الصهيوني: فالمشروع هو سبب اللجوء، ونهاية اللجوء شرطه زوال المشروع. من هنا، وعلى رغم جبال المصاعب المصاحبة للواقع، ظلّ اللجوء يشكّل مصدر قوّةٍ وغاية دفع رئيسية للشعب الفلسطيني في الخارج، وخير دليلٍ على هذا الأمر هو الرفض الفلسطيني المُطلق للتوطين والاستعداد الدائم للتضحية من أجل هذه الغاية.

لكنّ الاصطدام بنماذج مختلفةٍ من اللجوء في الغرب يفتح الباب أمام خلطٍ (متعمّد في بعض الأحيان) بين اللجوء الفلسطيني ومفهوم اللجوء المجرّد. فالحكومات الغربية تتعامل مع اللاجئ بصفةٍ مجرّدة عن هويته، وهو ما يدفع بكثيرين إلى إذابة جوهر اللجوء الفلسطيني (الناتج من المشروع الصهيوني) في بحر اللجوء العالمي من دون تمييز. وخطورة هذه السياسة تكمن في نزع البُعد السياسي عن اللجوء الفلسطيني وحصره في الشقّ الإنساني الذي ينتهي -في أحسن الأحوال- بتحقيق بضع «انتصارات» فرديّة، لا تنفكّ ثمارها العامة تصبّ في مصلحة الإبادة المفروضة على شعبنا.

من جهة أخرى، فإنّ الاحتكاك بجموع اللاجئين غير الفلسطينيين في أوروبا، يكشف ارتباطاً شبه مباشر بين اللجوء الفلسطيني وسواه. في قراءة سياسيّة سريعة، يظهر لنا بوضوح أنّ وجه الشبه الأساسي بين اللاجئ الفلسطيني واللاجئين الآخرين في أوروبا هو أنّنا جميعاً من بلادٍ تُعدّ «مصالح حيوية» في قاموس السياسة الخارجية الأميركية. من باكستان لأفغانستان، وصولاً إلى العراق وسوريا والسودان وليبيا وأقطار المغرب العربي كافة، لن تجد شريكاً في تجربة اللجوء لا تمتلك أميركا مخططات للسيطرة على بلاده أو كبح نهضتها لغايات سياسية واقتصادية. فهل هي مصادفة؟ بالطبع لا. إذ مهما تنوّعت الأحداث المباشرة التي تدفع بموجات الهجرة/التهجير، يظلّ السبب الرئيسي لهذه الظاهرة هو الهيمنة الغربية على مسار الأمم، وما تقتضيه هذه الهيمنة من نهب ثروات الشعوب وإفقارها وتقسيمها ومنعها من تحقيق نهضتها وكياناتها المستقلّة. من هنا، مهما بدا المشهد ضبابياً، لا يحقّ لأيٍّ منّا أن يتجاهل دور الحكومات الغربية، بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، في التأسيس لنظام عالميّ يقوم على اختلال الموازين بين عالم الشمال وعالم الجنوب. من هذا المنطلق، تكتمل صورة اللجوء الفلسطيني كمشهدٍ من مشاهد الهيمنة الغربية، وليس كاستهدافٍ متعمّد للفلسطينيين من دون سواهم.

وهكذا، يشكّل هذا الإدراك فرصةً حقيقيةً للخروج من عقدة «يا وحدنا» الانعزالية من دون الغرق في محيط اللجوء المجرّد من المحتوى السياسي. فما بين هذا وذاك طريقٌ مستقيم يستطيع فيه الإنسان الفلسطيني فهم حقيقة وضعه الراهن من زاوية سياسية شاملة، لينطلق منها نحو ترتيب الأدوات اللازمة لخوض صراعه.

ومن هنا تنطلق التجربة الثانية التي يتشارك في خوضها أغلب الفلسطينيين في الغرب، وهي تجربة «التضامن». ففي معظم الدول الأوروبية، يندر غياب مجموعات ترفع اسم فلسطين أو تنادي بالتضامن مع الشعب الفلسطيني. وفي أغلب الأحوال، تتشكّل هذه المجموعات من الغربيين أنفسهم (سواء كعمودٍ فقريّ للمجموعة أو بشكل شبه كامل)، ويعتمد أغلبها استراتيجية الضغط على الحكومات من خلال مطالب حقوقية وسياسية كرفع الحصار عن غزة أو «وقف سياسة الأبارتهايد». وللوهلة الأولى، تجذب هذه المجموعات جزءاً لا بأس به من الشباب الفلسطيني لأسباب عدة، منها النفسيّ-العاطفي كالحاجة إلى مقاومة الإحساس الدائم بالعجز أو محاولة التعرّف إلى مساحات آمنة للتعبير عن الذات والانسجام مع المحيط. لكنّ الصدمة التي يتلقّاها الإنسان الفلسطيني عند خوض هذه التجربة ليست سلبية بالضرورة، وجوهرها لا يتعلّق بنوايا المسؤولين عن هذه المجموعات.

أوّل أشكال الصدمة يظهر عبر غلبة «البياض» على مجموعات التضامن مع فلسطين، أي هيمنة العامل المحلّي (بشكل كبير) على الخطاب والنشاط وتحديد غاياته. والتبرير الأساسي لهذه الظاهرة يكمن في حاجة خطاب التضامن مع فلسطين إلى «حماية» يؤمّنها المواطن الأوروبي من دون سواه. فحكومات الغرب تتمثّل بديموقراطية أثينا، حيث حرية الاختيار والتعبير عن الرأي مطلقة للجميع... ما عدا العبيد!

ومن هنا ننطلق إلى الشكل الثاني من أشكال الصدمة، وهو سقف الخطاب المتضامن مع فلسطين في هذه المجموعات. فخطاب «مناهضة الأبارتهايد» و«المساواة» هو أقصى ما قد يصل إليه التضامن الأوروبي. وذلك تعميمٌ لا تحبّذه الأقلام ولا الألسن، ولكن يفرضه الواقع. فالتضامن الغربي مع القضية العربية تتوقّف حدوده عند المسّ بوجود «إسرائيل». لماذا؟ لأنّ «إسرائيل» هي ببساطة عنوان النظام العالمي القائم على الهيمنة الغربية، وبفعل الهيمنة، ينتج فائضٌ ماديٌّ يسمح لفئات المجتمع الغربي كافة بالارتقاء إلى مستوى معيّن من المعيشة والحماية الاجتماعية (المتفاوتة) التي توفّرها الدول كنتاج لهذا الفائض. ومن دون هذا الفائض، لن يجد الأوروبي أسس منظومته الاقتصادية والقيمية بهذه السهولة. لهذا، فإنّ أي تصوّر عن تغيّرات شعبية جذرية محتملة في الرأي العام الغربي من شأنها أن تساعدنا على تحقيق غاياتنا، هو ضربٌ من الوهم. وخير دليلٍ على ذلك هو ندرة الصوت الفلسطيني الجذري في هذه الدول، الذي وإن ظهر، سيظلّ كما كان منذ سبعة عقود، مطارداً وحيداً لا يستحقّ كرم الديموقراطية الغربية! وذلك أمرٌ مفهوم، لا يتوقّع عاقلٌ سواه، لما يشكّله هكذا نشاط من خطر على منظومة الهيمنة. لكن، ومن جهةٍ أخرى، ثمة «تضامنٌ» أشدّ أثراً لا تدركه الأضواء ولا تشير إليه الضوضاء. بين جهةٍ شاب جزائريٍّ يقدّم لك خدمةً مجانيّةً فقط لأنّك مُن «فلسطين الحبيبة»، إلى دموع عجوز باكستاني يسأل الله أن يمنّ عليه الصلاة في المسجد الأقصى (مُحرَراً) قبل قدوم الأجل، تفاصيل كثيرة قد تبدو هامشية، ولكنّها ترسم خريطة جديةً لمفهوم «التضامن». مفهومٌ قوامه إدراكٌ فطريٌّ لحقيقة الصراع القائم في العالم، وما ينتجه من مآسٍ على شعوب عزيزة قدّمت للبشرية كنوزاً من العمل والمعرفة والقيم. هنا يدرك المرء أنّ التضامن، كما اللجوء، مصطلحٌ خبيث ما لم يُعرّف في سياق الحرب القائمة ضد شعوبنا.

ختاماً، كتب غسّان كنفاني لابنة أخته ليس جملةً شهيرةً: «لا يمكنك أن تجدي الشمس في غرفة مغلقة». هكذا هي حال الفلسطيني في بلاد الغرب، إذ لا يمكننا أن نتوقّع ملامسة حريّتنا من أروقة الغرب، ولا يجوز لنا التعويل على الوهم عوض اجتراح الجدوى في معركتنا نحو الحريّة. لذا، من واجبنا كفلسطينيين إدراك حدود التجربة في الغرب، ومحاولة استقاء ما أمكن من معانٍ تضفي إلى وعينا ووعي الأجيال القادمة صلابةً وصموداً.

أعرف الموت ويعرفني

محمد الخطيب

كنّا على شاطئ مدينة أزمير التركية، عندما التقيت بشاب قادم من بيت حانون لأول مرة، بدأت علاقتنا بعبارة خشنة قالها بحزم «يا زلمة فك عني، أنا أصلاً هارب من الموت» بعد ساعات من المشي، والخوف من «الجاندرما»، ومن كل شيء آخر مجهول.

«كيف نمشي مثل الأغنام في طريق ماخدنا حتماً ع الموت؟» سألني صارخاً وهو ينظر نحو الجموع الماشية، الموت رخيص في هذه الرحلة، سواء في البر أو في البحر، وأضاف: «مستعد للموت، أعرفه ويعرفني، لقد مات نصف أهلي، وأنا نجوت من القصف والحصار».

لكنه ظل يسأل «هنا، والآن، وعلى هالحدود، أموت كرمال إيش؟ عشان أصير لاجئ من جديد، كمان مرة؟ هاد هو الهدف؟» كانت أسئلته تحفر في صدورنا، اضطراباً، ولّد الأسئلة الكبرى التي كانت تدور في بال كل واحد منا، فبعد خسارتنا لكل شيء، ندفع ثمن موتنا وهروبنا الفردي للسماسرة وتجار البشر بالدولار الأميركي!

يكمل صاحبي «البيت حانوني» بصراخه نحوي هذه المرة وحدي «طيب، وإذا نجيت، إذا عبرت هالصراط غير المستقيم، لوين بدي أوصل، ألمانيا... هولندا... السويد... رح أقدم طلب لجوء، واعتراف من جديد، وأصير هالمرة لاجئ باوروبا ببطاقة ممغنطة.. يا سلاااام».

«بس على الأقل يا خالتي هناك في كهرباء ومي ودوا، في سقف بيت...» تدخلت الحاجة نظمية، القادمة من مخيم شاتيلا الواقع على هامش الحياة في مدينة بيروت، ولمن لا يعرف شاتيلا، هو جرح مفتوح ينام في خاصرة المدينة.

بينما يتجادل الناس في كلام صديقي الجديد، أتذكر أقوال بعض أصدقائي من المخيم، ممن وصلوا إلى أوروبا، بعضهم قالوا إن تلك البلاد تشبه موتاً بطيئاً، كأنها تأكل أطراف البشر وأحلامهم وتكسر نفوسهم، الآن لا أتذكر واحداً من الأصدقاء لم يتكلم عن إحباطه، أو اكتئابه، أو حتى على النقص في فيتامين «دال» الذي يتوافر بكثرة لدينا مع شمس كل نهار، فمدن كبروكسيل وأمستردام وبرلين، رمادية لا تعرف الشمس، عتيقة، تخنقها القوانين العنصرية، وهي مثل أهلها «باردين خبا بحبوش اللاجئين والمهاجرين»، أه كم سمعت تلك العبارة.

تذكرت تلك المحادثات بينما الأصوات من حولي تتعالى وتخفت، وأنا في عالم آخر، أحاول أن أفسر، لماذا تلك الآراء، ليسوا مبالغين، فكرت قليلاً بها، ربما يفكر الأوروبيون بنا على هذه الشاكلة، لأننا لا نشبههم، أو ربما لأننا نذكرهم بمجازر كثيرة ارتكبوها بحق شعوب عدة في العالم، خلال استعبادهم واستعمارهم لدول وشعوب أخرى، شيدوا من خلالها «حضارتهم» المطرزة بدمائنا، فبنوا أبراجاً من عظامنا، وافتتحوا متاحف عرضوا فيها جماجمنا، أو ربما هروبنا من الحروب والتعاسة في بلادنا أو بلدان لجوئنا تذكرهم بحقوق الإنسان التي يدافعون عنها في بلدانهم ويمنعونها عنا في بلداننا، ربما لكل تلك الأسباب وغيرها.

(عبد الرحمن قطناني)

تلك الأسئلة والإجابات، لم تكن في رأسي وحدي، كانت لدى الجميع، لكننا لم نفكر بها قبل أن نسير في هذه الطريق، وفهمنا عندما وصلنا، وصرنا نطوف في المدن، حفاة عراة، فنحن في بطن الغول.

أصحو من غيبوبتي على صوت الحاجة نظمية، التي تحاول باستهزاء مشبع بالملل، وبالحسرة التي تكاد تنفجر من عيونها ووجهها المكبوت، «إذا الله نجانا، ووصلنا لهناك، رح نوخد ضمان اجتماعي، وطبابة، وتعليم، وعمل، وحرية تنقّل، لا في حواجز ولا تصاريح من مخابرات الجيش، وما حنكون محتاجين لمساعدات الوكالة، ومكرمات القيادة، ومخصصات الفصائل وشركات المجتمع المدني».

■■■

ما بين برين، التركي واليوناني، مسافة بحر وساعتين، في القارب الذي قطع المسافة بسرعة طلقة، كان مشهد جزيرة «ليزفوس» ساحراً، بعد رحلة خاطفة ومريبة، كان المشهد يطل أخيراً على أوروبا، لقد وصلنا.

لم تدم الفرحة مع الانتظار الذي طال، مرت أشهر طويلة محشوة أيامها بالمعاناة والجوع، وكل أشكال الذل والمهانة، عشنا في الخيام في مكان أسموه مخيم «موريا»، ووقفنا في طوابير الطعام والمعونات، والانتظار المميت على أبواب العيادات البدائية، ومع كل ساعة جديدة، كان شبح الاعتقال يحاصرنا، نريد الهروب من جزيرة الموت، تلك التي كانت ساحرة.

وفي ذاك الانتظار الطويل، لم أعد أعرف أين صديقي الغزاوي، وماذا حلّ به. هممت بالهروب من تلك الجزيرة مع أبو كرم الكردي، وفي الطريق كنت أبحث ما استطعت عن صديقي، لم أجده، شعرت بمرارة الفقدان والخسارة، بينما أعبر مع آخرين في الطريق التي دلنا عليها تجار البشر في مخيم الجزيرة بعد أن قبضوا ما تيسر من المال.

وصلنا إلى قرية بعيدة وبسيطة، تعامل أهلها الطيبون معنا بلطف، لا تشبه تلك القرية ما قاله أصدقائي عن المدن الأوروبية، فبدت خضراء يمر فيها نهر يفصل بين بلاد الإغريق والعجم انتهى، وعادت تلك القرية كسواها رمادية، فقد أخبرنا أحد أهالي القرية عن لاجئين ماتوا على الطريق وجلبوهم إلى ثلاجة الموتى في هذه القرية، نظرنا في تلك الوجوه الميتة، كان أصحابها يبحثون عن أمل، عن حياة ربما تكون أفضل، لم يكونوا يبحثون عن موت في طرق ليس فيها أحد، وفي أماكن ليس لهم فيها أحد. كان صديقي الغزاوي بينهم، عرفته من سواد عينيه وإسوارة كانت تلف معصمه منذ رأيناه آخر مرة في مخيم «موريا» على جزيرة «ليزفوس» اليونانية، ورقم 2016-48-67، بدل اسم أو هوية.

كيف أتذكر تلك اللحظات، كيف أتذكر أسئلته، أنا الآن بلا إجابات، أتذكر غضبه واضطرابه في الثلاجة هادئاً وحزيناً، بحجم خوفه الذي كان قبل أيام من هذا الموت المجاني، لقد كان يعي ما يقوله حين صرخ مرة «إنه يعرف الموت تماماً».

لقد مات صاحبي القادم من بيت حانون في فلسطين، أخبرونا أهالي القرية الأوروبية أنهم انتشلوه من النهر، لقد غرق فيه مع آخرين، عرفت بعضهم، سوريين وأفغاناً وأفارقة، لم يمت صاحبي وحده، مات معهم، هو كان في طريقه إلى من تبقى من عائلته في قرية كئيبة في بلجيكا، والبقية كل واحد منهم كان ربما يريد أن يصل إلى حياة جديدة أو أهل أو أصدقاء.

لم يكن موتهم، الفاجعة الأولى، لقد سمعنا في نشرات الأخبار، قبل أن نأخذ طريق الهجرة، عن مهاجرين قضوا في رحلتهم ولم يصلوا، وسمعنا هذه المرة من أهالي القرية، كيف يعيشون في «كارثة» متجددة منذ عشر سنوات، مع هذا الموت المتكرر، الذي يأتيهم من بلاد الحرب، فعلى ضفاف «النهر القاتل» كانت ذكرياتهم، وهم يخشون عليها من ذكريات جديدة، ليس فيها سوى الموت، قريتهم لم تعد سعيدة ولا مستقرة، هكذا قالوا لنا.

اعتذرنا، ولم نعتذر، عدنا ولم نعد أنا أصلاً لا أعرف قريتي في فلسطين، ولا أملك بيتاً من قصب وحجر، والآن خسرت خيمتي ومخيمي وصديقي الغزاوي، وها أنا بلا عنوان. لكني أعرف شيئاً واحداً: ليس في وسعي أن أحيا بلا شمس، الرطوبة تعني قتلي، وإن كان لا بد من موت، فسأختار موتاً بينما أبحث عن الشمس، وعن بيتي وقريتي التي هناك، في أحلامي، على ضفاف البحيرة، وعلى حدود الجنوب.

الأخبار
al-akhbar
السبت 28 كانون الثاني 2023 العدد 4836

غياب

يولاند نوفل سافرت إلى عالم الأحلام

ريما النخل

رحلت عالمة النفس والتشكيليّة يولاند نوفل (1949 ـ 2023) عن عمر 74 عاماً. شخصية أكاديمية وعلمية وفنية، تركت بصمات في قسم علم النفس في كلية التربية، وفي مجالَي الطب النفسي العيادي والفن التشكيلي، وكرست حياتها لخدمة بلدها على مستوى التربية. كانت من خيرة الباحثات في علوم التربية وبرامجها ومن أبرز مؤسسي «الجمعية اللبنانية للتربية الفنية».

غالباً ما تكون الأعمال ذات المذهب «الساذج» (naïf) مفصّلة جداً، وثمّة اتجاه نحو استخدام الألوان الزاهية والمشبعة لديها بدلاً من الخلطات والنغمات الأكثر دقة، فضلاً عن غياب ملفت للمنظور، ما يخلق الوهم بأنّ الأشكال مثبتة في الفضاء، ويؤدي إلى أنّ الأشكال في اللوحات (الساذجة) غالباً ما تكون «عائمة».

تعاملت نوفل مع الرسم من زاوية العودة إلى الينابيع والشفافية وخروجها إلى الفانتازيا نحو الأحلام الطائرة. أسلوبها في الرسم مميّز يعتمد الخرافة والسفر عبر الأحلام. أعمالها صفحات من حياة هانئة، حيث تتداخل الأفكار مع الرموز والإشارات التي تقول الكثير، في أمكنة متعدّدة وفي مناسبات مختلفة. لم تعبّر أبداً عن الحزن والقلق والوحدة، بل اكتفت بالسرد التشكيلي للهيئات البشرية أو الحيوانية أو النباتية، وأدخلتها إلى عالم الطفولة حيث لا بؤس ولا فقر ولا تعقيدات نفسية ولا تجارب عاطفية حادّة.

أكثر الأمثلة تكراراً للفن الساذج هي في أعمال الفنان الفرنسي هنري روسو، الذي تحظى لوحاته ومشاهد الغابة والنباتات الغريبة بإعجاب على نطاق واسع. تنقل لوحات روسو، مثل العديد من اللوحات الأخرى من هذا النوع، إحساساً بالحركة المجمدة والمساحة العميقة والهادئة، وتظهر الأشكال دائماً إمّا بوجه كامل أو بشكل صارم إلى حد ما (نادراً ما يخفي الرسام الساذج جزءاً كبيراً من الوجه وتقريباً لا يصوّر أبداً شخصية كاملة من الخلف). مثل العديد من الرسامين والنحاتين الساذجين، يبرز روسو شدّته وشغفه من خلال شخصياته ـ وبخاصة العينين المحدقتين ـ ودقة الخط واللون.

حنين الألوان ملأ لوحات الفنانة الراحلة مبتعدة بذلك عن الحزن العميق ببهجة الحركة واللون، للتعرّف ببساطة إلى طفولتنا الماضية حاضراً، والشعور بالحياة وبهجتها، وما تجسّده قوّة الألوان من أحاسيس تفيض بالذكريات.

فاللون في لوحاتها كالحنين إلى الماضي بإيماءات لونيّة تمثّل وجودنا وعالمنا الحسي والمادي، مع استثنائية إيقاعات الألوان القوية من حيث النغمة، وما تخفيه حركة اللون من انطباعات طفولية ذات نضارة حياتية تغمرها العاطفة والحدائق الغناء، وبشاعرية تغوص في ذكريات الماضي والحاضر ووهم الغياب أو وهم الواقع الذي تصوره في لوحاتها بسذاجة لتنفيه، وتترك لبراءة الطفولة مشاكساتها اللونية التي تنضح بجمالية فنية ذات تقنية تحمل في طياتها معالم الماضي الطفولي، والحاضر والمستقبل.

يولاند نوفل من مواليد بيروت عام 1949، نالت دكتوراه في علم النفس بامتياز من «جامعة الروح القدس» في الكسليك، وإجازة في علم النفس العيادي من «جامعة ليون الثانية» في فرنسا، ودبلوماً في علم النفس الفيزيولوجي من «جامعة كلود برنار» في ليون، ودبلوم دراسات عليا في الرسم والتصوير من «الجامعة اللبنانية». كانت باحثة في «مركز البحث والتطوير التربوي» وأستاذة في «جامعة الروح القدس» وفي كلية التربية في «الجامعة اللبنانية»، ومستشارة أطروحة الماجستير في كلية العلوم التربوية في «جامعة القديس يوسف». كما أنّها معالجة بالفن في مستشفى الطب النفسي «لاكروا» في لبنان. أقامت العديد من المعارض المنفردة بين بيروت وباريس، كما شاركت في معارض جماعية في لبنان والسويد وفرنسا.

وقد نعت «جمعية الفنانين للرسم والنحت» الراحلة، ذات السيرة الفنّية الحافلة بالعطاء والإبداع.

المفكرة

من كورتني إلى ديار العرب... رسائل حب

■ يدعو «دار المصوّر» في الثاني من شباط (فبراير) المقبل إلى افتتاح المعرض الفوتوغرافي «رسائل حب إلى الشرق الأوسط» للمصوّرة كورتني بونو. يتضمن الحديث صوراً التقطتها الفنانة المقيمة في هولندا في لبنان والعراق وإيران وفلسطين، وهي عبارة عن تجسيد لـ «الإنسانية والجمال في أماكن شبه منسية ومهملة ومفقودة»، وفق التعريف الخاص بالحدث. بونو تعمل بشكل أساسي في الشرق الأوسط، وهي حاصلة على جوائز من «واشنطن بوست»، ولديها حالياً معرض دائم في موقع التراث العالمي لليونسكو في الموصل. وإلى جانب التصوير، تنشط كورتني أيضاً على الصعيد الإنساني. يستمرّ المعرض لغاية 14 شباط، إذ يفتح أبوابه يومياً من الساعة الحادية عشرة صباحاً لغاية السابعة مساءً، ما عدا يومَيْ السبت والأحد.

افتتاح معرض «رسائل حب إلى الشرق الأوسط»: الخميس 2 شباط 2023 . الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر . «دار المصوّر» (الوردية . بيروت). للاستعلام: 01/373347

«نابو» في انتظاركم

■ مدّد «متحف نابو» (شكّا ـ شمال لبنان) مهلة المشاركة في مسابقته الدولية للنحت التي تحمل اسم «ضحايا قوارب الموت» لغاية 20 شباط (فبراير) المقبل، إفساحاً في المجال أمام «أكبر عدد من المشاركين». ويشكّل موضوع المسابقة «مأساة» يعاني منها لبنان منذ سنوات. وبعد تقييم الأعمال من قبل لجنة من الفنانين والمتخصّصين، سيحصل العمل الفائز على جائزة مالية ويُعرض ضمن مجموعة «نابو». (لمزيد من المعلومات: الرابط متوافر على موقعنا)

مقامات وضروب

■ تتميّز الموسيقى المقامية الأصيلة بطابعها الارتجالي، ففي كلّ لحن يمكن الارتجال والتطريب والزخرفة. تحت عنوان «مقامات وضروب: جلسة سمع»، يحتضن «برزخ»، في الأوّل من شباط (فبراير) المقبل حفلة تضمّ وصلات مختارة من موشحات وقصائد وأغانٍ وأدوار، من ألحان سيّد درويش وزكريا أحمد ومحمد عبد الوهاب، بالإضافة إلى بعض قوالب الموسيقى التركية التقليدية. يشارك في الأمسية المرتقبة، كلّ من: فراس عنداري (عود وغناء/ الصورة) وهاشم عبد القادر (غناء) وناجي العريضي (إيقاع).

أمسية «مقامات وضروب/ جلسة سمع»: الأربعاء 1 شباط 2023 . الساعة العاشرة والنصف مساءً . «برزخ» (الحمرا . بيروت). للاستعلام: 78/909472

ألين لحود... Fusion في الأشرفية

■ تحت عنوان Fusion، تضرب المغنية والممثلة اللبنانية الشابة ألين لحود (الصورة) موعداً جديداً مع الجمهور البيروتي، اليوم السبت، في NOW Beirut (الأشرفية) حيث تحيي حفلة تأخذ عبرها الحاضرين بعيداً عن الأوضاع المتأزّمة التي ترزح تحتها البلاد. هكذا، تقدّم الفنانة التي سبق أن شاركت في الموسم الثالث من برنامج The Voice بنسخته الفرنسية ريبيرتواراً منوّعاً، تمزج فيه بين أعمالها الخاصة وأخرى راسخة في الأذهان، تتنوّع بين الشرقي والروك والبوب وغيرها من الأنماط.

حفلة ألين لحود: اليوم السبت . الساعة التاسعة مساءً . NOW Beirut (شارع سليم بسترس . الأشرفية . بيروت). للاستعلام: 01/211122

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ رئيس التحرير
ابراهيم الأمين
■ مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

■ المدير الفني
صلاح الموسى

■ المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص.ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

■ الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
■ التوزيع
شركة الأوائل
03 / 828381 ـ 01 /666314 ـ 15
■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar

كلمات

ملحق
أسبوعي

www.al-akhbar.com

السبت 28 كانون الثاني
العدد 4836 السنة السابعة عشرة
Samedi 28 Janvier 2023 nº 4836 17ème année

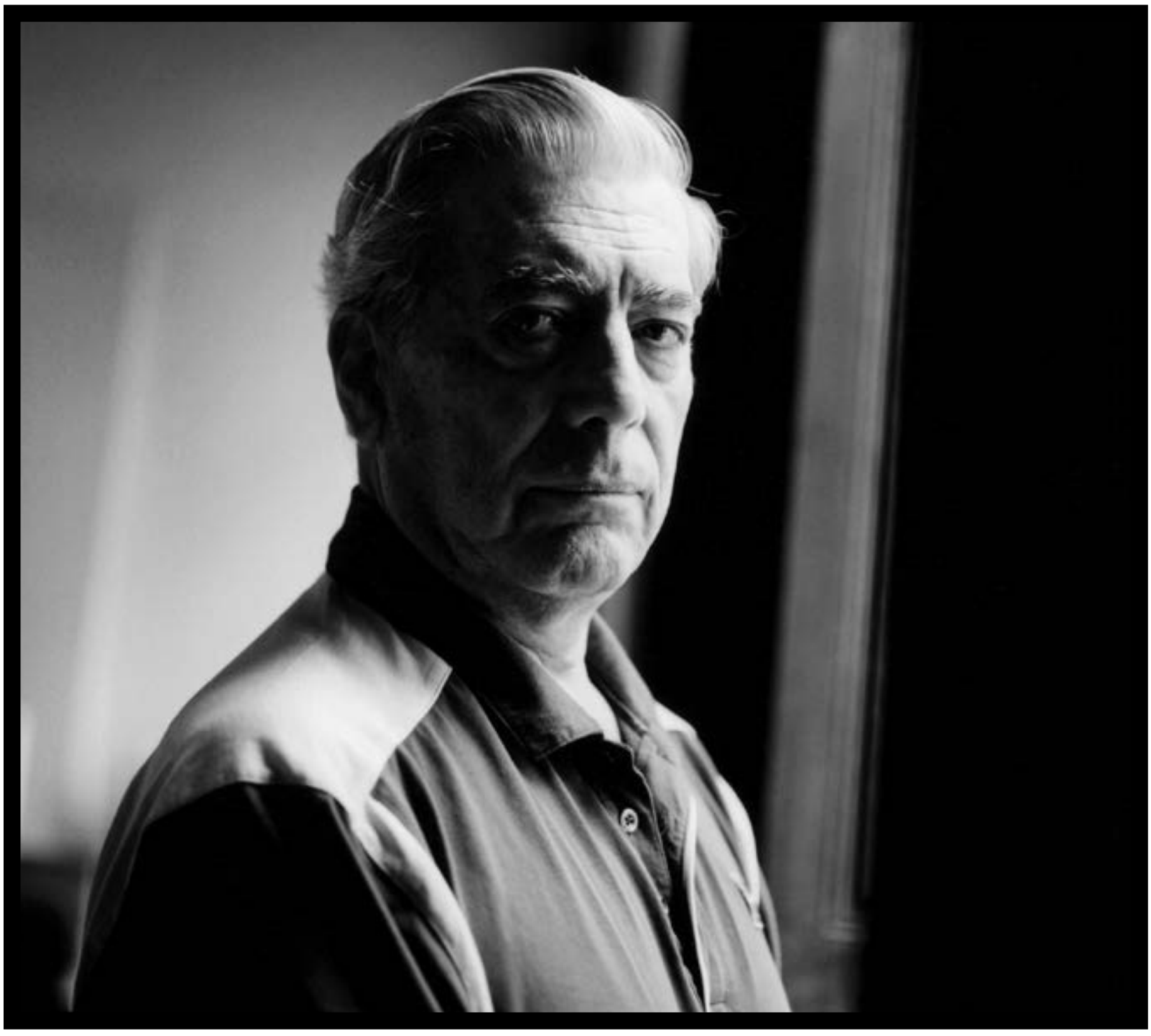

(جيرار روندو)

يوسا في خريفه
اكتمال قوس الردّة

سعيد محمد

انطلق خورخي ماريو بيدرو فارغاس يوسا (1936)، من فضاء اليسار، متحمساً للثورة الكوبية وما أطلقته من آمال بتحرّر بقيّة شعوب الجنوب من سطوة هيمنة الإمبراطوريّة الأميركيّة، فاعتبرها «نقطة تحوّل أيديولوجية في التاريخ» و«وعداً باشتراكية لا-طائفية تسمح بالانتقاد، والاختلاف، وحتى الانشقاق»، ورأى في إنجاز الزعيم الكوبيّ فيدل كاسترو «مغامرة بطولية، وسخيّة». الكاتب البيروفي الشهير وأحد أهم الروائيين الأحياء إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، ذاعت سمعته مع نشر «زمن البطل» (1963)، رواية مثيرة للجدل انتقد فيها سياسة الطغمة العسكريّة الحاكمة في بلاده، فمُنعت، وأحرق الجنود ألف نسخة منها وصلت إلى العاصمة ليما. واصل يوسا بعدها تسجيل هواجس المجتمع البيروفي بنفس يساريّ رغم أجوائه البرجوازيّة، فكتب «البيت الأخضر» (1968)، و«حديث في الكاتدرائيّة» (1975) التي كرّسته روائيّاً عالميّاً، ونجماً في سماء الحداثة الأدبيّة خلال السبعينيّات من القرن الماضي، رغم أنّ قوّته الأساسيّة – وفق النقّاد – تظلّ في مساحات النّقد الأدبي والمقال الصحافيّ.

كان يوسا وقتها مقيماً في أوروبا، بداية في مدريد حيث حصل عام 1958 على منحة دراسيّة، قبل أن ينتقل تالياً إلى باريس التي نشر منها مجموعته القصصية الأولى (1959) متأثراً بفيلسوف الوجوديّة جان بول سارتر. وبقي في عاصمة الأنوار حتى عام 1980 حين عاد إلى بلاده قبل انتقالها إلى الحكم المدنيّ بقليل، محمَّلاً بطموحات لتولّي دور سياسيّ مستفيداً من أنّه أصبح أشهر مواطن بيروفيّ عند الإعلام الغربي.

ارتكاس يوسا نحو اليمين كما يليق ببرجوازيّ متغربِن اكتمل عندئذ، فأصبح يطلق التصريح تلو التصريح في الدفاع عن «الديموقراطية الليبرالية» و«سيادة القانون» و«الصحافة الحرة»، سعياً إلى الحصول على رضى النّخب البرجوازيّة البيروفيّة وراعيها الأميركيّ. ترشّح بالفعل إلى الانتخابات الرئاسية عام 1990 كمرشّح عن ائتلاف «الجبهة الديموقراطية» اليمينيّ مبشراً بإصلاحات ليبراليّة المزاج، لكنّ البيروفيين خيبوا آماله، فخسر أمام ألبرتو فوجيموري.

تَحَوّل يوسا السياسيّ من اليسار إلى اليمين، تزامن مع تحوّل آخر تمثل في الانتقال من أسلوبٍ مرتبط بالحداثة الأدبية التقدميّة إلى منهج ما بعد الحداثة العابث، ما فَتح له بوابة الجوائز الغربيّة، فحصل على «جائزة سرفانتس» الإسبانيّة عام 1994، و«جيروساليم» العبريّة عام 1995، و«نوبل للآداب» عام 2010. لكنّ موهبته الساطعة في ترسيم هياكل القوّة ومقاومة الأفراد لها بقيت دائماً فوق التصنيفات وأهمّ من الجوائز.

يوسا في خريفه، وبينما يعدّ الخطى نحو عقده العاشر، قرّر أن يقدّم مرافعة في تفسير انتقاله من النقيض إلى النقيض عبر مجموعة مقالات عن المفكرين والكتّاب الليبراليين الذين يقول إنّهم ساعدوه خلال السنوات الخمسين الأخيرة في «إصلاح» عقله من «أوهام» الاشتراكية الأولى، جمعها في كتاب «نداء القبيلة» (النسخة الإنكليزية صدرت بداية عام 2023). قبيلته الأيديولوجيّة المختارة هذي شملت آدم سميث مؤلف «ثروة الأمم» وصاحب فكرة أنّ محرّك التقدّم ليس الصراع الطبقي كما يذهب ماركس بل «الطبيعة البشرية» المدفوعة بالعلاقة الجدليّة بين الرغبة في تحقيق المصالح الذاتية وملكات التفكير والأخلاق المرتبطة بالعقل، كما فريدريش هايك فريدريش فون هايك كبير منظري السوق الحرة، الذي زعمت مارغريت تاتشر أنه أكبر ملهميها ولوّحت بكتابه «جذور العبودية» يوماً قائلة: «هذا ما نؤمن به»، إلى جانب كارل بوبر، اللاجئ اليهوديّ من ألمانيا النازيّة ومؤلف كتاب «المجتمع المفتوح وأعداؤه» الذي يعدّ بمثابة هجوم شامل ضد الماركسيّة وصاحب نظريّة حماية الديموقراطيّة عبر فرض قيود على الإعلام، وأشيعا برلين، المفكّر الصهيونيّ البريطاني من أصل روسيّ والليبرالي نصير «إسرائيل»، وخوسيه أورتيغا إي غاسيت، المفكر الليبرالي الإسبانيّ المعارض لكل القوميّات الشوفينيّة والدوغمائيّات الأيديولوجية، كما الفرنسيَّين ريمون آرون وجان فرانسوا ريفيل اللذين اشتهرا بنقدهما اللاذع لنجوم الفلسفة الفرنسيّة اليساريين خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

يقول يوسا إنّ قبيلته تلك ساعدته في التعامل مع الصدمات الأيديولوجيّة، ومكّنته بعد أربعين عاماً في التيه في صحراء اليسار من تطوير فلسفة جديدة ورؤية مغايرة عن العالم «تضع الفرد قبل القبيلة، أو الأمة، أو الطبقة، أو الحزب، وتدافع عن حرية التعبير كقيمة أساسية لممارسة الديموقراطية». لكنّه بالطبع لن يقول لنا إنّها كانت بشكل أساسي مدخلاً لاعتراف الغرب المجزي به. «نداء القبيلة» إعلان نهائيّ من يوسا باكتمال قوس الرّدة.

كلمات

حوار

حسّونة المصباحي: الجوائز الخليـجيّة أفسدت الثقافة العربيّة

بعد رحلة تيه طويلة امتدت نحو ربع قرن، قرّر الروائي التونسي حسّونة المصباحي العودة إلى بلاده عام 2004. وبعد خمسة عشر عاماً أمضاها بين مدينتَي بنزرت شمال البلاد والحمامات، اختار العودة إلى القرية التي ولد فيها في أرياف مدينة القيروان. هناك أقام بيتاً في المكان الذي ولد فيه، مستحضراً صورة والدته زهرة المحفوظية التي خلّدها في بعض قصصه، نسّاج الحكايات الذي كتب الحياة اليومية للفلّاحين في سهوب القيروان. كان منذ بداياته كاتباً منشقّاً «خان أجداده في كل شيء إلا في حبهم للتيه والترحال». منذ مجموعته القصصية الأولى «حكاية جنون ابنة عمي هنية»، بدأ المصباحي مختلفاً عن أبناء جيله وعن مدوّنة السرد التونسي بل العربي. في «حكاية جنون ابنة عمّي هنية»، و«السلحفاة»، و«ليلة الغرباء»، و«الأميرة الزرقاء»، و«هلوسات ترشيش»، و«الآخرون»، و«أشواك وياسمين»، و«يوميات ميونيخ»، و«كتاب التيه» وغيرها من العناوين في القصّة القصيرة والرواية والترجمة تحضر، سيرته الذاتية وسيرة أبناء جيله الذين اصطدموا بالسلطة، ودخلوا بالعشرات، دخلوا السجون وعاشوا مرارة التجربة وعذاباتها.

حسونة المصباحي الذي كان منذ البداية، يفكّر بصوت عالٍ تنقّل بين كبرى الصحف والمجلات العربية على مدى أربعين عاماً، لكن الصحافة لم تستنزف افتتانه بالكتابة التي اخلص لها كما لم يخلص لشيء آخر. في هذا الحوار يتحدّث عن رحلة «تيهه» وأسرار العودة إلى «الزياتين» التي أوصى بأن يدفن تحت زيتونها، وعن المشهد الروائي في تونس والعالم العربي.

تقديم وحوار **نور الدين بالطيب**

■ عشت حوالي ربع قرن مُتنقّلاً بين مدن أوروبا وقضيت معظمها في ميونيخ، وتحديداً في بافاريا، كيف عشت هذا الانتقال من أوروبا إلى قريتك في سهوب القيروان؟

ـ منذ بداية مسيرتي الأدبية وأنا دون سنّ العشرين، كنت مُدركاً أنّ الأفق التونسي لن يكون كافياً لكي أكون كاتباً بالمعنى الحقيقي للكلمة. لذا ابتعدت عن المؤسسات الرسمية التابعة لوزارة الثقافة لأجد نفسي مع فئة من «المنشقين» كان بالقاسم التليلي الملقب بـ«فيلسوف التعاسة»، وخالد النجار من أبرزهم، ومن أوسعهم تجربةً وثقافة. الاثنان سافرا إلى المشرق العربي ليعودا منه بمعرفة عن التيارات الفكرية والأدبية التي كانت فاعلة في الثقافة العربية مشرقاً ومغرباً... هكذا تمكنت بفضلهما من تعميق ثقافتي من خلال القراءات، متأثراً بتجارب المجددين من قصاصين وروائيين وشعراء من أمثال أدونيس، وبدر شاكر السياب، وجبرا إبراهيم جبران وغسان كنفاني، ويوسف إدريس، والطيب صالح... كنت في سن العشرين حين قررت السفر إلى المشرق العربي عام 1973. وبعد طواف في سوريا، ولبنان، والعراق، عدت إلى بلادي بعدما تيقّنت أن الأفق الذي كنت أبحث عنه، كان شبه مفقود، أو مُهدّداً بالفقدان بسبب طغيان الإيديولوجيات القومية والشيوعية وغيرهما على كل أشكال الفكر والثقافة، والتي كانت بصدد إعداد نيران الحرب الأهلية اللبنانية. كان عليّ أن أنتظر بداية الثمانينيات لكي أستعيد جوازَ سفري المحجوز لأسباب سياسية كي أنطلق إلى باريس، ثم إلى مدريد التي كانت تتعافى آنذاك من الفترة الفرانكية القاتمة. تلك السفرة التي استمرت شهراً ونصف شهر، أقنعتني بأن الأفق الذي كنت أبحثُ عنه موجود في أوروبا. لذا لم ألبث أن تركت بلادي من جديد لأكون في مدريد، وأستوكهولم، وباريس، ولندن، وروما، وميلانو، وجنيف، وفي مدن كثيرة أخرى لأشعر بعد كل زيارة إلى هذه المدينة أو تلك، بأني أتجدد، وأن الآفاق المعرفية والفنية التي أطمح إليها، تتّسعُ أمامي فكما لو أنني أولد من جديد. وأظنّ أن إقامتي الطويلة في العاصمة البافارية هي التي عمّقت تجربتي لا في الكتابة والمجال الفكري فحسب، بل في الحياة أيضاً. ومنها أدركتُ أنّ الوحدة هي مصير كلّ من يطمح ليكون كاتباً حقيقياً. وفي الوحدة لم أكن أقرأ وأكتب فقط، بل كنت أتعمّق في ذاتي سابراً أغوارها، وكاشفاً نواقصها وعيوبها. وهذا ما كان بإمكاني أن أفعله لو كنت في تونس لأن الوسط الثقافي يعيش على وتيرة النميمة والأحقاد والصداقات المزيّفة والعلاقات المشبوهة. لذلك كنت أتعجّب كلما زرت تونس، كيف يمكن للشعراء والكتاب أن يجدوا وقتاً للكتابة والقراءة والحال أنهم يعيشون في الشارع أغلب الوقت ولا يعودون إلى بيوتهم إلا في ظلام الليل. وفي ميونيخ، أنجزتُ أعمالاً قصصية وروائية أشعرتني بأنّي أصبحت الكاتب الذي أطمح أن أكون. بعض رواياتي مثل «هلوسات ترشيش» و«وداعاً روزالي»، تُرجمت إلى لغة لتنال الأولى جائزة «توكان» التي تُمنح لأفضل عمل أدبي من قبل مدينة ميونيخ (2001). وصدرت في مُجلدين مختارات من قصصي مترجمة أيضاً إلى اللغة الألمانية، وقد استقبلها النقاد بكثير من الإعجاب. كما أنّي كتبت «يوميات ميونيخ» التي سجّلت فيها خواطري وأفكاري خلال السنوات الأخيرة التي سبقت عودتي النهائية إلى تونس. وفي «كتاب التيه»، جمعتُ النصوص التي كتبتها من وحي رحلاتي إلى مدن عربية وأوروبية مثل طنجة، واستوكهولم، وإسطنبول، والمدن الأندلسية (غرناطة، إشبيلية، قادش، وقرطبة). وأظن أن إقامتي في ميونيخ هي التي جعلتني أقتنع أكثر من أيّ وقت مضى، بأنه يتوجّب على الكاتب الحقيقي أن يكون مُلمّاً بجميع الفنون، وعارفاً بالموسيقى والمسرح والسينما والفنون التشكيلية. تعكس العديد من قصصي ورواياتي تأثيرات هذه الفنون، خصوصاً السينما. وأعتقد أن عودتي إلى تونس كانت قراراً حكيماً من جانبي. في مطلع الألفية، وتحديداً بعد عملية الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية (2001) شعرت بأنّ الغرب سيشهد تغيّرات كثيرة، وسيجد العرب أنفسهم في مواجهة موجات جديدة من العنصرية، والعنف والتّبخيس. كما أنّي شعرت بأنّ مرحلة ميونيخ بلغت أقصى حدودها بحيث باتت شبيهة بأفق شبه مسدود. لذا كان يتوجب عليّ أن أبدأ مرحلة جديدة في حياتي ومسيرتي الإبداعية. ولعلّي عبّرت عن ذلك أفضل تعبير في الفصل الأخير من سيرتي الذاتية التي حملت عنوان «بحثاً عن السعادة». ولا أبالغ حين أقول بأنّ عودتي إلى قريتي بعدما بنيْتُ بيتاً جميلاً وسط حقل من الزيتون واللوز، كانت مُثمرة للغاية، إذ إنّها أتاحت لي السكينة الروحية، ووفّرت لي آفاقاً جديدة في الكتابة والحياة، وأنقذتني من ذلك التعفّن النفسي المريع الذي يستبدّ بالمغترب، خصوصاً عندما يشيخ ويتعب، وقد عبّر عنه الكاتب الألماني الكبير زيبالد في روايته البديعة «المهجّرون». عدت إلى قريتي لأحتفي بعيد ميلادي السبعين. وفي هذه السن، يُستحسن أن يكون التفكير في الموت مُتساوياً مع التفكير في الحياة، بل الأفضل أن يكون مُتجاوزاً له. لذا اخترت المكان الذي سأُدفن فيه، وهو بين شجرتي زيتون. وسيكون رأسي إلى الغرب، وساقي إلى الشرق. كما أعددت الشاهدة التي ستكون على قبري، وعليها هذان البيتان لأبي العلاء المعري:

«علّلاني فإنّ بيضَ الأماني فنيتْ
والظلام ليس يفان
إن تناسيتما وَدَادَ أناس
فاجْعلاني منْ بعض من تَذْكران»

وسيكون في بيتي مكتبة تحتوي على آلاف الكتب في جميع مجالات المعرفة، هي كل ما جنيتُ من رحلاتي عبر العالم، أنا الذي خُنتُ أجدادي في كل شيء إلا في الترحال والتيه...

■ في قصصك ورواياتك، تحضر دوماً سيرتك بأشكال مُختلفة، إلى أي حدّ يمكن للروائي أن يتخلّص من سيرته في الكتابة؟

ـ هذا السؤال يتكرر دائماً هنا في العالم العربي. أمّا في الغرب الذي ابتكر فنّ الرواية مُشيراً إلى مُؤسّسيْها الكبيرين، الإسباني سارفانتس والفرنسي رابليه، فلم يعد هذا السؤال مطروحاً. ولعل فلوبير هو أفضل من أجاب عليه قائلاً: «مدام بوفاري هي أنا». أظن أنّ الروائي حاضر دوماً في عمله الأدبي بأشكال مختلفة ومُتعددة. فهو الراوي، وهو الكاشف عن مصير شخصياته، وعن أوضاعها النفسية والاجتماعية. وهو الشبح الغامض الذي يتسلّل إلى صفحات الرواية بين وقت وآخر. وهو المراقب لأحداث عصره. وهو المطلّ علينا بين الحين والآخر من بين صفحات روايته تماماً مثلما يفعل هيتشكوك في أفلامه. حين نقرأ ملحمتَي «الإلياذة» و«الأوديسة»، يتبين لنا أن شبح هوميروس ليس غائباً عنهما. واضح أن هاتين الملحمتين كانتا ثمرة تيهه الطويل بين جزر اليونان، مُستمعاً إلى قصص المغامرين في البحار وعلى اليابسة، وإلى المحاربين الذين يَغْفون ماسكين بسيوفهم استعداداً للمعركة القادمة. لم يكتب روائي عظيم مثل فوكنر سيرته الذاتية لكنه حاضر بقوة في جميع روائعه الروائية. وفي المقدمة البديعة التي خصّصها لترجمته لروايته الشهيرة «الصخب والعنف»، أشار الراحل الكبير جبرا إبراهيم جبرا، إلى أنّ فوكنر ترك الجامعة ليعيش سنوات، مُتسكّعاً في الشوارع، مُتنقّلاً بين الحانات الشعبية ليستمع إلى حكايات الزنوج الذين كانوا يقاسون أفظع أنواع الاستغلال والمهانة. غير أن ذلك لم يكن يمنعهم من الرقص والغناء، ومن التهكّم على أنفسهم وعلى مصيرهم الشقي. وحكايات الزنوج، والمهمّشين، والسكّيرين، والمشردين هي التي كانت المادة الأساسية للعديد من روايات وقصص فوكنر، ومنها ابتكر أسطورة الجنوب الأميركي. ولا نتردّدُ في القول بأنّ شخصية القنصل البريطاني الذي يمضي يوماً كاملاً في السكر والهذيان في قرية مكسيكية بائسة ليموت في النهاية ميتة بشعة شبيهة بـ«موت كلب»، هو مالكوم لاوري نفسه صاحب رائعة «تحت البركان» الذي قتله الشراب هو أيضاً. وهناك روائيون تحضر جوانب من سيرهم في قصصهم ورواياتهم مثلما فعل همنغواي على سبيل المثال لا الحصر. وفي أكثر من مرة، أشار ماركيز إلى أنه يُدين لجدّيه بالكثير من الحكايات التي كانا يرويانها له وهو طفل دون سنّ العاشرة، لتُشكّلَ تلك الحكايات في ما بعد المادة الأساسية للعديد من قصصه ورواياته. وفي «صورة الفنان في شبابه»، و«أوليس»، يطلّ علينا جيمس جويس من خلال شخصية ستيفان ديدالوس، الفنّان الشاب المتمرد على ثقافة بائدة، وعلى مجتمع جمّدته التقاليد والخرافات الدينية. ولا يمكن أن يكون نجيب محفوظ الذي كتب سيرته الذاتية مُتأخّراً من خلال فصول مُكثفة وبديعة عن «ثلاثيته»، وعن العديد من رواياته الأخرى. وهل يمكن أن تكون شخصية مصطفى سعيد غريبة تماماً عن شخصية الطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال»؟ ولا يُخفي أن سيرة هنري ميللر الذاتية هي المصدر الأساسي لكل أعماله الروائية. وأنا أعترف بأنّي حاضر منذ أولى مجموعاتي القصصية «حكاية جنون ابنة عمي هنية»، في جلّ ما كتبت من قصص وروايات. وصحيح أنّي أكون مُتخفياً أحياناً خلف هذه الشخصية أو تلك، لكني أكون حاضراً بقوة في قصة مثل «السلحفاة» التي أروي فيها فصلاً من طفولتي المعذبة في الأحراج الوعرة الفاصلة بين منطقة القيروان ومنطقة الكاف على الحدود مع الجزائر. وقد تكون لي بعض سمات شخصية عبد الفتاح خليل في «هلوسات ترشيش»، أو ميلود في «وداعاً روزالي»، أو يونس في «يتيم الدهر». ولم لا، فأنا عشت حياة ثرية وَسَمَتْها تجارب مريرة، ومحن مُوجعة وتنقلات عبر العالم، واضطرابات خطيرة. أوليست الرواية كغيرها من الفنون، تستندُ إلى أن صاحبها مُتمرس بحياة يعيشها بالطول والعرض، ومن ماسيها يتعلم كيف يعيش وكيف يموت؟

■ عدد كبير من الأكاديميين التونسيين توجّهوا إلى كتابة الرواية بعدما ارتقوا في مسارهم الأكاديمي، كيف ترى هذه الظاهرة؟

. اسمحْ لي بأن أستعين بهذه المقولة للمفكر الكبير جورج شتاينر الذي كان أيضاً أكاديمياً مرموقاً، حاضراً في أشهر الجامعات في العالم: «لكن لا بد من أن أعترف بأن الجامعة همّشتني دائماً، وكنت مرفوضاً من قبل المُتنفّذين فيها، إذ إنني أظهرت منذ البداية اختلافاً جوهرياً، مُعلناً أن أعظم أستاذ في الجامعة لا يمكن أن يكون مُبدعاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. هو مجرد ساعي بريد مثل ذاك الذي في فيلم ميكائيل رادفورد الجميل عن بابلو نيرودا. هو يحمل رسائل. لكنه لا يكتب. ونسيان هذا الاختلاف، يُعتبر خيانة يرتكبها أساتذة الجامعة. وأنا لا أقبل أن يذهب الغرور بهؤلاء ومعهم النقاد بعيداً إلى حدّ أنهم يسمحون لأنفسهم بالتشبه بالمبدعين». هذه المقولة لن يحبها أشباه الأكاديميين عندنا في تونس لأنهم لا يمتلكون ولو ذرة من معارف جورج شتاينر، بل أنا على يقين أنهم لم يَطّلعوا على مؤلفاته القيمة في مجالات مختلفة. ومقولته تؤكد ما صرّحت به مراراً عديدة بأن الجامعيين التونسيين يملكون شهادات تُخوّلهم الحصول على وظيفة، لكنها لا تخوّلهم أن يكونوا مبدعين حقيقيين. وهم في جلّهم بلا موهبة وبلا دراية بفن الرواية التي تتطلب تجربة عميقة في الحياة، ومعرفة واسعة بآداب العالم. كل الروايات التي أصدرها هؤلاء مواضيع إنشائية مطوّلة وثقيلة تكاد تكون خالية من كل ما يمتّ إلى فن الرواية بصلة. وأبدأ بأشهرهم، أعني بذلك مثلاً شكري المبخوت الذي نال حظوة كبيرة في السنوات الأخيرة، وهو فرض بقوة الدعاية، وبحكم وظيفته كعميد لجامعة منوبة رغم ضعف روايته «الطلياني» ولغتها التقريرية والإنشائية. والعجيب أنّ المبخوت يزعم أن روايته هي عن اليسار التونسي في بداية السبعينيات والثمانينيات. والحال أنه لم ينتسب إلى اليسار أبداً. وعندما كان اليساريون في السجون، أو المنافي، كان هو مجرد طالب لا هدف له سوى الحصول على شهادات جامعية. بعد تخرّجه، أصبح أستاذاً جامعياً، ثم عميداً لجامعة منوبة. وحالما انهار نظام ابن علي، ركب موجة الثورة وأصدر «الطلياني» زاعماً أنها الرواية الأولى عن اليسار التونسي، ومُتجاهلاً جملة وتفصيلاً روايات أخرى سبقتها تفوقها على جميع المستويات، بل لا يمكن أن تُقارن بها أصلاً. والحقيقة أنّ المبخوت لم يكن يسارياً في أيّ يوم من الأيام. ولو كان كذلك، لما سمح له نظام ابن علي الديكتاتوري بأن يكون عميداً لجامعة منوبة. لذلك، جاءت روايته المذكورة مُحمّلة بصورة وهمية عن اليسار بما ما كان يُشاع في المقاهي والنوادي ومُتبَلة بشيء من الجنس والإغراء الرخيص والمُبتَذل. وقبل المبخوت، اعتقد جامعيون خطأً أن تقليدهم لمحمود المسعدي، سيسمح لهم بأن يكونوا روائيين مشهورين. وكان محمود طرشونة من أول هؤلاء. إلا أن الروايات التي أصدرها ظلت في رفوف المكتبات لعزوف القراء عنها. والحقيقة أن الجامعيين ثقلاء في لغتهم، وأسلوبهم، وتفكيرهم، وسطحيون بلا تجربة وبلا دراية بفن الرواية. لذلك أفسدوا الحياة الثقافية والإبداعية في تونس ولا همّ لهم سوى الحصول على الجوائز الرفيعة.

■ جوائز خليجية عديدة تُمنح للكُتّاب كل عام، ما هي الإضافة التي حقّقتها للأدب العربي؟

ـ عندما كانت هذه الجوائز غير متوفرة، كانت الثقافة العربية في جميع جوانبها أفضل حالاً. وكثير ممن صنعوا مجدَ الثقافة العربية خلال القرن العشرين، والأسماء كثيرة، لم يحصلوا على جوائز بمثل هذه القيمة المادية، بل منهم من مات فقيراً، بل مُعدَماً أصلاً. لا أنكر أن لهذه الجوائز مردوداً مادياً ومعنوياً هاماً للغاية. غير أن اللجان المشرفة عليها هي التي أفسدتها بالمؤامرات والدسائس والمجاملات ليستفيد منها أحياناً مَن هم بلا قيمة أدبية أو فكرية، وليلتهمها روائيون مُزيفون، وشعراء انتهازيون يبيعون ويشترون بحسب مصالحهم، وباحثون من الدرجة الثانية، ومُترجمون يجهلون روح اللغات التي يزعمون أنهم يمتلكون ناصيتها... وأكبر دليل على ذلك أن مثل هذه الجوائز الخليجية أفسدت الثقافة العربية هو أن جلّ الروايات التي تحرز مثل هذه الجوائز لا تلقى استحساناً من قبل دور النشر الغربية. بل ترفض نشرها حتى عندما يكون ثمن ترجمتها مدفوعاً مُسبقاً. لهذا أرجو من المؤسسات الثقافية في البلدان الخليجية أن تقوم بمراجعة جذرية لسياستها في هذا المجال الحيوي، وأن تُعيّن لجاناً حقيقية، لا عصابات مافيوزية بلا ضمير وبلا كفاءة معرفية وبلا روح أخلاقية أو إنسانية. من دون هذه المراجعة، ستكون هذه الجوائز بمثابة اللعنة على الثقافة العربية، وتبخيساً للمبدعين الحقيقيين.

■ هناك توجه كبير نحو كتابة الرواية كأنّ الأمر أصبح موضة، أي هل الجوائز هي الدافع لكتابة الرواية؟

ـ الإقبال المحموم على كتابة الرواية في مختلف البلدان العربية بعدما كان مُقْتصراً على مصر وحدها، بدأ في التسعينيات من القرن الماضي. لذلك كتبت في تلك الفترة مقالاً في جريدة «الشرق الأوسط» بعنوان: «الهوَسُ العربي بالرواية»، أشرت فيه إلى أن هذا الهوس قد يكون مُضِرّاً بفن الرواية، وقد يؤدي إلى أن تصبح الرداءة قاعدة لا استثناء لأن النقد الجاد لذلك السيل الهادر من الروايات يكاد يكون غائباً. فإن حضر، فهو مُجامل أو مُتسرع بحيث يمتنع صاحبه في غالب الأحيان عن التعمّق لكشف جوانب الضعف في هذه الرواية أو تلك. وفي غياب النقد الجاد والمسؤول، تنتشر الرداءة بشكل مُريع، ويُسمح لأشباه الروائيين بتصدر المشهد، ونيل الجوائز الرفيعة، وتغييب المبدعين الحقيقيين لفنّ الرواية. وهذا ما حصل ويحصل راهناً. وقد زادت الجوائز الخليجية في تحريض الجميع على كتابة الرواية ليقتحم الميدان أكاديميون جوف، وشعراء من دون موهبة في مجالهم، وكُتاب من الدرجة الثانية يعتقدون أنّ الرواية هي مواضيع إنشائية مطولة حول مواضيع جاهزة مثل الهجرة السرية، والإرهاب الأصولي، والجنس الرخيص، وغير ذلك من المواضيع... والآن نحن نعيش رداءة طاغية تحجب عنّا كل ما هو جميل وأصيل في فن الرواية العربية، وتفرض علينا أن يتصدّر المشهد من لا علاقة لهم أصلاً بهذا الفن الرفيع. والعديد من الروايات التونسية والعربية المشهورة أتوقف عن قراءتها قبل أن أكمل الصفحات العشرين الأولى لثقلها، وللغتها التقريرية، ولأسلوبها الجاف ولطغيان التكلف والتّصنع عليها.

■ كتابك الجديد «الرحلة المغربية» («دار الحكمة» في مدينة تطوان) صدر في المغرب وسبق أن حزت على «جائزة محمد زفزاف»، هل تعتبر نفسك كاتباً بجناحين تونسي ومغربي؟

ـ كرّمني المغرب بـ«جائزة محمد زفزاف» الذي كان صديقاً عزيزاً على القلب. وفي خريف هذا العام، أصدرت عن «دار الحكمة» كتاباً بعنوان «الرحلة المغربية» بعدما قمت برحلة طويلة السنة الماضية قادتني في نهايتها إلى الصحراء المغربية لأعيش هناك أوقاتاً سحرية وأنا مثل حبة رمل ضائعة بين المحيط الأطلسي والصحراء المترامية الأطراف. ولم تكنْ رحلتي رحلة مشاهدات، بل رحلة معرفية يتداخل فيها التاريخ بالأدب والفكر، وفيها تحضر شخصيات كبيرة مثل المستشرق ماسينيون الذي اكتشف سحر الشرق في أول رحلة له إلى المغرب وهو شاب تجاوز العشرين بقليل، ومثل سانت أكزوبيري الذي كتب روايته الأولى «بريد الجنوب» في الصحراء المغربية، والمفكر الكبير عبدالله العروي الذي كتب أفضل كتاب عن تاريخ المغرب العربي. كما يحضر أصدقاء رائعون أمثال محمد شكري، ومحمد خير الدين، وإدريس الخوري، وعبد الكبير الخطيبي، وآخرون. يحتوي كتابي أيضاً على تقييم لليسار المغربي في السبعينيات من القرن الماضي. كما توقفت عند محطات أخرى من تاريخ المغرب في القرن العشرين مثل قضية الصحراء المغربية على سبيل المثال لا الحصر.

■ كنت من أوائل الذين أدانوا ما يُسمى «الربيع العربي» اليوم بعد مرور 12 عاماً على هذا التحوّل، كيف ترى هذه السنوات وحصيلتها؟

. نعم، كنت منذ اليوم الأول ضدّ ما سمّي بـ «الربيع العربي»، وكنت عالماً أنّ الذين سيسيطرون على المشهد السياسي سواء من اليسار أو من الإسلام السياسي، سوف يعملون منذ البداية على تدمير الدولة الوطنية ومؤسساتها لنشر الفوضى والخراب. وهذا ما حصل على مدى السنوات العشر الماضية، إذ دأب كل الذين جاء بهم «الربيع العربي» على تعذيب تونسنا الجميلة، وتخريبها لتصبح مدنها وقراها أكواماً من الفضلات، وليصبح الفاسدون والمرتزقة والمهرّبون والخونة أسياداً يعبثون بالشعب كأنه قرد للفرجة المسلية، ويجبرونه على أن يعيش حياته متسوّلاً الخبز، والدواء والحليب، وغير ذلك. وكل يوم تزداد الأوضاع سوءاً لينطفئ كل بصيص أمل، ولتتحول الحياة اليومية إلى جحيم يدفع الناس إلى الانتحار، أو إلى رمي أنفسهم في البحر للوصول إلى أوروبا، أو يتحولون إلى وحوش ضارية تتقاتل يومياً من أجل البقاء على قيد الحياة. لذلك اعتبرت ولا أزال أنّ «الربيع العربي» كان مؤامرة قذرة دُبّرت في الخفاء لتدمير بلادي، وإعادتها إلى ظلمات التخلف والجهل والخنوع... وقد هاجمني كثيرون، ووصفوني بأوصاف شنيعة لكنّي صمدت، وتحديتهم جميعاً، يساريين وإسلاميين وقوميين، معتبراً إياهم بائعي أوهام وأكاذيب وليس صنّاعاً للتاريخ، ولا بناة للدول، ولا مصلحين لمجتمع.

> يعتقدون أنّ الرواية هي مواضيع إنشائية جاهزة مثل الهجرة السرية، والإرهاب الأصولي، والجنس الرخيص

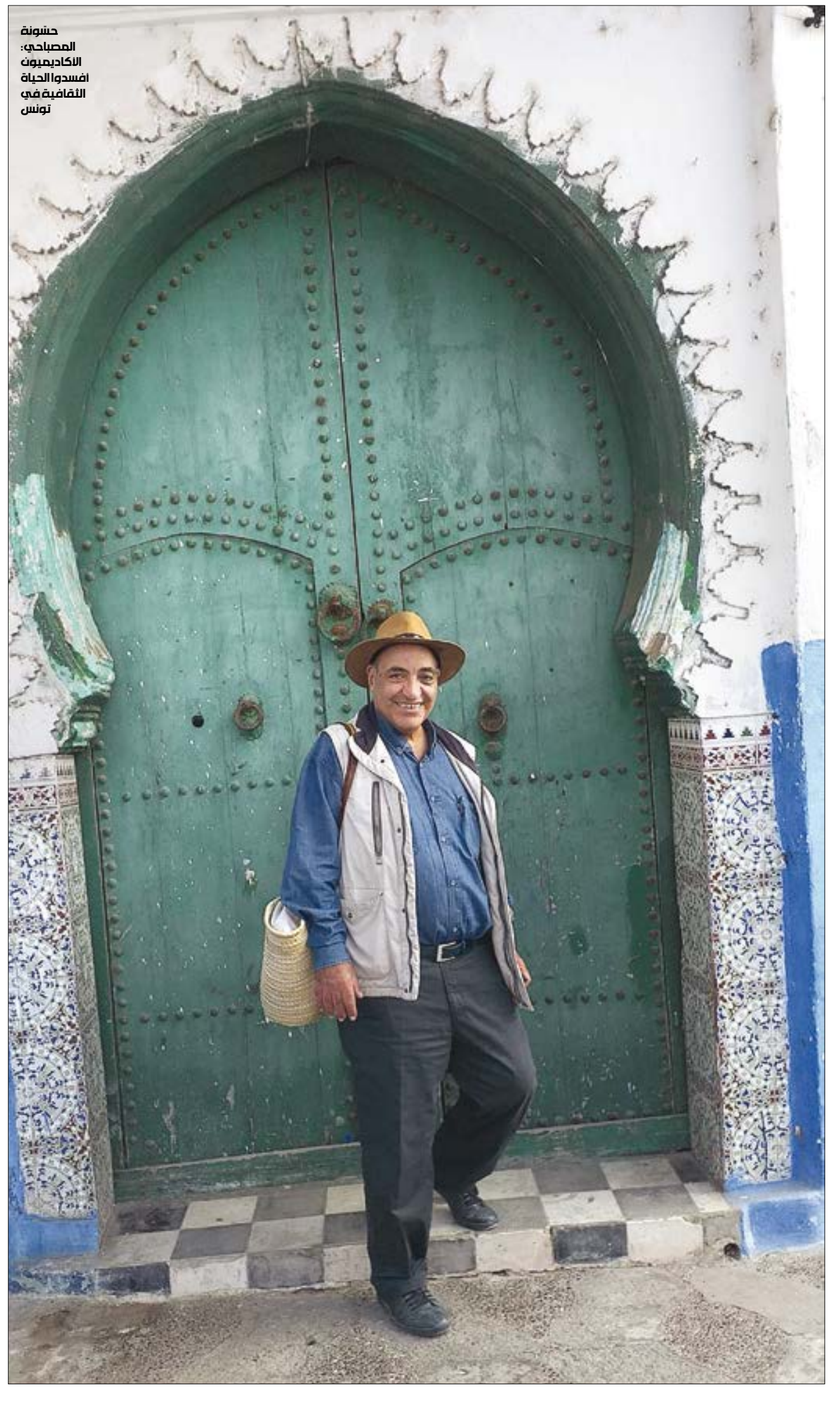

حسّونة المصباحي: الأكاديميون أفسدوا الحياة الثقافية في تونس

قصة

كنتُ

صابر المنتصر *

1

استفقت باكراً. صداع شديد يعشش في رأسي سببه نقص في الكحول. توجّهت إلى المطبخ. فتحت الثلّاجة.
من النّادر ألا تكون هناك علب جعةٍ. عدت إلى الفراش. حاولت أن أنام مجدداً إلّا أنّي فشلتُ. أحسّ بجسدي يئنُّ. لا أقصد أن به ألماً. جسدي مرهقٌ.
توجّهت إلى الحمّام. ملأت الحوض ونزعت كلّ ملابسي واستلقيت في الماء الدّافئ.
عادة ما يريحني هذا الفعلُ إلّا أنّي أحسست بقلق. في كلّ حركة أقوم بها أسمع صوت الماء. يصيبني ذلك الصوت بتوتّر شديد. حاولت أن أبقى ساكناً. خرجت من الحمّام. لففت نفسي بمنشفة حمراء. أعتقد أنّ ذلك اللّون يسبّب لي مشكلة في الرؤية.
عدت إلى غرفة النّوم. أغلقت كلّ منافذ الضوء واستلقيت على السّرير.
الآن أرى قمراً يضيء ركن الغرفة. بين كلّ فترة يمرُّ طائر أمام القمر. أعتقد أنّه خفّاش. بعد قليل أصبح عدد الطّيور كثيراً جداً. ضوء القمر أصبح مشعّاً. بالرّغم من أنّ السماء صافية إلّا أنّي أحسُّ بقطرات مطر تتساقط على جسدي. هربتِ الطيورُ من الأمطار واتّجهت نحوي. عشّشتِ الطّيور على جسدي في حين حاول بعضها أن ينقر عيني. لا أحسُّ بألم إلّا أنّي أحسّ بخوف. بعد أن فقأ عيني، دخل الطّائر الأول إلى جمجمتي وأقام بها عشاً. طائر جديد دخل من عيني الأخرى. عدد كبير من الطّيور دخلت من فمي وعشّشت في بطني. انتفختُ. كلّ الطّيور أصبحت داخل جسدي. لا أستطيع الحركة. حاولت مراراً أن أتقيّأ كلّ الطّيور التي تسكن داخلي إلّا أنّي فشلت. بدأت الطّيور بتناول أعضائي الداخليّة. لا أحسّ بألم إلا أنّي أحسّ بالفراغ. أكلت الطّيور كلّ ما يوجد داخلي.
أصبحت جسداً فارغاً. حاولت الطّيور أن تغادرني بعد أن أصبحت مجرّد هيكل. أغلقتُ بقوّة عينيّ وفمي. كدت أن أنفجر إلّا أنّ الخوف منحني قوّة ما. أحببت أن أسجن الطّيورَ داخلي ربّما عندما تحاول أن تطير سيطير جسدي.
ما إن رنّ هاتفي حتى اختفت الطّيور والقمر وكفّت الأمطار.
أخبرتني نفسي الأنثويّةُ، أنّ قلبي مات.

2

وضعت المِفتاح في القفل. أدرته. فتحت الباب.
ما إن أغلقته، حتّى بكيتُ.
لم أفكّر بشيء. أغيّر مكاني كلّ فترة. أحببت أن أبكي في كلّ غرف المنزل. تفاديت الدّخول إلى غرفة النّوم. بكيت لساعة تقريباً.
توجّهت إلى المطبخ. ملأت إناء ماء. كلُّ فكرة تولد وتموت في جزء من الثّانية. يتبخّر الماء إلا أن الأفكار في عقلي تتراكمُ. وضعت ملعقتين من البُنّ. حرّكت القهوة قليلاً. انتظرت أن تجهز. فاضت القهوة كما تفيض أفكاري. سكبت القهوة المحروقة في كأس. تناولت سيجارة. أشعلتها. مشيتُ نحو الصّالون. جلستُ. أنظر للسيجارة تحترق. تذكّرت أن قهوتي أيضاً محروقةٌ. الأفكار في رأسي تتوالد بنسق مجنون. خفت أن أُجنّ. فكّرت بحرق المنزل.
كلّ شيء يحترق يتحوّل إلى رماد. الرّماد لا حزنَ له.
وقفت. توجّهت نحو المكتبة. رمَيتُ كلّ الكتب نحو كلّ الاتجاهات. تطايرت الكتب والكلمات. كسّرت زجاجة النبيذ الأولى. أتبعتها بالثانية. ارتحت لصوت الزّجاج المكسّر. كسّرت كلّ الزجاجات. توجّهت مجدّداً إلى المطبخ. كسّرت أغلب الصحون والكؤوس. تناولت سكّيناً. عدتُ إلى الصّالون. مزّقت الوسائد والمقاعد كلّها. قطّعت بعض الكتب ومزّقت أوراقاً أخرى. قلَبتُ الطاولة رأساً.
امتزجت القهوة المحروقة بالزّجاج والكتب وما تبقّى من الصّالون.
فكّرت أن أذهب إلى غرفة النّوم إلّا أني عدلت عن ذلك. توجّهت إلى الحمّام. نزعت كلّ ثيابي. ملأت الحمّام بالماء السّاخن.
أحبُّ أن أُحاط بالماء.
غطّستُ كامل جسدي. أعقبت رأسي.
أحبّ أن أفتح عينيّ تحت الماء. الرّؤية تصبح ضبابيّة. الأفكارُ كذلك. صدى الأصوات يصبح مشوّشاً. صدى الأفكارِ كذلك.
خرجتُ من الحمّام. قطرات الماء سطّرت طريقي نحو المطبخ. تناولت سكّيناً. عدت إلى الحمام. دخلت للماء. قطّعت بالسّكين عرق رسغي الأيسر. حاولت ألا أقطع عرقاً آخر. وضعت يدي في الماء. أعتقد أنّ شيئاً داخلي تنفّس الصعداء.
بعد نصف ساعة، ربّما أكثر، أحسست بدوار خفيف. أحسست أيضاً بأعضائي تثقُل.
آخرُ شيء رأيته كان لونَ الماء الورديّ.

3

دخلت إلى المقبرة. أحمل معي رفشاً. أحفظ طريقي عن ظهر قلب. أمشي بخطوات واثقة نحو أعلى نقطة. شُيّدتْ المقبرة على جبل صغير. توجّهت مباشرة إلى المكان الذي أعرفه ويعرفني. أمضيت هناك أياماً طويلة. قرأت شاهد القبر الرُّخاميّ. قطرات دم خرجت من الحروف والأرقام. يسيل الدّمَ على الشّاهد. تلوّن كلُّ الرُّخام بالأحمر. يزداد تدفُّقُ الدّم من الشّاهد نحو تراب القبر. حفرت قليلاً برفشي لتتكوّن دائرة صغيرة تتوسّط القبر. امتلأت الدائرة بالدّم الدافئ. وسّعت الدائرة. ازداد الدّم تدفُّقاً. أحاول أن أوسّع الدائرة أكثر لتستوعب كلّ الدّم. بقع الدّم على وجهي وشعري ويديّ. كلُّ جسدي اصطبغ باللّون الأحمر.
أحسُّ بدفئه. أحسُّ بدفء الدّم.
أصبح أمامي الآن قبرٌ دائريٌ أحمرُ اللّون. أصبح القبر شبيهاً بنافورة دم. فاضَ الدّم من النافورة. حفرتُ برفشي مَجَارياً للقبور الأخرى. أحببت أن يصل الدّم لكلّ القبور. عملت بنسق جنوني. أخيرا وصل الدّم إلى آخر قبر.
رفعت رأسي نحو السّماء. قمرٌ كاملٌ أحمرُ اللّون يتوسّط السّواد.
سمعتَ صوتاً يناديني. عدت إلى القبر المصدر. توقّف الدّم عن السّيلان من الشّاهد. يناديني الصوت الأنثويّ. حفرت القبر الأحمر الدائريّ. وصلت اللّحد. أبعدته. توسّط القبر قلباً يدقُّ بنسق عادي يتفرّع منه كمٌّ كبير من العروق نحو التّراب. سمعت أصواتاً أخرى تناديني. حفرتُ قبراً آخر. قلبٌ آخرُ يدقّ وعروق أخرى ممتدّة. حفرت كلّ القبور. كلُّ القلوب تدقّ بنسق جميل. كلّ القلوب تناديني بصوت أنثويّ؛ لم يرق لي أي قلب.
غادرت المقبرة نحو حانة قريبة. توجّه نحوي هيكل عظمي وفي يده كأس نبيذ. شربته. أعتقد أنّه دم بشريٌ. فار الدّم في بطني. تسارعت دقّات قلبي بشكل رهيب. تقيّأتُ. تقيّأت. تقيّأت حتّى خرج قلبي منّي. تناولته برفق. عدت إلى المقبرة مسرعاً خوفاً أن يموت. حفرت فوق القبر المصدر قبراً آخر. وضعت قلبي فيه. ردَمته. أصبح قلبي مصدر الدّم لكلّ القبور.
عدت إلى الحانة. توجّهت نحو النّادل. تعانقنا. تلامس عظمه بعظمي. أصبحت هيكلاً عظمياً.
منذ أن مِتُّ، تراودني هذه الحقيقة كلّ ليلة.

4

تناولت رأسي بعد أن قطعته بسكّين حاد. وضعته بجانب المزهريّة التي بها زهرة حمراء أسقيها كلّ يوم بتفان شديد. تحلّل الرّأس ولم تبقَ سوى جمجمة جميلة متكوّنة من عظام. ملأت مكان الضرس الأيمن المفقود بقطعة صغيرة من عجين القنّب الهنديّ ثم تناولت الزهرة برفق وزرعتها في جمجمتي. في كلّ يوم، بعد عودتي من العمل، أتوجّه إلى الحانة لشرب بعض الجعة. دائماً ما أحضر معي علبة جعة لأمسح بمحتواها أوراق الزهرة. أضع يومياً، للجمجمة والزهرة، أغاني الجاز والبلوز لساعة تقريباً. كنت في السابق قد اقتلعت قلبي وزرعته في قبر ليكون مصدر الدّم لقبور أخرى. قضيت بقية حياتي من دون قلب والآن بدأت بالتّأقلم من دون جمجمة.
بدأت الوردة بالتّفتح وكان لونها الأحمر يزداد جمالاً. كلما تكبر الوردة كلما أرتاح أكثر في تحوّلي هذا. بعد مدّة بدأت بقراءة بعض الكتب للوردة ولجمجمتي.
كنت قد اكتسبت هذه العادة من ذهابي إلى المقبرة في الأعياد لقراءة ما تيسّر من الكتب على قلبي أيضاً. قرأت أيضاً للوردة وجمجمتي نصاً كنت قد كتبته عن حياتي من دون قلب يحمل عنوان «كنت». في ذلك النصّ تحوّلتُ إلى هيكل عظمي بعد أن شربت كأس نبيذ كان النادل قد سقاني إياه. عندما تعانقت مع النادل تعانق عظمي بعظمه. قررت الآن أن أتوجّه إلى الحانة نفسها، وأطلب من النادل نفسه كأس نبيذ آخر. كان الطقس رائعاً جداً والشمس تتوسّط السماء الزرقاء. عندما وصلت إلى الحانة التي تجاور المقبرة، عرفني النادل مباشرة ومنحني كأس كونياك. بما أني لم أكن سوى هيكل عظمي من دون جمجمة، مسحت بمحتوى الكأس كل عظامي.
توجهت بعد ذلك إلى المقبرة لإحساسي بالحرّ الشديد الذي يغلّف عظامي. حاولت قدر المستطاع أن أحفر حفرة عميقة لأصل إلى مكان رطب. دخلت بعد ذلك إلى القبر الأخير ودفنت هيكلي العظمي. ظلام شديد طغى على المكان وسكون رهيب.
في آخر الحفرة كان هناك نفقان. في آخر كل منهما باب.
باب يحملني نحو القبر الذي دفن فيه قلبي والآخر يؤدّي مباشرة إلى جمجمتي التي بها وردة حمراء.
منذ أن ولدت مجدّداً، لم يرق لي أي اختيار.

تونس

روبنز ــ «پْرُومِثْيُوسْ معذّباً» (زيت على قماش، 1618).

فصلٌ من رواية

عربية بنت الناس (*)

كورو ــ «البُنَيّةُ ذاتُ الدُّمية» (زيت على قماش، 1840)

صخر عرب

جلست على كرسي عال مثل كرسي السلطان، وطلعت عليه بطرّاحة سميكة وملونة؛ ثم نظرت إلى الرجال الواقفين الذين لم تعرف أحداً منهم؛ لم تعرف أيّهم صلاح؟ وعصام لم يكن بينهم؛ هو الآن مع الأولاد في الحارة، أو على تلة الرمل يلعبون بعدما بدأت الشمس تميل للغروب وبردت الرمال. لكنها لمحت خالها فؤاد من بعيد مع الرجال، كان مرتباً وأنيقاً، وأجمل الحاضرين، فنظر إليها من بعيد، وابتسم لها. يا الله، ما أجمله، وما أحلاه! فرحت ورقص قلبها، وتابع الخال طريقه ولم تلمحه بعدها. فهل يكون صلاح مثله وبجماله ولطفه ورقّته وحنانه؟ هل يكون خالها هو العريس؟ ليت ذلك.
بعد إتمام إجراءات الزواج سألتْ أمها وقريباتها:
- هل مطلوب مني شيء آخر؟
ولما قيل لها إنّ لا شيء مطلوبٌ، ألقت المنديل أرضاً وخرجت حاملةً عروستها القماش، ونزلت لتكمل اللعب مع أترابها البنات في الساحة، وفرحن بها وبثوبها. سُئلت:
- هل العريس جميل؟،
فأجابت:
- ما عرفته من بين الرجال، سكتت، ثم قالت للبنات:
- سأقول لكنّ يا بنات شيئاً؛ سراً؛ ليت العريس يكون مثل... مثل... مثل فؤاد خالي. وضحكن.
وقبل الانصراف باحت بخاطر غريب لصديقتها راوية:
- ليت العريس كان خالي فؤاد. كنت سأطبخ له، وأغسل ثيابه وأرتب البيت، كما تفعل ماما للبابا.
أجابت راوية أن زواج الخال من ابنة أخته حرام. كأن صديقتها لم تفهم عليها. يا الله، ما أثقل دمها! واستحيت أن تُطلع عصام عليه، فهو يفهمها أكثر، ويعاملها باحترام، لكنه صبي، ولا يجوز الكلام معه بهذه الأمور؛ عيب.
غروب ذلك النهار انتقلت عربية إلى منزل ذلك الرجل الذي هو عَدَلها، صلاح الذي صار زوجها، أو «بعلها» كما قيل قبلاً. بدا لها من الأول رجلاً ضخماً فظّاً، وصاحب شارب أسود غليظ أخافها، والآن صار زوجها. هو ليس مثل خالها فؤاد الذي تحبه، كما تخيلت وتمنت في قلبها، وقالته عندما نزلت لتلعب مع بنات الحارة. فزعت من الشعر الأسود الكثيف والطويل الذي يغطّي صدره ويملأ ذراعيه وفخذيه وساقيه وكل شيء، وكرهت رائحة الكولونيا التي يضعها الرجال بعد الحلاقة تلك الأيام، والتي مسح بها صلاح وجهه؛ كادت تتقيأ. ناداها بصوت أجشّ:
- هيّا يا بنت الناس أقبلي، تعالي. أنتِ امرأتي، وصرتِ حلالي. لا تخجلي، المرأة لا تستحي من رجلها. لا تخافي.
لكنها خافت منه كثيراً، واستحيت لما نزع ثيابها، وعَرقت. لم تعرف السبب، مع أن الهواء كان بارداً، وأحسّت بالروع. كانت تظن أن الزوجة تحبل وتلد أولاداً صغاراً لطيفين وحلوين بمجرد أن يقبلها زوجها بشفتيها، كما شاهدوا في أفلام السينما، أما كيف يصير الأمر حقيقة، فكان شيئاً يصعب عليها حلّه وإدراكه، وأمراً معيباً لمجرد التفكير به. لم يذهب فكرها أبعد من هذا، ولم تعرف شيئاً. خافت تلك الليلة من ثقل الرجل، ومن الضغط الكبير والهائل على جسمها الطري الصغير من بطنه الكبير، وكاد يخنقها، وصرخت من ألم الثقب الفظيع الشبيه باحتكاك عود خشب بطبلة الأذن. خافت من الدم الذي سال، فصرخت وبكت.
■ في اليوم الثاني، وبمجرد خروج صلاح باكراً لشغل الملحمة، هربت إلى بيت أهلها. قالت لهم إنها لم تعد تريد أن تتزوج، وتخاف من صلاح، وتريد أن تبقى بالبيت لتلعب مع عصام، وبكت.
- لا تبعثوني إلى صلاح، الله يخليكم. خبّوني بالخزانة. وإن سأل عني قولوا لم نرها؛ خرجت للحارة وما رجعت. أو حطّوني وراء برميل الأرزّ على التتخيتة، أو كيس الطحين، الله يوفقكم.
حضنتها جدّتها لأمّها وقالت لها:
- يا روح ستّك، كلنا هكذا. أنا مثلك تزوجت صغيرة، وخفت بالأول من زوجي وفزعت من زقرته وعبسته، وتعودت عليه. هذا حظنا ونصيبنا، غداً تتعودين عليه، وترين الزواج جميلاً، وتحبينه. إن شاء الله، تقبرين ستّك.
- ولكن هل قال لك زوجكِ يا ستّي «هيّا يا بنت الناس أقبلي، تعالي أنتِ امرأتي، وصرتِ حلالي؟» هل قرصكِ زوجكِ بفخذكِ قرصة موجعة مؤلمة حليت فيها روحكِ؟ وكشفت عن فخذها البيضاء الطرية، وأرتها محل القرصة الأزرق المتورم. وهل كان شاربه غليظاً أخافكِ؟ وقال لكِ «سوف آكلكِ نيّئة بلا ملح، بمجرد أن تسمني؟» وهو جزّار عنده سكين، ويذبح به الخرفان، ويقصّ اللحمة. أرجوكِ يا ستّي لا تبعثوني إلى صلاح. خذيني لعندك. لا تتركيني له. الله يخليك... و... و... وفعل معي شيئاً عيباً ووَسِخاً، أستحي أن أقوله.
- وماذا كنتِ تظنين أن يفعل؟ كل الرجال هكذا، يفعلون ذلك وأكثر. لكن من هو زوجي؟ أليس جدّكِ؟ لقد أحبني كثيراً وأحببته، ورزقنا أولاداً كثيرين، وأمكِ واحدة منهم. الله يرحمه، ليته عاش لليوم. كل شيء بحسب العادة. نعم، قال لي «سآكلكِ نيّئة بلا ملح»، ولم يأكلني، ها أنا ذا أكلمك. يقولون بالمثل يا ستّي «الغول أكل كل الدنيا، إلا مرتو» فهذا مزاح واسمه غزل، ومن الغرام. أنا تهنّيت مع جدّك. ستعتادين عليه وتحبينه. لا تخافي، تعالي لقلب ستّك يا ستّي. ستبقين عندي، ولن أعطيكِ لصلاح ولا لغيره. لتناولني إحداكن طاسة «الرعبة» (**)، البنت خائفة ترتجف، قلبها يكاد يقف. اسم الله عليك...
وبعد أيام، أُعيدت لبيت بعلها. ذهبت العائلة إلى هناك، وذهب معها خالها فؤاد لبيت صلاح، أما العم عصام فكان يلعب بالطابة مع صبيان الحارة. تكلم فؤاد مع صلاح، ليرأف بها ويرفق، حتى تعتاد عليه وعلى وضعها الجديد، ولا يقول لها «سوف آكلك نيّئة، بلا ملح»، ولا يمسح ذقنه بكولونيا بعد الحلاقة، ولا يقرصها. هي حلوة وصغيرة وستسمع كلامه وتطيعه وتحبه، ولن تهرب ثانيةً.

(*) فصل من رواية بالعنوان نفسه، صدرت حديثاً عن «الدار العربيّة للعلوم ناشرون» في بيروت، تتناول موضوع الزواج المبكر في المجتمعات العربية التقليدية وتتتبع آثاره المستقبلية على حيوات الفتيات القاصرات والأسرة والمجتمع بشكل عام. وهي المؤلّف السابع للكاتب اللبناني صخر عرب بعد: «الأمل والمطر»، «نسيم الشمال»، «حكايات منسية من المدينة»، و«أوراق كاتب عدل»، «ضربة شمس»، و«خاتم العقيق».
(**) كأس من نحاس مطلسمة بآيات قرآنية وأسماء الله الحسنى، يسقون بها ماءً للشخص المرعوب ليطمئن ويذهب عنه الروع.

شعر

قوارب العزلة الصغيرة (*)

دلال بدر

كريستيان جكِيلْ ــ «قارب منعزِلْ» (زيت على قماش، 2019).

1- طريق

انتهت الطريق
ولا زالت قدماي تسيران
نحو
قرية هجرتها الحياة
لأفاجأ أنّ المطر لم يعد يُقبِل
قرميد منازلها
نحو
قطيع من أغنام تتبادل
وراعيها
كلمات أغنية هادرة:
«امض أيها الضال
إلى الجلبة
هناك حيث ستستعيد ذاتك»

نحو
ثنائي غريب
طائر بلشون يعيش التوحد
ويراقب شجرة سرو
تلتحف ظلها.

نحو
نافذة فقدت حنجرتها
تلوح كشيخ مسن بخشبها المشقق
حتى لكأنها تُلقي على
الواقفين خلفها موعظة
بعد أن استنزفت أطياف الغائبين
دموعهم.
نحو عجوز مكابرة
تلحف في جمع الركام
حجارة
حطباً
وروث بهائم

..أيام استحالت إلى بياض باهت
لفرط ما تكررت.

نحو
بقايا أثاث عتيق ومهترئ
صور باهتة منسية على حائط متعب
مذياع تداعى صندوقه كأنتيكا
صندوق خشبي أمحت زركشته
رسائل حب جف ورقها المعطر
وأرجل الرتيلاء تعكف على نسيان
يليق بثباتها.

نحو
موت لا هوية له
لجندب.. لكلب شارد.. أو
لنجم سينمائي أنيق
رباه.. لكأنها كانت تدنو مني
لتجهز كواليس موتي الأخير

وأخيراً آن أن يتوقفا عن السير
يا إلهي.. لقد كانتا طيلة الوقت.
تسيران بي نحوي !

2- جندي

عاد الجندي من الحرب
عاد إلى أهله بساق واحدة
يحملها فوق رأسه
كناجٍ وحيد بين رفاقه.

هناك في قريته
وجد والده قد أسلم الروح
وحبيبته قد
رحلت مع أول خاطب طرق بابها.

يا الله.. بلدته الجميلة كانت
قد بدلت جلدها
وحيهم قد حُورَ في ملامحه
التي كانت
قد غيبها في الذاكرة
حتى البنايات أنكرته
فيما الطُرق
لم تعد تلك الطُرق الأولى
انفجر بطنها وتشعبت
عنها طُرقات
لقد فاتته حياة كاملة.
الجندي فكّر
ماذا لو تُوفي ووُلِدَ من جديد!
وهكذا لن يعود ذاك الغريب
فقطع لسانه
وألحق به الأذنين
ثم فقأ عينيه
وخاط فمه
وأطلق الغُراب الذي كان قد
استوطن رأسه
وهكذا دفن حواسه القديمة
أراد أن يمحي ذاكرته القديمة
بأخرى جديدة تليق بقريته
لكن البحار الذي أنشأ يجذف
داخل قلبه خذله
راح يستعين بخبرته الخبيئة
فاتكأ على اليد ذاتها
الأنف والقدم والعينين

الجندي المسكين
لو أنه - فقط - فكر في
الإجهاز على البحار أولاً..

3- أحجية

الغراب الذي ظل
ينقر بداخلي دون كلل
وصل إلى كهف قصيّ
لم أكن أعلم بوجوده
قبل اليوم

كهف
فاحت منه روائح حارة
لمسك وكافور
وأخرى لم أتبين طبيعتها

وملأت يد الريح الخفية
أفواه جدرانه
بكثبان غبار
وبيدين حذرتين
وفي سُكون مُلهم
وقف فيه شيخ ناسك
يطوّق لهب شمعة

عين الغراب كانت ترنو
إلى يد الناسك

حلّق فوق رأسه
ضرب الهواء بجناحيه
الكثّة
أطلق ينعق وينعق

في وجل همس الناسك
بكلمات
فضم الغراب جناحيه إليه
ثم غاب في الضباب البعيد

4- سرير

ماذا يفعل الغريبان
في سرير واحد؟

عين غريبة
تقابل عيناً أخرى
غريبة عنها

أصابع يد غريبة
تعانق أصابع يد أخرى
غريبة عنها

ثرثرة السرير:

الجواد ضيّع مساره
كان يركض ويركض
نحو اللّاوجهة

خطواته تُسابق أنفاسه
من أجل شرعية الخضوع.
النجمة منطفئة
بدا الحيوان المنتصر
مهزوماً يتجشأ خضوعه
الرغبة المتكافئة
القبل الثملة
الجسد المحموم لهفة
الأنفاس العطشى
مباركة الحب
كلها يدك بها دَكّاً - بلا رحمة -
في أفواه الملاءات
الوسائد... الجدران

وكعازف كمان حزين
لم يقبض على النوتة الصحيحة
ليكتمل معه اللحن
يأتي الصباح
يستفرغ السرير
في الأفواه ذاتها
ما ابتلعه ليلاً
من اغتصاب.

فتموت الروح
يموت الطفل
تموت الحياة

ودورة القمر التي لن تكتمل أبداً
ما لم تنشد الروح من الحب
صفاءه..

5- قلق

شاع في القرية
أنّ طيور اللقلق تقيم
حفلة في الغابة

هنا
حيث الرطوبة
تملأ جلدي
الانطفاء قلقي الوحيد.

فقط لو أنني
أمتلك صوت طائر.
الموت هدية أيضاً
وأخيراً ها أنا ذا أرقد بسلام

عرفته للمرة الأولى
الموت ليس سيئاً.

الحجر يزهر في رأسي.

في متناول يدي
تشرق الشمس.

كاله أبدي أحيا
وأزهر كشقائق النعمان.

لتغني أيتها الحرية أغنية الانتصار.

6- قنديل

إلهي
يا شاعر الكون الأعظم
ها أنا ذا أضع يدي على قلبي
مغمضة العينين.

وشفتاي المتعبة
تترنّم باسمك
تتوسلك

أين أنت من هذا العالم الواسع
شمسك لا تشرق في مدني.

أين أنت من هذا العالم الواسع
كي أحج إليك.

تزهر الندوب نرجساً

في الليل يبتلع الظلام الطريق.
في النهار يبتلع الضباب الأبواب والنوافذ.
غير أني لا أودع الأمل.
أغمض عيني
وأصغي لحديث الهواء.
وقع خطاك البعيدة
تطأ أرضي.
تزهر الندوب نرجساً.

(*) قصائد من ديوان بالعنوان نفسه صدر حديثاً للشاعرة الجزائرية دلال بدر، عن «كلاما للنشر والتوزيع»، قالمة، الجزائر

سيرة

محمد عُضيمة عالقاً في الأرخبيل الياباني

خليل صويلح

كأنه ابن المسافات والطرق الموحلة. ذلك أن محمد عُضيمة (1954) لم يستقر في مكان. وإذا بقريته «رويسة الجبل» في الساحل السوري تنأى بعيداً كذكرى ضبابية، إثر ترحاله الطويل، لتقذف به الأقدار أخيراً إلى الأرخبيل الياباني. هكذا مزج صاحب «لا لن أعود إلى البيت» بين أبجدية أوغاريت وتلك الأحرف الغرائبيّة للغة اليابانية. ما يسميه عبد القادر الجموسي «المغامرة اليابانية» في كتابه «الذهاب نحو الأقصى: محمد عُضيمة، التجربة والمعنى» (دار التكوين) يتجاوز الحوار العابر نحو ما هو أعمق في فحص شيفرات الشاعر السوري الذي صار يابانياً حتى في سحنته. ثلاثة عقود في تدريس لغة الضاد من جهة، وتعلّم اليابانية من جهة أخرى، وضعته في مهبّ مغامرة تشبه مغامرات الرحّالة العرب القدامى، بفارق أنه انخرط بالثقافة اليابانية، وعلى نحو أدقّ بثقافة شعر الهايكو، وتصديره إلى خارج حدوده بقصد تعميمه عربياً، واستثمار معنى الكثافة والتقطير بدلاً من المطولات الشعرية، في مختبر جديد أطاح النص الأصلي لشعراء عرب مثل أدونيس وسعدي يوسف، وشعراء آخرين، وذلك ببتر الأعضاء الفائضة للبنية الإيقاعية بما ينتهي إلى فراشة بجناحين ملوّنين فقط.

في الحوار الذي استغرق ثلاث سنوات، يضيء عبد القادر الجموسي جوانب معتمة من حياة صاحب «شارع الألبسة الجاهزة» ونشأته الأولى في ريف حزين ومهمل، لنكتشف بأن «الطريق إلى البيت أجمل من البيت»، وبأن المشهديات العابرة هي بؤرة الشعرية لديه. الشعرية التي سترفدها جماليات الهايكو تدريجاً، بعد تعثّر طويل بمتطلبات الشعر الإيقاعي، والغرق في جماليات التصوّف أثناء الخدمة العسكرية في حلب، وصولاً إلى تعرّفه على أدونيس في مقهى «الروضة» الدمشقي باقتحامه طاولته من دون موعد: «كان هذا اللقاء انعطافاً أساسياً في حياتي».

من دمشق إلى باريس إلى وهران، وصولاً إلى طوكيو، بدت الحياة بنكهة أخرى، كمحصلة للتفكير بلسانين، والافتتان باللغة الفرنسية، والاشتغال بترجمة الشعر العربي إلى لغة موليير مثل «النفّري»، و«معلّقة الشنفرى»، و«نزار قباني»، و«كمال خير بك»، و«أغاني مهيار الدمشقي» لأدونيس، بالاشتراك مع آن مينكوفسكي التي أنكرت جهوده وإغفال اسمه على الغلاف مكتفيةً بشكر عابر. في حقبة مبكرة من الارتطام بثقافة الآخر، بدت مفردة الحداثة العربية تشكّل بالنسبة إلى محمد عضيمة عذاباً داخلياً، نظراً إلى المسافة الفاصلة بين النظرية والممارسة، فأنت كما يقول «محاط بقلاع من التخلّف وانفصام الشخصية»، و«مساكين أدباء الحداثة... بناية واحدة من عدة طبقات تتسع لهم ولمريديهم/ لجمهورهم من المحيط إلى الخليج». ولكن كيف حدثت نقطة التحوّل في الذهاب إلى اليابان؟ هنا يربط محمد عضيمة ما بين ذلك اللقاء العابر في مقهى «الروضة»، وعلاقته اللاحقة بأدونيس في إقامته الباريسية، وكيف رشّحه للعمل في جامعة طوكيو بديلاً عنه بسبب مشاغله. كانت موافقة نوبواكي نوتاهارا رئيس قسم اللغة العربية في جامعة طوكيو مفاجأةً حقيقيةً وفسحة بهجة وقلق في آن واحد. هناك سيكتشف الشخصيةَ اليابانية عن كثب، وقسوة العيش في تلك البلاد لعدم معرفة لغتها وطبائع بشرها (يرمم هذه الفترة بكتابة سيرته في طوكيو: «غابة المرايا اليابانية»). سيتعرّف لاحقاً إلى بعض الشعراء اليابانيين، ويلتقط إيقاع الحياة هناك، ثم يعمل على ترجمة نصوص بعضهم إلى العربية كأول جسر بين الثقافتين: «أحسست أنني مسكون بعشرات الأصوات المخنوقة: صوت ذلك الذئب البعيد، ذئب الغربة، وذئب الخمور، ذئب التسكع في الشوارع والحانات والمواخير» يقول. سوف يترجم أولاً، كتاب اليابانيين المقدّس «كوجيكي» بوصفه مفتاحاً أساسياً لقراءة وفهم الواقع الياباني، وكان احتكاكه بالشعراء اليابانيين فرصةً ثمينة لمعرفة جوهر هذا الشعر الذي يتمثل في غياب الصورة المجازية، وغياب البعد التجريدي عنه، واللامرئيات. «الياباني شخص حسّي، لا يصدّق أو يقتنع أو يؤمن إلا بما تقدّمه له الحواس، فأن تكون اليابان في قمة الحداثة، فهذا لا يتناقض في شيء مع التقديس البدائي للشمس أو لمظاهر الطبيعة» يقول.

يضيء عبد القادر الجموسي جوانب معتمة من حياة صاحب «شارع الألبسة الجاهزة»

هكذا وجد في الشعر عتبةً لمعرفة هوية بلاد الشمس المشرقة، وذلك المزيج بين ما هو قديم وما هو حديث وصولاً إلى ذروة الروح الشعرية اليابانية التي تشبه تطعيم أغصان الأشجار، وتالياً «تُختصر القيم الجمالية لهذا الشعر بالبساطة والإيجاز والاقتصاد اللغوي، واستنفار حواس اللمس والتذوّق والشم أكثر من حاستي النظر والسمع». هذه الخصوصية جعلت الفن بمختلف أصنافه، متنفساً روحياً جمعياً، يجد اليابانيون فيه حلولاً لأرواحهم التائهة. عدا «التاناكا»، يقتحم «الهايكو» بتمثلاته الإيقاعية مفاصل الحياة اليومية، وطراز العيش الراهن، فهو «يوحي أكثر مما يعبّر»، وبمعنى آخر، هو «فن التقاط ارتعاشات الإحساس قبل أن تتلاشى».

بمثل هذه الخبرة الاستثنائية، تمكّن صاحب «يد مليئة بالأصابع» من تصدير الشعر الياباني إلى اللغة العربية بأكثر من عنوان: «كمشة من رمال: شعر تاكو بوكو»، و«كتاب الهايكو الياباني: ألف هايكو وهايكو»، و«بريد الهايكو الياباني». وإذا بنا أمام أنطولوجيا غنية، عملت على سدّ ثغرة واسعة في الثقافة العربية، لكنها في الوقت نفسه أغرت بعض الهواة في قطف ثمار الهايكو من دون معرفة طعمها الأصلي، بنصوص هزيلة وجوفاء وكارثية.

نطوي صفحات هذا الكتاب، ونحن نستعيد صورة ذلك الريف الخام بدروبه الموحلة، وصورة طوكيو المضادة، وبينهما صورة هذا الرحّالة العالق بينهما منذ ثلاثين عاماً، وهو يهتف «مثل كتاب، أنام على الرّف/ أو تحت مخدّة/ لا أريد أن يقرأني غير المطر».

لمحات

حسين جلعاد

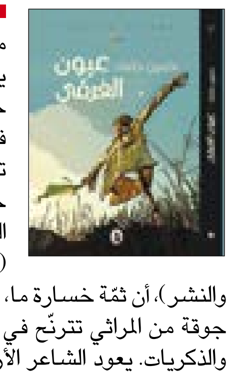

■ حتى وإن كانت شخصياته مجرد أطفال أو مراهقين يجربون العالم ويختبرون حواسّهم، أو طلاب جامعة في لحظة الوعي والرفض، تشعر وأنت تقرأ قصص حسين جلعاد في مجموعته القصصية «عيون الغرقى» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، أن ثمّة خسارة ما، وأن هذه الحكايات ليست إلا جوقة من المراثي تترنّح في أرض صغيرة من التجارب والذكريات. يعود الشاعر الأردني بعشر قصص، مهدياً كتابه إلى مدينته إربد من دون أن يذكر اسمها، لكننا نعرف ذلك من الوقائع. يتنازع كلَّ شخصيات جلعاد عالمان: الطفولة والرشد، المراهقة والنضج، الفقر والثراء... بعد 15 عاماً من الغياب عن النشر، يأتي حسين جلعاد بقصصه العشر. إنها حكايات من الحنين وعنه، كل شخصياتها في مكان يبدو الآن سحيقاً من الماضي، وتنظر إلينا بعيون غرقى.

ديمة عبدالله

■ تروي الكاتبة اللبنانية الفرنسية ديمة عبدالله في باكورتها «أعشاب ضارّة» (2020) التي انتقلت أخيراً إلى لغة الضاد (دار الآداب . ترجمة هيثم الأمين) قصة علاقة استثنائية مفعمة بالحب والرقة والمشاعر بين طفلة وأبيها باعدت الحرب اللبنانية بينهما مُخَلِّفة حزناً عميقاً في نفس الطفلة. تحكي الكاتبة على لسان بطلتها عن علاقة تسكنها الكلمات والكتابة التي ورثتها المؤلفة عن أبيها الشاعر محمد عبدالله وأمّها الروائية هدى بركات. تنتقل الرواية من أحداث الطفولة إلى إشكاليات الحرب اللبنانية والمنفى وعدم التكيّف مع المحيط والعالم. تستعرض الكاتبة بقايا صُوَر عالقة في ذاكرتها عن بيروت خلال الحرب عبر إيقاع متسارع للأحداث وتحكي ذكرياتها عن تلك الفترة، ثم تنتقل إلى باريس حيث يلجأ أفراد العائلة هرباً من أتون الحرب تاركين خلفهم الوالد والمنزل والنباتات التي تعشقها الفتاة الصغيرة. رواية تتحدث بلغة شاعرية عن خسارة وطن وأب وقسوة العالم وضحايا الحرب والعزلة التي قد يختارها الفرد لتجنب عنف الجماعة.

يوسف الحسن

■ عن «مركز دراسات الوحدة العربية»، صدر «الضمير الإنساني في زمن كورونا: يوميات وتأمّلات» للباحث يوسف الحسن. يتساءل المؤلف في هذه اليوميات والتأملات، ما إن كانت جائحة كورونا وتداعياتها ستشكّل بارقة أمل تقود الإنسانية إلى صوغ رؤية ناضجة لمنظومة أخلاق عالمية، تحيي الضمير الإنساني، وتخلصه من براثن الإفلاس التضامني والأخلاقي، وتعيد التفكير في فلسفة التنمية والمجتمع والطبيعة والسعادة والمعاناة، وتفاعل الاجتماع الإنساني في مواجهة الأوبئة وتداعياتها، هي محاور رئيسة في هذا الكتاب، الذي يضم بحوثاً ومقالات وخواطرَ وأشجاناً ويوميات كتبها المؤلف في أعوام كورونا. إنها نصوص فكرية، بقدر ما هي حافلة بهموم الجائحة وبتسجيل مشاعر وطقوس بعضٍ من أيامها وناسها، تسعى لإيقاظ الضمير الإنساني، وإنقاذ مدن حزينة وأسيرة، ولمنح المعنى بعداً مشبعاً بالأمل لإنعاش الروح، ولاستعادة النزعة الإنسانية وقيم التعايش والتسامح في مواجهة الخوف والظلم والكراهية والتفسخ والعنف والقبح والفساد وعدم المسؤولية.

الجوهرة الرمال

■ أطلقت الروائية السعودية الجوهرة الرمال عنوان «عوسج» على روايتها الجديدة (دار الأدب العربي)، نسبةً إلى شجرة العوسج التي تقول الأسطورة عنها إنها شجرة تسكن تحتها قبيلة من الجان، وتُسمى في بعض الدول العربية الشجرة الشيطانية. تدور القصة حول شاب يُدعى جبران أصيب بلعنة قديمة جعلته يُصاب بالأرق ويجافي النوم ودفعته لاختيار ضحية لقتلها في كل مرّة لينعم بعدها بنوم هادئ لمدة أشهر طويلة. الأمر المرعب أنّ والدته هي أولى ضحاياه. تستمر هذه اللعنة طويلاً، محوّلةً حياة البطل إلى جحيم حتى تظهر كمد وهي جنية من قبيلة غيلان المعروفة بسيادتها وقوتها، فتدلّه على شجرة العوسج التي ستساعده على النجاة من المحنة التي حاقت به. رواية «العوسج» تتأرجح ما بين حقيقة الجريمة وهذيان القاتل، وقد نجحت الكاتبة في توظيف أسطورة شجرة العوسج بطريقة تخدم السياق الروائي، لتأخذ القارئ إلى عالم التشويق والإثارة والترقب. وهكذا يبقى القارئ مشدود الأعصاب ليعرف ما إن كان البطل جبران سينجح في هزيمة السحر والإفلات من تأثيره.

رونان ماكدونالد

■ تدور فكرة كتاب الأكاديمي البريطاني رونان ماكدونالد «موت الناقد» (2007) الذي انتقل أخيراً إلى المكتبة العربية (منشورات المتوسط ـ ترجمة فخري صالح) حول تراجع النقد الأكاديمي وتضاؤل تأثيره وانتشار النقد الثقافي الذي يتصدّر المشهد حالياً. يعلن ماكدونالد موت الناقد والعمل على تأبينه، مشيراً إلى فقدان الناقد الأكاديمي مكانته في الثقافة الإنغلوساكسونية خلال العقود الاخيرة، ولا سيما بعد صعود التيارات المعادية للسلطة والداعية إلى التحرر من كل أشكال الأبوية، بما فيها سلطة الناقد الذي يعطي رأيه بفوقية في الأعمال الأدبية. يقول ماكدونالد إنّ شحوب دور الناقد يعود إلى ابتعاده عن النقد التنويري وانسحابه إلى صومعته الأكاديمية، مكتفياً بكتابة دراسات لا تفهمها سوى النُّخب المتخصصة. يسخر من النقد الأكاديمي الذي لا يُلقي بالاً لما يهتم به الجمهور الواسع من القراء من تعريف بالأعمال الأدبية والفنيّة وتقديم إضاءات حولها. هكذا، ومن وجهة نظر مؤلف الكتاب، مات الناقد بالمعنى المجازي وأخلى مكانه للقارئ الذي يستطيع الآن أن يضفي قيمة على الأعمال الإبداعية التي يقرؤها دون حاجة إلى نقد متخصص، بفضل انتشار المدونات والمواقع التي تتيح لأيّ كان الكتابة عن الروايات والكتب.

عبد القادر ياسين

■ يغطي كتاب «الحركة الوطنية الفلسطينية في القرن العشرين» (مركز دراسات الوحدة العربية) للباحث الفلسطيني عبد القادر ياسين مساحة زمنية من تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المعاصر، امتدت على مدى القرن العشرين تقريباً، منذ بدايات تنفيذ المشاريع الاستعمارية الغربية والمشروع الصهيوني في فلسطين وما أفرزته هذه المشاريع من حركات مقاومة وتحرير وتحرر وطني على الساحة الفلسطينية، إلى ما بعد اتفاقات أوسلو وقيام السلطة الفلسطينية. يؤرخ الكتاب مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية، بدءاً من تطور الحراك الوطني الفلسطيني تحت الاحتلال البريطاني لفلسطين حتى وقوع نكبة عام 1948؛ ثم مرحلة النضالات الاجتماعية والسياسية المتفرقة في فلسطين والمنطقة، وصولاً إلى هزيمة عام 1967، وانطلاق العمل الفلسطيني في الخارج، قبل أن تغادر فصائل المقاومة الفلسطينية الأردن (1971-1970) إلى لبنان ثم خروجها منه عقب الغزو الإسرائيلي له (1982). أمر خفّف من تعويل الداخل الفلسطيني على مقاومة الخارج، فكانت «انتفاضة الحجارة» (1987- 1991)، التي أساءت القيادة الفلسطينية استخدامها منزلقة إلى خيار «اتفاق أوسلو»، الذي تمخّض عن سلطة حكم ذاتي مقيَّدة الإرادة والخيارات.

رواية

«جامع أعقاب السجائر» بين البطولة والسقوط الأخلاقي

علي مهدي زيتون

«جامع أعقاب السجائر» (الفارابي) ليست باكورة منير الحايك، إذ صدرت له قبلها ثلاث روايات، ومن يعُد إليها، يدرك أنّ منيراً روائيّ حقيقيّ جدير بالتقدير. العنوان إشارة إلى أمرين: الأول مرتبط بالفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها ذلك الجامعُ، والثاني متعلّق بمرحلة زمنية عاشتها بعض الأرياف اللبنانية في ستينيات القرن الماضي. وإذا كان ذلك الجامعُ مراهقاً في أول عهده بالمراهقة مشمولاً بمركبات النقص التي تراوح بين عجز المراهق الريفيّ الفقير عن التشبّه بالمراهق الغني من جهة، ومحاولته إثبات حضور الذات من جهة ثانية، فإن الانتماء إلى فئة الفقراء في مرحلة من حياة الريف اللبناني، حيث غياب توافر المشتهَى من المأكل والملبس، يدفع بالمراهق الريفي الفقير إلى مسارات غير سويّة في أحيان كثيرة. وإذا تجاوزنا العنوان المحرِّض على قراءة النصّ، اعترضنا الإهداء الوجيز الذي توجّه به منير إلى كيانين مختلفين يحملان الاسم نفسه «إلى يافا ابنتي، والمدينة». وإن يطلق منير اسم يافا على ابنته، يعني أنه يلفت انتباهنا إلى أمرين: إلى همِّه المتعلق بتحرير فلسطين، وإلى اهتمامه بالقضية المشتبكة بذلك التحرير. وهذا طبيعي من منير الملتزم بالقضية القومية الأولى والكبرى، وذلك الالتزام الذي يمليه عليه انتماؤه العقديّ.

والإهداء ليس أمراً عابراً يحاول صاحبنا من خلاله إرضاء هذا الصديق أو ذاك القريب. سيجد القارئ نفسه مستوقفاً مع كل خطوة يخطوها داخل الرواية. خيوط ثقافةِ منير العقدية، تحيك الزمان كما تحيك المكان، وترسم الشخصيات وانشدادها إلى كل حدثٍ، صغيراً كان أم كبيراً. فلا انفصال للحدث عن كل معلم زماني أو مكاني بقطعِ النظر عن مقداره أو مساحته.

ويبقى أن أول ما يستوقفنا في هذه الرواية، أنها رواية مشكليّة. ليس لأن القارئ لا يستطيع امتلاك مفاتيحها من القراءة الأولى، وعليه أن يعيد القراءة مرتين أو ثلاثاً، ولكن، لأنّ كلّاً من بناء الزمان وبناء المكان وبناء الشخصيات هو بناء مشكليّ. فأنت لا تستطيع تخليص زمان الرواية من تفاوت الأزمنة وتداخلها إلا بصعوبة. صعوبة تدعوك إلى تخليص زمان مصطفى (البطل)، من زمان مصطفى جامع أعقاب السجائر، أو زمانه في السجن من زمانه في محاولة تهريب الكبتاغون. أضف إلى كل ذلك اشتباك زمان علاقته بأحمد وعبد العظيم مع زمان علاقته بآغوب الأرمني. تجد الأمر المشكليّ نفسه إذا حاولت الوقوف أمام الاشتغال العامليّ في الرواية. فأنت لن تجد معالم واضحة تعطي العامل/ الذات خصوصية واضحة بيِّنة، أو تؤطِّر العامل/ الموضوع حول رغبة يسعى مصطفى إلى تحقيقها. وإذا كانت الذات مشكليّة، فإنّ موضوع الرغبة مشكليّ أيضاً، ولا يستطيع الإفلات من المشكليّ، خصوصاً في أثناء بحثكَ عن العوامل المساعِدة، أو تلك المعرقِلة في أثناء العمل لتحقيق الرغبة. وقلِ الأمرَ نفسه بالنسبة إلى العاملين: المرسِل والمرسَل إليه. ويبقى سؤالٌ مبدئيّ: هل يستقرّ بنا المآل عند هوية ذات خصوصية ثابتة تتعلق بالهوية النفسية، أو الاجتماعية، أو الأخلاقية؟

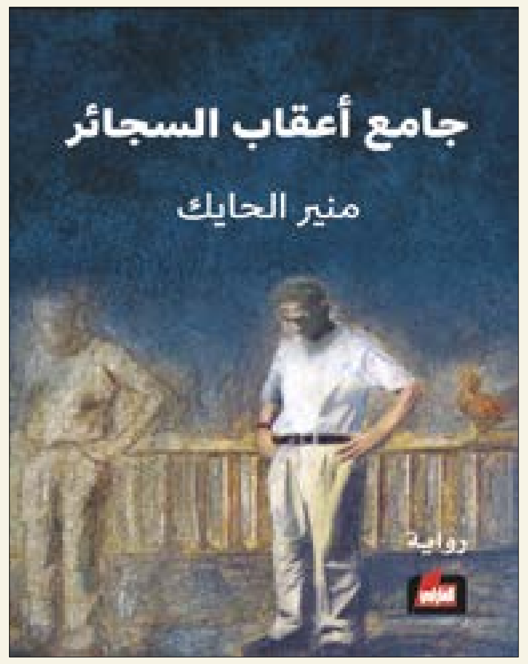

لا نجد هوية نفسيّةً ثابتة لمصطفى، ولا هوية أخلاقية

لا نجد هوية نفسيّةً ثابتة لمصطفى، ولا هوية أخلاقية. تتعلق مسألة أعقاب السجائر بمركّب نقص نفسيّ مزدوج. يتجلّى الأوّل بمحاولة المراهق استباق الزمان، فالذين بلغوا سنّ الرجولة بالنسبة إليه يملكون القرار. ويقدّمهم هذا ذوي شخصيات قوية تفرض نفسها، فيحاول المراهق تعويض هذا النقص بالتمثّل بالكبار من خلال التدخين. وإذا كان لا يملك القدرة المالية التي لا تخوّله شراء السجائر التي تبوّئه مقام الأكبر منه سنّاً، يتغاضى عن ذلك بجمع أعقاب السجائر وتحويلها إلى سجائر صالحة للتدخين. ولا يؤهله ذلك للتشبّه بالأكبر منه سنّاً فقط، ولكن يؤهّله للتشبه بالمراهقين من أولادِ الأغنياء القادرين بما وُضع بين أيديهم من نقود على شراء السجائر من الدكاكين. ففارق السنّ والفقر شكّلا عند المراهق المنتمي إلى قعر المجتمع، مركّب نقص مزدوجاً كما رأينا.

وإذا حُلَّت عقد النقص المتعلّقة بثمن شراء السجائر عندما بدأ مصطفى العمل، فإنّ عقدة ثانية لم تُحلّ، فالتشبّه بمن يكبرونه سنّاً بوصفه مراهقاً، لا تتعلق بالتدخين وحده، بل تتعلق بظهور الشاربين والعارضين. وتأتي سرقة شفرة «الناسيت» من ممتلكات خاله لتحلق الوبر وتحوّله إلى شعر يزيّن الوجه ويقدّمه شاباً يمتلك علامات الرجولة. وإذا عوّض النقص على حساب الهوية الأخلاقية التي تضررت وسقطت في تجربتَي سرقة السجائر في البداية والشفرات أخيراً، فإنّ الرغبة الجنسية وارتياد البارات حيث النساء اللواتي يتاجرن بأجسادهنّ قد ألحق الضرر بهويته الأخلاقية أيضاً. فسرقة «سطول الدهان» التي كانت توضع بحوزته أثناء عمله في دهن الجدران والأبواب، هي سقوط أخلاقي سببه الرغبة الجنسية.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هوية مصطفى النفسية ظلّت فاعلةً تلاحقه معاناتها بعد مرحلة التخلّص من مركّب النقص، ومن استيعاب الرغبة الجنسية، ذلك أنه بعد خروجه من السجن القضائي، ظلّ سجين المنزل يعاقب نفسه بسبب ما ارتكبه سواء أتعلّق ذلك بشهادة الزور أم تعلّق بغير ذلك.

ومهما يكن من أمر، لم يبقَ مصطفى أسير سجنه. أتاحت له الحرب الأهلية التي استعرت في لبنان عام 1975، أن يصبح بطلاً عندما وضع صدره في مواجهة أسلحة المتعصّبين طائفيّاً دفاعاً عن عائلة مسيحية أراد لها أولئك المتعصبون القتل والتشريد. يبقى أنّ «جامع أعقاب السجائر» رواية غير عادية قادرة على شدّ القارئ إلى عوالمها، فلا تفلته حتى يستكمل قراءتها برغبة جامحة.

مجموعة شعرية

دارين حوماني تفتح نافذةً على الألم

تغريد عبد العال

من مونتريال، تكتب دارين حوماني عن بيروت، لكنها تكتب عن ذاتها هنا وهناك، فتصبح القصيدة أكثر من مرآة لما يحدث لها، كأنها في ذلك المكان الآخر، تحاول أن تقول إنّها ابتعدت لتجد بيروت أكثر، أو تجد ذاتها أكثر، فتقول في أول قصيدة في مجموعتها الشعرية التي تحمل عنوان «عزيزتي بيروت، هنا مونتريال» (دار العائدون للنشر والتوزيع- عمّان): بدأت برؤية أشياء لم أرَها من قبل/ العلاقة بين الموت والولادة من جديد». هكذا ترتّب الولادة الجديدة للشاعرة مرادفات أخرى، ويبيّن لها قاموسها أن العلاقة مع المكان الجديد، هي تلك العلاقة مع اللغة التي تختبر داخلها كل حزنها وألمها، فتسأل: «ماذا لو جئت إلى هذا العالم من دون أن أشعر بالخسارة؟». وهنا طبعاً تجد مكاناً يتسع لتلك الأسئلة وهي تعرفها بدون إجابات، وكأن الشعر مكان آخر دائم يحتضن كل تلك الأسئلة.

في تلك السلاسة الجميلة بين جملها الشعرية، نقرأ تلك الخلاصات التي تصل إليها حوماني، ونطالع ذلك الصمت التام الذي تقول عنه في قصيدة تسميها «الحياة» إنّه عمل لا يمكن تحمله. لكنها تذكّر نفسها: «ينبغي أن أعثر عليه داخلي». ربما تصبح اللغة هنا هي صمت دارين الذي تحاول أن تحرره من داخلها. فكل جملة نشعر أنها ثمرة ما تبحث عنه في الداخل. وقد قد يكون هو الصمت الذي لا يمكنها تحمله.

وهنا أيضاً تكتشف ما تسميه «القطيعة»، في قصيدة تحمل الاسم نفسه. تستحضر هنا بينيلوب وتذكّر نفسها بأنه: «لمواجهة الغرفة المقفلة/ يجب تجنب الذكريات». هكذا تواصل الشاعرة وضع يدها على ما يؤلمها لتذكير نفسها بأسباب الألم والبحث عن معنى وجودها، لكنها لا تغرقنا في تلك الجمل المهمة عن وجودها، فتنزاح أحياناً إلى اكتشافات أخرى أكثر عذوبة وخفّة فتقول: «كي أكتب/ أريد أن أقرأك أولاً».

تتواتر جمل الشاعرة بين خلاصة التجربة وبين الأسئلة التي لم تجد إجاباتها، فيبدو الشعر كأنه ذلك الفضاء المعلّق بين الأسئلة والإجابات، أو ربما تلك المساحة الحية بين ما تدركه وما تريد اكتشافه، فتقف في تلك المسافة وهي تعرف جيداً أنّ الطريق طويلة لكنها جديرة بالتجربة والعيش. هكذا تبدو الكتابة بالنسبة إلى الشاعرة هي المكان الآخر الذي تستدعيه من مكانها الجديد في مونتريال، لتستمع للتجربة ولكلماتها ولأشيائها. ربما تبدو بيروت أقرب من المكان الآخر، فتكتب لها رسالة وتقول: «أعرف تماماً أنه عليّ أن أعبر بيروت وأمضي بعيداً، كل شيء يدفعني خارجاً لأقتفي وطناً آخر». وهنا تشعر أن هذه المسافة عن بيروت ضرورية للاقتراب من نفسها أكثر، وسيساعدها الشعر في المهمة تلك. وفي لحظة الاقتراب، تبدو نافذتها تطل على ما هو في الداخل من مشاعر وأفكار ولغة مختبئة، وأيضاً على ذلك الحزن العميق الذي تقول له في قصيدة «نافذة مطلة على حزن عميق»: أكتشف أن الذي بداخلي تلامذة فاشلون/ وقعوا لتوّهم في مرآب مخيف». وتتابع في القصيدة نفسها: «كتابي الخامس سمّيته «العبور بلا ضوء»/ كنت أريد أن أسميه النافذة الخامسة/ لأن نافذتي الخامسة هي السماء».

هكذا يفتح الشعر نوافذ حوماني على المجهول، وعلى الفضاء الذي تفتقده ليجعلها تحاور نفسها لتجد ذلك المكان الأبعد من مكانها، وتطل على الأجمل والأقرب اليها، فهي هناك أقرب إلى هنا، وربما تأتي قصائدها لتقول لها بأنّ مرآتها هي دائماً في مكان آخر. في قصائد أخرى، يحضر الحب، وهو الآخر نافذة مفتوحة على رؤى كثيرة فتقول: «أريد أن أعيش معك/ غير مبالين بالحياة»، فتحمل تلك الأمنية معها كأنّها خشبة خلاص في عالم تود أن يفهمها. وهي تحاول أن ترتب العالم في داخلها في حفلة ضاجّة بالألم، فتقول في قصيدة «ترتيب العالم في داخلي»: «ترتيب العالم في داخلي/ تلزمه وحدة عميقة/ وقدرة كبيرة على الكره وعلى التخلي». تأتي قصيدة دارين كأنها ذلك التخلي الذي تقرّره وحدتها من أجل ترتيب العالم داخلها، وهي تحاول بناءه من جديد. هنا تبدو الكتابة أكثر من مجرد مرآة تعكس ما يحدث بل هي اصطياد لتلك الأسئلة الهامة التي تدور داخلها ومحاولة تحريك تلك البئر حيث تختبئ المشاعر.

قصائد مفعمة بالحميمية وقريبة من القارئ

تلك المشاعر التي تنقلها بلغة بعيدة عن المجاز وقريبة من قارئ يحاول هو أيضاً أن يقرأ ألمه الخاص، فتصبح الكتابة الشعرية محاولة للاقتراب من ذلك السري والخاص والحميمي، فتسأل: «هل تخاف الحروف أن تسأل عن نفسها؟» لكنها تتأكد أنّ «الحياة لا تحتاج إلى آلة تصوير».

لا يمكن الرؤية من دون الابتعاد، هكذا تقول قصائد دارين حوماني، وهي التي تتأمل من مكانها الجديد معنى السعادة، لتكتشف أنها مجرد مشهد لحبيبين عجوزين. تقول في آخر قصيدة من مجموعتها الشعرية: «من أبعد مسافة أرى حياتي/ يصعب العثور على خلاصها». فهي تجد نفسها في الداخل أكثر كما تقول في قصيدة لها بعنوان «في الداخل»: «كلما تكاثرت السنون/ أجد نفسي في الداخل أكثر».

من تلك الرؤية تأتي القصائد مفعمة بالحميمية وقريبة من القارئ، وربما يكون الشعر هو محاولة للتقرب من الذات وفهمها ورسم الأسئلة التي تشوشها الحياة اليومية وتخفيها عن أعيننا. «عزيزتي بيروت، هنا مونتريال» تحاول أن تسرد تلك القصائد التي مرّت في التجربة التي تفصل المدينتين عن ذات الشاعرة. تنهي المجموعة بهاتين الجملتين: «الصلوات ثقوب جميلة/ الانتظار أكثر ألماً».

أوراق

الذبيح المُؤابي

كارافاجيو ـ «التضحية بإسحق» (زيت على كانفاس ـ 104 × 135 سنتم ـ حوالي عام 1603)

زكريا محمد *

لدينا طرازان من الذبحاء الدينيين في منطقتنا: الذبيح البكر، فاتح الرحم، وذبيح الولد الأصغر والأحب. ممثل الطراز الأول إسماعيل. ونعثر عليه في التقليد الإسلامي، لكنّ التقليد التوراتي طمس معالمه. أما الطراز الثاني، فلدينا منه الذبيح إسحق في فلسطين، والذبيح عبدالله في مكة في الجزيرة العربية. الأول معروف في العالم كله، والثاني معروف عند العرب والمسلمين أساساً.

وذبح هذين الاثنين ذبحاً رمزياً على علاقة بالآبار والماء السفلي. ذبح إسحق على علاقة بـ «بئر سبع»، رغم أن محرري التوراة المتتابعين حاولوا نفي علاقة إسحق بـ «بئر سبع»، بينما علاقة الذبيح عبدالله بـ «بئر زمزم» واضحة تماماً. فقد ذبح عبد المطلب ابنه من أجل ماء زمزم وسقاية الحجيج: «إن سقيت الحجيج ذبحت لك بعض ولدي». وقد عرض لهذين الذبيحين بتوسع في كتابي «عندما سحقت حية موسى: نشوء اليهودية في فلسطين في العصر الفارسي».

غير أنّ لدينا ذبيحاً ثالثاً مشابهاً في الضفة الشرقية لنهر الأردن، وهو ابن الملك المُؤابي مِيْشَع. لكن رواية التوراة التي حوّلت قصته إلى قصة سياسية، ضلّلتنا عن هذا الذبيح. وحسب هذه الرواية، فقد كان مِيْشَع ملك مُؤاب خاضعاً لملك إسرائيل، ويؤدّي له جزية من مئة ألف خروف، ومئة ألف كبش، بصوفها، سنوياً. لكنْ عند مُوت آخاب ملك إسرائيل، عصى ملك مؤاب ميشع على ملك إسرائيل. فجرى شنّ هجوم مُنسّق من قِبَل إسرائيل ويهودا على مملكته، وكاد مِيْشَع أن يخسر المعركة، لولا أنه أقدم في اللحظة الأخيرة على التضحية بابنه على الأسوار، ما أدّى إلى انسحاب المهاجمين: «وخرج الملك يَهُوْرَام في ذلك اليوم من السامرة، وعدّ كل إسرائيل. وذهب، وأرسل إلى يَهُوْشَافَاط ملك يهوذا يقول: قد عصى عليّ ملك مُؤاب. فهل تذهب معي إلى مُؤاب للحرب؟ فقال: أصعدُ. مثلي مثلُكَ. شعبي كشعبكَ، وخيلي كخيلكَ. فقال: من أيّ طريق نصعد؟ فقال: من طريق برّيّة أَدُوْم. فذهب ملك إسرائيل وملك يهوذا وملك أَدُوْم، وداروا مسيرة سبعة أيام. ولم يكن ماء للجيش والبهائم التي تبعتْهم. فقال ملك إسرائيل: آه، على أن الرب قد دعا هؤلاء الثلاثة الملوك؛ ليدفعهم إلى يد مُؤاب. فقال يَهُوْشَافَاط: أليس - هنا - نبي للرب، فنسأل الرب به؟ فأجاب واحد من عبيد ملك إسرائيل، وقال: هنا أَلِيشَع بن شَافَاط الذي كان يصبّ ماء على يدي إيلِيَّا. فقال يَهُوْشَافَاط: عنده كلام الرب. فنزل إليه ملك إسرائيل ويَهُوْشَافَاط وملك أَدُوْم. فقال أَلِيشَع لملك إسرائيل: ما لي ولكَ! اذهب إلى أنبياء أبيكَ وإلى أنبياء أمّكَ. فقال له ملك إسرائيل: كلا. لأن الرب قد دعا هؤلاء الثلاثة الملوك؛ ليدفعهم إلى يد مُؤاب. فقال أَلِيشَع: حيّ هو ربّ الجنود الذي أنا واقف أمامه، إنه لولا أنّي رافع وجه يَهُوْشَافَاط ملك يهوذا، لما كنتُ أنظر إليكَ، ولا أراكَ. والآن فأتوني بعَوّاد. ولمّا ضرب العَوّاد بالعُود، كانت عليه يد الرب، فقال: هكذا قال الرب: اجعلوا هذا الوادي جِبَاباً جِبَاباً. لأنه هكذا قال الرب: لا ترون ريحاً، ولا ترون مطراً، وهذا الوادي يمتلئ ماء، فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم. وذلك يسير في عيني الرب، فيدفع مُؤاب إلى أيديكم... وفي الصباح عند إصعاد التقدمة، إذا مياه آتية عن طريق أَدُوْم، فامتلأت الأرض ماء. ولمّا سمع كل المُؤابيين أنّ الملوك قد صعدوا لمحاربتهم جمعوا كل متقلّدي السلاح فما فوق، ووقفوا على التُّخُم. وبكّروا صباحاً والشمس أشرقت على المياه، ورأى المُؤابيون مقابلهم المياه حمراء كالدم، فقالوا: هذا دم! قد تحارب الملوك، وضرب بعضهم بعضاً، والآن فإلى النهب، يا مُؤاب. وأتوا إلى محلّة إسرائيل، فقام إسرائيل، وضربوا المُؤابيين، فهربوا من أمامهم، فدخلوها، وهم يضربون المُؤابيين. وهدموا المُدُن، وكان كل واحد يُلقي حجره في كل حقلة جيّدة حتى ملأوها، وطمّوا جميع عيون الماء، وقطعوا كل شجرة طيّبة... فلما رأى ملك مُؤاب أن الحرب قد اشتدّت عليه، أخذ معه سبعمئة رجل مُستلّي السيوف؛ لكي يشقّوا إلى ملك أَدُوْم. فلم يقدروا. فأخذ ابنه البكر الذي كان مَلَكَ عوضاً عنه، وأصعده مُحْرَقَةً على السور. فكان غيظ عظيم على إسرائيل. فانصرفوا عنه، ورجعوا إلى أرضهم» (الكتاب المقدس، الملوك الثاني 3: 4-27).

> ذبح إسحق على علاقة بـ«بئر سبع»، رغم أن محرّري التوراة المتتابعين حاولوا نفي ذلك

وكما هو واضح، فقصّة ملك مِيْشَع - هنا - تشبه قصّة الذُّبحاء من حيث تعلّقها بالماء. فالنص مائيّ، من أوّله إلى آخره:

- لم يكن ماء للجيش والبهائم التي تبعتْهم.
- اجعلوا هذا الوادي جِبَاباً جِبَاباً [أي آباراً].
- لا ترون ريحاً، ولا ترون مطراً، وهذا الوادي يمتلئ ماء، فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم.
- وفي الصباح عند إصعاد التقدمة، إذا مياه آتية عن طريق أَدُوْم، فامتلأت الأرض ماء.
- أكثر من ذلك، فإن هناك طمّاً للآبار، ودَفْناً لها، كما هو الحال في قصّة إسحق وقصّة عبدالله: «تطمّون جميع عيون الماء». فَطَمُّ الآبار ثيمة مركزية في قصّة الذُّبحاء.

فوق ذلك، فإن المؤابيين رأوا أن الماء يشبه الدم: «ورأى المؤابيون مقابلهم المياه حمراء كالدم، فقالوا: هذا دم». وبالفعل، فإن الماء في قصص الذبحاء يدفع ثمنه دماً. لذا يختلط فيها الماء بالدم اختلاطاً تاماً.

كل شيء يشير- إذاً- إلى أن الماء هو البطل الأساسي للقصّة. وكما هو جَليّ، فإن المياه التي تدفّقت هي المياه الجوفية، وليست المياه العلوية، مياه المطر. ذلك أن أَلِيشَع قال لهم: «لا ترون ريحاً، ولا ترون مطراً. وهذا الوادي يمتلئ ماء». وماء تأتي من دون ريح ولا مطر هو ماء جوفي قادم من أعماق الأرض. عليه، فقد جرى حفر للحصول على المياه السفلية، وجمعت في الآبار، أي الجباب: «اجعلوا هذا الوادي جِبَاباً جِبَاباً». لكنّ قَلْباً ما قد حصل للقصّة في اعتقادنا. فمَن يُفترَض أن يجمع الماء في جباب، هو مِيْشَع ملك مُؤاب، إذا استندنا إلى قصة الذبيحين عبدالله وإسحق. ذلك أن المُضحّي بابنه هو مَن يحتاج إلى الماء، وهو مَن يحفر الآبار، ومَن يدفع ثمن مائها لمالك الماء السفلي. إبراهيم فعل ذلك. وعبد المطّلب أيضاً. والملك مِيْشَع يضحّي بابنه، كما ضحّيا بابنيهما، من أجل التمتّع بالماء والآبار. لكنْ؛ لأن أيدي المحرّرين عبثت بالسفر بشدّة، فقد بدا كأن إسرائيل ويهودا هما مَن حفر الآبار. والحقّ أن الإله يهودا- يهوه هو ممثّل الماء السفلي، أي صاحبه. بذا فهو ليس بحاجة إلى حفر الآبار.

وهكذا ذبح ميشع ملك مؤاب كما فعل عبد المطّلب العربي مع ابنه عبدالله، وكما فعل إبراهيم مع إسحق. لقد دفع ميشع الثمن، فتدفقت المياه في الوادي. ولو لم يكن الأمر ذلك، فلماذا ينسحب جنود يهودا لأن عدوّهم ذبح ابنه؟ لقد انسحبوا لأن ثمن الماء قد دُفع عبر التضحية بالابن. والذَّبْح هنا رمزي، بالطبع. ذلك أن الذبيح يُستبدل كبشاً، في نهاية الأمر. لكن قصّة ذبح مِيْشَع لابنه مختصرة - إضافة إلى أنها مُحرّفة - ولا تتطرّق إلى موضوع الكبش.

وقد نأينا هنا عن الاستشهاد بمسلّة الملك مِيْشَع، التي يُفترَض أنها تتحدّث عن الموضوع نفسه؛ لأن كل الدلائل تشير - من وجهة نظري - إلى أنها مزوّرة.

* شاعر وباحث فلسطيني

Samedi 28 Janvier 2023 n°52
السبت 28 كانون الثاني 2023 العدد 52

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

السيد علي فضل الله
التشريعات نزلت بشرط الإنسانية [6]

الانقسام يعطّل العدالة
[3-2]

تحت القوس

الانقسام يعطّل العدالة

عمر نشابة

الخروج من المأزق قد يستدعي أولاً التوقف عن التجريح وإطلاق الكلام العالي النبرة والتشهير، أياً كان مطلقه وأياً كان المستهدف منه. ولا شك أن غضب ذوي ضحايا انفجار 4 آب 2020 وغضب المودعين في المصارف من تعطل وتباطؤ إجراءات التحقيق والمحاكمة مبرّر، غير أن التعبير عن الغضب لا يكفي للخروج من المأزق. وقد تبيّن خلال الأسبوع الفائت أن التحركات في الشارع كانت خجولة وأن أعداد المشاركين في الاعتصامات والتظاهرات الاحتجاجية لم تكن بحجم التوقعات. وبالتالي قد يكون تأثير ضغط الشارع على مجريات الأمور محدوداً.

الخروج من المأزق يستدعي تخفيف حدة التوتر من قِبل مناصري المحقق العدلي المكفوفة يده من جهة، ومؤيدي المدعي العام المتنحي عن النظر في ملف انفجار 4 آب من جهة أخرى. ولا بد أن يسهر مجلس القضاء الأعلى ورئيسه على "حسن سير القضاء وعلى كرامته واستقلاله وحسن سير العمل في المحاكم ويتخذ القرارات اللازمة بهذا الشأن" (قانون القضاء العدلي، المادة 4).

لكن وبكل أسف، الأمور ليست بهذه البساطة، لأن موقف أعضاء مجلس القضاء الأعلى بشأن المحقق العدلي القاضي طارق البيطار ليس موحداً. وقد حاول بعض أعضاء المجلس البحث عن مخارج للأزمة المتعلقة بالانقسام السائد في لبنان بشأن شخص المحقق العدلي في قضية انفجار 4 آب، لكنهم جوبهوا بحجج قانونية تبرّر التمسّك به حتى لو أدى ذلك إلى تفاقم الانقسام ورفع مستوى التوتر. وبدا التمسّك بالقاضي البيطار وتقديم الحجج القانونية والمطالعات الفقهية التي تدافع عن حسمه بأنه لا يحق لأي سلطة أن تردّه، أولى من التحقيق في انفجار 4 آب وأهمّ من الحفاظ على تماسك الجسم القضائي.

الخروج من المأزق يستدعي حكمة رئيس مجلس القضاء الأعلى القاضي سهيل عبود، ونضوجه الوطني وحرصه على تحقيق العدالة، وليس مجرّد المطالبة بها أو رفعها شعاراً. فهل يجوز أن يردّ المحقق العدلي على قرارات المدعي العام لدى محكمة التمييز من خلال تلفزيون "الجزيرة" كما حصل أول من أمس؟ هل يجوز أن يوحي المحقق العدلي أنه مع طرف سياسي وضد طرف سياسي آخر؟ وهل يصدّق أحد أن تزامن قرار القاضي البيطار العودة إلى التحقيق وتخطي كل الإجراءات القانونية التي تكف يده لحين البت في طلبات ردّه، بعد اجتماعاته المطوّلة مع وفد أجنبي هي مجرّد صدفة؟ كيف ذلك بينما كان قد التزم الصمت لأشهر طويلة رضخ خلالها للإجراءات القانونية المعتمدة؟ فما الذي جعله ينتفض فجأة ساعات قليلة بعد اجتماعه بالوفد القضائي الفرنسي؟

هل يجوز أن ترفع مجموعات من اللبنانيين صور قاض في المظاهرات وتستخدمها تهديداً ووعيداً بوجه مجموعات أخرى من اللبنانيين؟ وهل يجوز التشهير به وبالمدعي العام وبغيرهما من القضاة كما يحصل اليوم في الشارع وفي وسائل الاعلام؟ ألا يعتقد القاضي عبود أن التوافق في مجلس القضاء الأعلى وفي الهيئة العامة لمحكمة التمييز (التي يترأسها) يساهم في الحفاظ على القضاء ويساعد على إعادة مسار التحقيق في جريمة 4 آب إلى سياقه الصحيح؟

وفي ظل الأجواء المتوترة التي تتحكم بالقضاء اليوم هل يتوهّم أحد في قصر العدل أن القرار الاتهامي الذي قد يصدره القاضي بيطار سيحال إلى المجلس العدلي من دون أي مشكلة، أم أنه سيتحول إلى مادة لتسعير الخلافات والصراعات بين الناس واستكمال تخريب ما تبقى من مؤسسات الدولة؟

الخروج من المأزق يعني التركيز على الوصول فعلياً إلى تحقيق العدالة في جريمة انفجار 4 آب ومنع الإفلات من العقاب. هذا تحد أمام الجميع ولا يفترض أن يستخدم كشعار يرفعه بعض اللبنانيين بوجه البعض الآخر من اللبنانيين لأن ذلك يفقده قيمته ومكانته الحقيقية.

> المسلسل الصدامي الذي شاهدنا بعض فصوله خلال الأيام الأخيرة والشرخ بين الناس يشكك البيئة الحاضنة للإفلات من العقاب

العدالة ليست ملكاً لأحد بل هي حق لكل الناس والأساس لتنظيم المجتمع. كل المجتمع. أما المسلسل الصدامي الذي شاهدنا بعض فصوله خلال الأيام الأخيرة والشرخ الذي يتوسع بين الناس فيشكل عملياً البيئة الحاضنة للإفلات من العقاب. لماذا؟ لأن النظام اللبناني هو بكل بساطة نظام توافقي تتحكم به موازين القوى، ولا مجال فيه لاستقلالية السلطة القضائية. فهل يستغل القضاة الهامش الضيّق المتاح لهم لإثبات استقلاليتهم ونزاهتهم أم يلتحقون بحلبة الصراعات بين القوى السياسية والطائفية في لبنان؟

في الواجهة

جولة على بعض القضاة والمحامين... توتر وتشاؤم في قصور العدل

فاطمة خشاب درويش

عاش قضاة لبنان كما كل اللبنانيين 48 ساعة الماضية حالة من الصدمة حيال المستجدات على الساحة القضائية، لا سيّما مع الكباش المحتدم بين مدعي عام التمييز القاضي غسان عويدات والمحقق العدلي طارق البيطار. سادت الدهشة على وجوه القضاة وهم يتابعون ما جرى أمام قصر العدل في بيروت يوم الخميس. هذه المشهدية جعلتهم يستشعرون الخوف الحقيقي على القضاء الذي بات الضحية الأكبر اليوم بسبب التجاذب السياسي والتدخل في عمله على أكثر من صعيد، فجاءت مشهدية العدلية.. خدمة للنظام لا للعدالة (راجع "الأخبار"، عدد الأمس).

الاجتماع المرتقب لمجلس القضاء الأعلى "لن يكون قريباً وربما لن يعقد" بحسب أوساط قصر العدل، "لأن حال المجلس كما حال البلد منقسم على ذاته"، وقد ساعدت التظاهرات التي سبقت موعد انعقاده على إعطائه عذر شرعي لتبرير تأجيل إنعقاده بحجة "عدم الاجتماع تحت ضغط الشارع".

لدى سؤال بعض القضاة عن رأيهم بما حصل يسود الصمت لبرهة في محاولة لإخفاء توجههم، ويستدرك بعضهم موقعهم كقضاة يحكمهم بالقانون ويعملون تحت سقفه، "لا مانع من الحديث عما يجري ولكن بشرط عدم ذكر الأسماء" قال معظم من خابرناهم من القضاة. هم لا يرغبون بزج أنفسهم في الكباش الحاصل بين عويدات والبيطار ويفضلون النأي بأنفسهم عن معارك "لا يُعرف مداها أو حدودها حتى اليوم".

يظهر القضاة تخوفاً غير مسبوق على العدالة في لبنان، فما جرى بالأمس من دخول المتظاهرين إلى قصر العدل هو بمثابة الخط الأحمر الذي لم يمنع تجاوزه. أما المشهد الذي هزّ القضاة فهو دخول السلطة التشريعية على خط المواجهة، إذ قال أحد القضاة: "عادة تضغط السلطة التنفيذية ومعها السلطة السياسية على القضاء، أما اليوم فدخلت السلطة التشريعية على الخط، وأصبح النواب يتحركون دون أدنى احترام لمكانة القاضي وما يمثل". وأضاف آخر أن "مشهد القاضي إيلي حلو يختصر وضع القضاء اليوم". وقف النائب وضاح الصادق صارخاً في وجهه رغم أنه كان يحاول تهدئة الأوضاع، هذا الاعتداء يشكل صفعة جديدة في وجه القضاء ووجهاً جديداً من أشكال تدخل السلطة التشريعية في عمل السلطة القضائية".

"كان بالإمكان تفادي مشهد انهيار العدلية من خلال تدخل تشريعي لترميم بعض النصوص القانونية التي تحتمل تفسيرات وتأويلات

العدلية من خلال تدخل تشريعي لترميم بعض النصوص القانونية التي تحتمل تفسيرات وتأويلات، مثل طلبات الرد التي تتحول من حق دفاع مقدس إلى تعسف في استعمال الحق وتؤدي إلى تعطيل التحقيق" قال أحد قضاة محكمة الجنايات. وأضاف زميله القاضي المنفرد الجزائي أن "كل المؤشرات كانت تدلل إلى أننا ذاهبون إلى مشكل حقيقي في البلد، وهذا ما حصل، المشكلة أن القضاء بات الضحية اليوم، وهيبة القضاء باتت على المحك، هناك تخوّف حقيقي لدينا كقضاة على وجود السلطة القضائية وأن لا تتحول إلى أداة تنفيذية لما يطلبه الوزراء والنواب في لبنان فضلاً عن تنفيذ رغبات وإرادة عدد من الدول الخارجية".

يكرر عدد من القضاة أن الكرة اليوم باتت في ملعب مجلس القضاء الأعلى الذي "كان يستطيع التدخل في مواضع كثيرة على مدى سنتين منذ انفجار المرفأ، وكان قادراً على وضع معايير حاسمة وسريعة وفاعلة للنظر بطلبات الرد لناحية اكتمال الخصومات والتبليغات وغيره". ويضيف بعضهم: "مشكلتنا في لبنان أنه لا يوجد قانون يكرّس استقلالية القضاء بعيداً عن التدخلات السياسية في عمله، لو كان هذا القانون موجوداً لما تجرأ أحد من السياسيين والنواب على التدخل بهذا الشكل بعمل القضاء اللبناني، والمشكلة اليوم أنه يعمل على قانون استقلالية القضاء ولكنه يوجد محاولات لتفريغه من مضمونه، بحيث يقرّ من الناحية الشكلية فقط". وحول سيناريو الحل المرتقب كمخرج للأزمة الحالية ترى إحدى القاضيات أنه " من الصعب تصور المشهد القادم للقضاء بعد ما شاهدناه من اقتحام لقصر العدل وتهجّم على أحد القضاة، ومجلس القضاء الأعلى عاجزٌ عن الاجتماع تحت وطأة خلافاته". ولا بد من "التوقف عن التخاطب الإعلامي من خلال القرارات والمذكرات بين أهل البيت الواحد، فالبلد لم يعد يحتمل مزيداً من تأجيج الوضع، والناس تلتهب من ارتفاع أسعار صرف الدولار التي حلّقت مع ارتفاع وتيرة الخلافات القضائية".

تختصر إحدى القاضيات ما يجري على الساحة القضائية معبرة عن تشاؤمها: "يلي صار هو دمار للعدلية ولا أتخيل أن يكون هناك قيامة للقضاء من بعدها، وإذا ما في قضاء ما في وطن".

(هيثم الموسوي)

انهيار القضاء يعني ضياع البلد

لا يختلف المحامون في مواقفهم عن القضاة حيال ما يجري على الساحة القضائية. منهم من يرى أن ما قام به مدعي عام التمييز يصب في حماية القضاء من "القرارات غير القانونية للقاضي البيطار". وآخرون يجدون في قرارات البيطار "سبيلاً لإحقاق الحق وتحقيق العدالة" في ملف انفجار المرفأ. وبعيداً عن موقف "نقابة المحامين.. نقابة تدعم البيطار ضدّ عويدات.. وتلوّح بالتدويل" (راجع "الأخبار"، عدد الأمس)، يقف المحامون ولو ضمنياً بين مؤيد ومعارض لكل من عويدات والبيطار.

"خوفنا اليوم مش خوف على قضية، الخوف هو على القضاء يلي هو السبيل لإحقاق الحق بين الناس، كيف ممكن يضل في بلد إذا انهار القضاء"، يقول محام وهو يتلمّس مخاوف حقيقية تطال القضاء، ويضيف: "كل الناس والعالم أجمع يتابع اليوم ما يجري، صعب نلاقي الجهة التي من المفترض أن تبت وتحكم وهي بحاجة لمن يفصل بقراراتها. الموضوع أبعد من كباش سياسي بين القضاة عويدات والبيطار، هي أشبه بمحاولة حقيقية لطعن الجسم القضائي وتشويه صورته". يتشارك محامي آخر مع زميله المخاوف ولكنه يعتبر أن المشكلة الحقيقية ليس في القضاة بل بالأجهزة القضائية برمتها التي تعمل "بتوجهات السلطة السياسية، التي لم تعد تخجل بالحديث عن تحكمها بالسلطة القضائية، والأبشع يلي شفناه من تهجم للنواب على القضاة، هيدا الشي عيب كتير ومش مقبول".

التحقيق الدولي هو الحل؟

تؤكد أوساط قضائية أن ظروف البلد برمتها لا تساعد في اجتراح حلول في هذه اللحظة بالذات. فلا رئيس للجمهورية يسهر على تطبيق الدستور، والحكومة الحالية هي حكومة تصريف أعمال وهي مكبّلة الصلاحيات وتسعى إلى تدوير الزوايا، والسلطة القضائية تتعرض لأشرس حملة في تاريخها من خلال توهين القضاء وتكبيل صلاحياته منعاً لتحقيق العدالة. أما السيناريو الأسوأ الذي بات أكثر واقعية اليوم يؤكد أن أول ضحايا الاشتباك الحاصل هو القضاء اللبناني برمته. ولا يوجد إمكانية للسير بملف التحقيقات في انفجار الملف بسبب التشابك الحاصل بين عويدات وبيطار، وفكرة الاستعانة بتحقيق دولي التي كانت مطروحة سابقاً لم تعد قابلة للتطبيق بفعل عوامل متعددة ومرور أكثر من سنتين على وقوع الانفجار، وعدم رغبة الدول الغربية في تكرار تجربة لجنة التحقيق الدولية والمحكمة الخاصة بلبنان بكلفتها الباهظة وخلاصة عملها التي أقل ما يقال فيها أنها لم تكن على قدر توقعات مموليها.

مرافعة

القاضي العدلي ليس بمنأى عن الردّ

صادق علوية

حدّد قانونا أصول المحاكمات المدنية وأصول المحاكمات الجزائية قواعد خاصة لردّ القضاة وتنحيتهم. وسبق أن نشرت القوس مقالاً حول «تنحية القضاة والارتياب المشروع» (عدد 15 كانون الثاني 2022).

يبيّن بوضوح أن نصوص القانون اللبناني تضمّنت أصولاً في هذا الشأن، وأن القاضي ليس إدارة أو مؤسسة خاصة تتصرف وفق ما تقتضيه أرباحها، بل وفق معايير العدالة. إذ اعتبرت محكمة التمييز اللبنانية أن «ما يخرج القاضي عن حياده هو تلك التصرفات أو المواقف التي تصدر عنه، والتي تشكّل من حيث طبيعتها وأهميتها وخطورتها ما يوحي بأنه اتخذ موقفاً منحازاً تجاه أحد المتقاضين، مجرّداً نفسه من صفة الحكم ومن النزاهة والعدالة الملازمتين لقضائه». ولا يمكن التسليم جدلاً بأن أي قاضٍ يملك العدالة، إلا إذا كان ملتزماً بأصول المحاكمات المدنية والجزائية.

ما هو القانون الذي يستند إليه أي قاضي تحقيق أو مدّع عام للقول بعدم جواز تنحيته، فيما تنصّ المادة 52 من قانون أصول المحاكمات الجزائية، بوضوح، على أنه تطبّق على قضاة التحقيق أحكام طلب التنحي والردّ والقواعد الواردة في هذا الشأن في قانون أصول المحاكمات المدنية، كما تنصّ المادة 128 على أصول تنحي قضاة النيابة العامة وتطبق عليهم أحكام التنحي والردّ، وتنظر في طلب رد عضو النيابة العامة المحكمة التي يكون تابعاً لها حسب التنظيم القضائي.

بل أن المادة 129 تناولت حالة تعذّر تأليف هيئة المحكمة، بحيث إذا أدى طلب الرد أو طلبات الرد المتعددة إلى تعذر تأليف هيئة المحكمة، طُبّقت أحكام نقل الدعوى.

كما تنصّ المادة 363 من قانون أصول المحاكمات الجزائية على أن المحقق العدلي يطبّق الأصول المتبعة أمام قاضي التحقيق العادي. ولا يُقصد بذلك الإجراءات التي ترعى أعمال التحقيق وإصدار القرارات فقط، بل كل الأحكام التي ترعى عمل قاضي التحقيق العادي، ومن ذلك إمكانية طلب ردّه أو تنحيه، وطلب نقل الدعوى من تحت يده للارتياب المشروع.

فالقانون أوجد لكل معضلة حلاً، ولكن لا يمكن لأي قانون أن يوجد حلاً لأي رغبة باستغلال القضاء وتسييسه. فالقوانين تُوضع لكي تطبق ولتحقّق العدالة، لا لتلبية مصالح شخصية أو فئوية أو انية.

> لا يمكن لأي قانون ان يوجد حلاً لأي رغبة باستغلال القضاء وتسييسه

والقول إن القاضي العدلي بمنأى عن الردّ والتنحي يماثل القول برفض مواطن الخضوع للقضاء. كما أن القضاء اللبناني يزخر باجتهادات تتناول تنحّي القضاة وردّهم، ومنها اعتبار هيئة محكمة التمييز الجزائية في القرار رقم 189 (2007/9/6) أن تطبيق مبدأ نقل الدعوى للارتياب المشروع، هو من المبادئ العامة في أصول المحاكمات المدنية والجزائية التي تطبّق على كل المراجع القضائية عادية كانت أو استثنائية. واستند القرار إلى أن المادة 340 من قانون اصول المحاكمات الجزائية أكدت هذا المبدأ. إذ جاءت مطلقة، ولم تفرّق بالنسبة لنقل الدعوى بين مرجع قضائي عادي أو استثنائي. والنص المطلق يطبق على إطلاقه، إذ إنّ الحد الوحيد لهذه القاعدة يتوافر في حالة تعذر وجود مرجع قضائي أو تعذر إمكانية تأليفه للفصل في الدعوى، فيصطدم نقل الدعوى عندها بمبدأ أساسي آخر هو الحيلولة دون الاستنكاف عن إحقاق الحق مما يرتدّ على حسن سير العدالة. في حين أن طلب نقل الدعوى من محقق عدلي إلى محقق عدلي آخر يبقى جائزاً طالما أن تعيين المحقق العدلي البديل ممكن وفقاً للآلية المنصوص عليها في المادة 360 من قانون أصول المحاكمات الجزائية القضائية، عادية كانت أو استثنائية.

(الأرشيف ـ مروان طحطح)

خروج القاضي عن طوره

من الأحكام ما يتناول «خروج القاضي عن طوره». فقد نصّ القرار رقم 16 الصادر في 2009/2/12 على «وجوب تنحي القاضي تلقائياً عن نظر القضية متى بدا من تصرفه عداوة تثير الريبة في قدرته على الحكم فيها بغير ميل وذلك عند الخروج عن طوره والانسياق إلى جدال عنيف مع بعض المتقاضين».

في العام 1985 تم تعديل بعض أحكام قانون القضاء العدلي ولا سيّما المادة 11 منه ليلتزم أعضاء المجلس بالمحافظة على السرية ويعتبر إفشاء سر المداولة لدى المجلس بمثابة إفشاء لسر المذاكرة لدى المحاكم. وذلك بهدف سمو ورفعة هذا المجلس وليكون مثالاً يُحتذى به بالالتزام بالقانون. اليوم على مجلس القضاء الأعلى المنصوص عنه في قانون القضاء العدلي أن يتولى مهمة جمع شتات القضاء اللبناني والمبادرة إلى تصويب الأمور وصون ما تبقى من استقلالية هذا القضاء، لا سيّما أن المادة الرابعة من قانون القضاء العدلي تنصّ على أن مجلس القضاء الأعلى يسهر على حسن سير القضاء وعلى كرامته واستقلاله وحسن سير العمل في المحاكم ويتخذ القرارات اللازمة بهذا الشأن ، لذلك يأمل اللبنانيون من مجلس القضاء الأعلى أن يسهر، فهلّا سهر؟ حبذا لو يسهر!

متابعة

أطفال يدفعون ثمن انفصال والديهم
الطلاق خراب البيوت

نائلة نحلة

الأصل في الزواج بناء شراكة، قوامها المودّة والرحمة والاحترام المتبادل، بهدف تكوين أسرة ناجحة ومتماسكة. لكن بسبب عدم اعتماد الأسس الصحيحة في الاختيار، تتخلخل الأسر وتصعب العشرة عند مواجهة أصغر المشاكل والضغوطات. فنجد أسراً صامدة وناجحة بأدنى المقوّمات، وأخرى تسقط في أبسط مطبّ، فيكون أبغض الحلال هو الحل. قد يكون الطلاق نتيجة حتمية لسوء الاختيار، وقد يكون نتيجة لتراكم مشاكل يصعب حلها، لكن النتيجة واحدة، وهي وصول الشريكين إلى نقطة يستحيل معها الاستمرار. من يتأمل في قضايا الطلاق يلاحظ أن نسبه وأسبابه اختلفت في السنوات الأخيرة، إذ لم يعد الزوجان على استعداد لتحمل الصعاب والصبر كما الأجيال السابقة. وإذا كان للأزمة الاقتصادية الدور الأعظم في احتدام الخلافات بين الأزواج وارتفاع نسبة الطلاق، إلا أنّ لكل حالة من الحالات أسبابها الخاصة؛ منها السلوكيات غير المقبولة من قبل أحد الطرفين، أو الاضطرابات الشخصية كالشك والغيرة، أو عدم الانسجام مع عائلة أحد الطرفين، ما يشكل ضغطاً على الطرف الآخر.

أصبح كل من الزوجين يطلب الكمال من شريكه ومن حياته الأسرية، متناسياً نقصه وأن تكوين الأسرة يقوم أساساً على تقاسم المسؤوليات والتضحية، ومتغافلاً عن أن مفهوم نجاح أيّ من الزوجين بعد الزواج، لا يقتصر على نجاحه الشخصي وإنما نجاح المشروع الذي أسّسه مع شريكه. فأيّ تنازل يُقدم من طرف لا يُعدّ خسارة أو فشلاً، وإنما تضحية في سبيل إنجاح المشروع الأسمى وهو العائلة. وأيّ فضّ للشراكة يجب أن يكون بمستوى من الاحترام والوعي تلافياً لخسائر قد تصيب الزوجين والأطفال على الصعيدين النفسي والاجتماعي. ففي أغلب الحالات، يكون قرار الطلاق بمثابة إعلان حرب تُستخدم فيها كلّ الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، ويسقط الجميع -ولا سيّما الأولاد- ضحايا معارك التعنّت والجهل وتجاهل قيم الإحسان والمعروف. يتناسى الطرفان قبل الدخول في هذه الدوامة أن زواجهما كان خياراً بالاتفاق والقبول، وأن انفصالهما يجب أن يكون كذلك. وبالتالي يفترض تعميم فكرة الاتفاق قبل الزواج على كل التفاصيل الحياتية، كتنظيم الطلاق وكل ما ينبثق عنه من خلاف على حضانة الأولاد والنفقة وحق إيقاع الطلاق والمفاعيل المادية.

ضحايا الصراعات الزوجية

سارة متزوجة منذ أكثر من عشر سنوات، عانت فيها عنفاً جسدياً واقتصادياً ومعنوياً مارسه عليها زوجها. حاولت كثيراً ترك المنزل واللجوء إلى أهلها، لكنها كانت تضعف وتعود تحت الضغط العاطفي الذي يمارسه الزوج بمنعها من رؤية طفليها. أمام صعوبة الاستحصال على حريتها بالطلاق، اكتفت بالمطالبة بأبسط حقوقها برؤية طفليها. رغم ذلك، لم تنصفها المحكمة حتى تاريخه، ولا يزال الوالد يستخدم الطفلين أداة لمحاربة والدتهما، وصولاً إلى منعهما من الذهاب إلى المدرسة ليكمل إحكام الطوق على عنق الأم وإلزامها بالعودة طواعية إليه. ورغم تراجع الأداء الدراسي للطفلين وتعرضهما لمشاكل نفسية وصحية كالتبوّل غير الإرادي، يرفض الزوج عرضهما على طبيب أو اختصاصي، ويساوم سارة على حريتها طالباً منها دفع 50000 دولار فدية طلاق. فهل تتمكن من الصبر على فراق ولديها وعلى ما يحل بهما أم ستضعف كما عشرات المرات السابقة بسبب تخاذل المحاكم واستقواء الزوج، فتعود مرغمة إلى «زنزانتها» من جديد؟ وإذا عادت، هل ستتمكن من الهروب والنجاة في المرة المقبلة أم ستكون ضحية ضعفها أمام نرجسية زوجها؟

(ايجه بوليغان ـ المكسيك)

سامية مقيمة في الخارج مع زوجها الذي يحمل الجنسية اللبنانية وجنسية دولة الإقامة. بسبب بعض الخلافات التي يعتبرها الزوج تافهة ومجرد أوهام لا أساس لها، قررت سامية طلب الطلاق. اقترح عليها الزوج السفر إلى لبنان مع ابنتهما لتمضية العطلة علّها ترتاح نفسياً وتتمكن من التفكير بهدوء. استغلت سامية طيبة زوجها وتقديره للأسرة وحاولت تهريب ابنتهما إلى خارج لبنان من دون إعلام الزوج عن مكان إقامتهما. على خلاف السائد، فإن المحكمة الشرعية ساندت هذه المرة الأم ورفضت طلب الأب بمنع سفر الطفلة من لبنان كي لا تفرقها عن والدتها، رغم أن حق الحضانة للوالد المقيم في الخارج. عادت الزوجة إلى بلد الإقامة الأجنبي من دون علم زوجها وأقامت في منطقة حدودية تمهيداً لمحاولة جديدة لتهريب الطفلة بطريقة غير شرعية، معرّضة إياها لمخاطر لا يقوى على تحملها الكبار. ولو لم يتسلح الوالد بجنسية ابنته الأجنبية وانتهاء صلاحية إقامة الأم في الدولة الأجنبية، لما تمكن من الضغط عليها للوصول إلى اتفاق يضمن حق كل منهما بحضانة الطفلة بعد الطلاق.

يختلف تصرف الأزواج في الحالتين. فبين نرجسية الزوج ومرض التعلق الذي تعاني منه الزوجة في الحالة الأولى، وبين جهل الزوجة وأنانيتها واحترام الزوج لقدسية الأسرة وسعيه للانفصال بصورة

> يتناسى الطرفان قبل الدخول في هذه الدوامة أن زواجهما كان خياراً بالاتفاق والقبول، وانفصالهما يجب أن يكون كذلك

متحضّرة في الحالة الثانية، يبقى الثابت الوحيد هو الضحية: الأطفال الذين يُستخدمون عن قصد أو غير قصد كبارود للحرب المشتعلة بين الآباء.

منذ أقل من شهر، انتشرت صور للطفل محمد على مواقع التواصل الاجتماعي، وتظهر فيها كدمات على الرأس، وعينان مكحلتان بالسواد. طفل لم يتعلم المشي لتعينه قدماه الصغيرتان على الهرب من وحش بشري قرر أن يصب غضبه وعقده النفسية على كائن ضعيف. ابن العامين ونصف العام أُدخل إلى المستشفى بعد تدخل القوى الأمنية خمس مرات بسبب تعرضه للضرب من زوجة أبيه. تزوجت والدته في سوريا وكان شرط زوجها عدم اصطحاب الولد. فيما تزوج والده من امرأة قاسية كانت تتعرض للطفل بالضرب بسبب تبوله اللاإرادي الناتج عن الخوف والرعب. والأخطر أن والده لم يحرك ساكناً أمام هذا الوضع، وبعد تدخل إحدى الجمعيات وإثارة قضيته تم تسليم الطفل إلى عمه كإجراء حمائي له وما زال والده متوارياً عن الأنظار.

الحاجة إلى نيابة عامة اسرية

قضية محمد وغيره من ضحايا العنف الناتج من الأسر المفككة تثير عدة إشكاليات تتعلق بكيفية التعامل مع هذه القضايا. فمن غير المسموح عند مجرد الشك بتعرض طفل للعنف، الحديث عن توقيع تعهد. ولولا تدخل العناية الإلهية لكان محمد فارق الحياة لأننا فكرنا بإعطاء فرصة للجاني. ومن غير المسموح عدم الاستعانة باختصاصيين نفسيين واجتماعيين عند أول اشارة تدل على عنف يُمارس على الأطفال. ومن هنا تبرز أهمية استحداث نيابة عامة أسرية متخصصة في قضايا الأسرة وكل ما ينتج عنها من خلافات، من بينها العنف الأسري، يكون من اختصاصها اتخاذ كلّ الإجراءات لحماية أفراد الأسرة من العنف الممارس من قبل أيّ فرد من العائلة.

الطلاق بالإرادة المنفردة

تكفل القوانين الشرعية الحق المطلق للزوج في الطلاق، وله ذلك بالإرادة المنفردة، بينما هو مشروط للمرأة بذكره في العقد عند السُّنة، أو بتوكيل عند الشيعة، بحيث يُعتبر باطلاً اشتراط الزوجة على زوجها اختيار الطلاق بيدها مطلقاً، أو إذا سافر أو إذا لم ينفق، بينما يُعتبر صحيحاً اشتراطها أن تكون وكيلة عن الزوج في طلاق نفسها، أو في حال موافقة الزوج على الخلع بعد التنازل عن حقوقها المالية.

الخلع، وهو الطلاق بفدية من الزوجة الكارهة لزوجها ببذل مهرها أو ما يزيد عنه مقابل الطلاق. أما طلاق المباراة فهو طلاق الزوج الكاره من الزوجة الكارهة ولا يكون المبذول أكثر من المهر. وفي الحالتين يصدر لفظ الطلاق عن الزوج أو من يوكله، أي يشترط موافقة الزوج. وللمرأة الخيار في الطلاق في حالة واحدة وهو ما يسمى بالتفريق المنصوص عنه في المادة 119 وما يليها من قانون حقوق العائلة «فإذا اطلعت المرأة السالمة من العيوب أن زوجها مصاب بعلّة.. لها أن تراجع الحاكم وتطلب الفراق».

يبقى للمرأة الشيعية أمل بالحصول على الطلاق من خلال طلاق الحاكم وهو قرار تحصل عليه من مرجع ديني وتقوم بإثباته لدى المحاكم الجعفرية.

رؤية الطفل في المخفر؟

زينة حصلت على طلاقها بعد معارك دامت أكثر من ثلاث سنوات، وأُجبرت على التنازل عن حضانة ابنتها مقابل فك قيودها وتحريرها من زوج كان يتفنّن في تعذيبها، معتبراً أن له حق تأديب زوجته ومنعها من لقاء «الأجانب» بحجة التزامه الديني. حصلت زينة على حق رؤية ابنتها 48 ساعة في الأسبوع، وبعد رفض الزوج تنفيذ القرار بحجة حماية ابنته من «أخلاق» أمها غير الملتزمة وفق معاييره، لجأت إلى تنفيذه وفقاً للأصول القانونية عن طريق الضابطة العدلية. لم تحتمل زينة دخول ابنتها في كل مرة المخفر وهي لم تتجاوز سبع سنوات، ولم تحتمل أسئلة ابنتها ونظراتها في كل مرة تتسلّمها، ففضّلت العيش تحت رحمة طليقها وتوقيته الذي يراه مناسباً.

ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن رؤية الأطفال في المخفر ليست بناءً على قرار صادر عن المحاكم الشرعية. فوفقاً لنظام أحكام الأسرة الصادر عن المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، لا يجوز في حال من الأحوال أن تكون المشاهدة في مراكز الشرطة ولا في أروقة المحكمة، أو يتكبّد الأطراف مشقة لا تُحتمل. فتدخّل الضابطة العدلية في هذه الحالات هو لتنفيذ قرار قضائي صادر عن دائرة التنفيذ بسبب تخلّف أحد الأطراف عن تنفيذ ما يتوجب عليه.

لا يمكن حصر مشاكل الطلاق وآثاره في بعض الحالات والأمثلة. نحن أمام شبكة مترابطة ومتداخلة، تبدأ من قرار اختيار الشريك والارتباط به ولا تنتهي بقرار الانفصال، تتداخل فيها المؤثرات النفسية والاجتماعية والاقتصادية. المطلوب ليس السعي وراء الكمال في العلاقة الزوجية أو الطلاق وإنما العمل على تنظيم ذلك. فتنظيم الخلافات يؤدي إلى الخروج منها بأقل الخسائر والأضرار، لذلك يتوجب على المراجع الروحية والشرعية عند تقدم أي شخصين لطلب الزواج، إخضاعهما لدورات تدريبية وتثقيفية يشارك فيها إختصاصيون اجتماعيون ونفسيون وقانونيون توضح للطرفين أهمية المشروع المقبلين على إنشائه والمسؤوليات المترتّبة عنه، وتمنحهما الفرصة للتفكير والتأكد من صحة خيارهما. كما يجب تعميم فكرة إلزامية توقيع اتفاقيات زواج تنظّم العلاقة بين الطرفين وتنظّم الخلاف بينهما، وتصحيح الأفكار المجتمعية السائدة التي تعتبر الاشتراط مساساً بـ«رجولة» الزوج أو عدم ثقة الطرفين ببعضهما، إذ إنه على العكس يحافظ على استمرارية الزواج وبنائه على أسس واضحة وسليمة، تضمن التخفيف من الآثار السلبية في حال الانفصال.

تحديد سنّ الحضانة

لا يظن أحد أن صدور حكم الطلاق يشكل إنهاء للصراعات بين الأطراف، فهو باب يُفتح أمام عواصف أخرى، تتمثل بالخلاف على الحضانة ورؤية الأطفال. فالقوانين الشرعية والروحية في لبنان تعتمد في تحديد الحضانة على سن الأطفال وليس مصلحتهم. وفيما تحدد المحاكم السنية في المادة 15 من قانون أحكام الأسرة سن الحضانة للأم حتى 12 عاماً للذكور والإناث، لا يوجد نص قانوني محدد عند الشيعة. فبناءً على العمل بمبدأ الاجتهاد في الفقه الشيعي تختلف الآراء الفقهية. ولكن ما هو معمول به حالياً سنتان للذكر وسبع سنوات للأنثى. وحدها طائفة الموحدين الدروز تعتبر أن الأم أحق بحضانة الولد وتربيته إذا اجتمعت فيها الأهلية المطلوبة.

في العمق

الآثار النفسية للجرائم الزوجية العنيفة
استهداف دموي لطالبة الطلاق

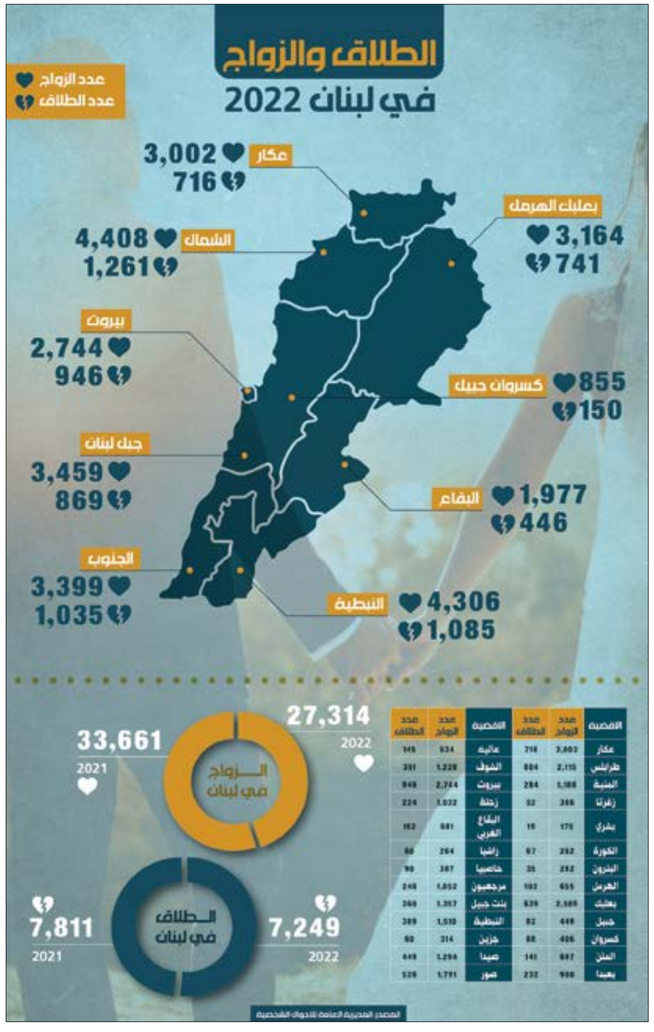

القضية	عدد الزواج	عدد الطلاق	القضية	عدد الزواج	عدد الطلاق
عكار	3,002	716	عاليه	934	145
طرابلس	2,115	804	الشوف	1,228	331
المنية	1,188	284	بيروت	2,744	946
زغرتا	386	52	زحلة	1,032	224
بشري	170	19	البقاع الغربي	681	152
الكورة	252	67	راشيا	264	68
البترون	282	35	حاصبيا	387	90
الحرش	455	102	مرجعيون	1,052	248
بعلبك	2,389	639	بنت جبيل	1,367	268
جبيل	449	82	النبطية	1,510	389
كسروان	406	68	جزين	314	60
المتن	1,294	141	صيدا	687	448
بعبدا	1,791	232	صور	900	528

سمر فرحات

تتعرض بعض النساء لأشكال مختلفة من العنف الزوجي، اللفظي والمعنوي والنفسي.. وصولاً إلى الضرب والقتل. وإذا كانت للإيذاء الجسدي آثاره الواضحة والمباشرة على حياة المرأة، فإن الإيذاء النفسي أشدّ ضرراً أحياناً، وهو ما يُعرف بـ«القاتل الصامت». ورغم كلّ المحاولات الجديّة لبعض الجمعيات ومن خلال سنّ قوانين حماية الأسرة والعنف الأسري، لا تزال هذه الآفة تفتك في جسد بعض الأسر وتهدّد استقرارها. فكيف تؤثر الجرائم الزوجية على صحة المرأة النفسية؟ وما الذي يدفع بعض الأزواج إلى العنف بديلاً من الطلاق كوسيلة لحل الخلافات الأسرية؟

إذا كانت الأسرة هي البيئة الآمنة لمختلف أفرادها، فإن ذلك يتطلب من كل الأطراف تحمل مستوى معيّن من المسؤولية وإدراك الحقوق والواجبات. إذ إن أيّ خلل في علاقات الأسر يؤثر على التناغم والترابط بين أفرادها. لكن، تبعاً لعوامل محددة، كالعقلية الذكورية والموروثات الاجتماعية التقليدية وغياب القوانين الرادعة، بات العنف وسيلة لبعض الأزواج لتفريغ غضبهم، وضبط حياتهم الزوجية ضمن قواعد يضعونها بأنفسهم.

وفي كل مرة تُطرح فيها علامات استفهام حول الأسباب التي تمنع المرأة من رفع الصوت عالياً ورفض كل أنواع العنف التي تمارس عليها، يأتي الجواب على شكل مخاوف تعانيها المرأة في مجتمعاتنا، كالخوف من الطلاق كـ«وصم اجتماعي»، أو الخوف من فقدان حضانة الأطفال، أو غياب القدرة المادية.

منى (25 سنة)، أمّ لطفلين، أجبرتها ظروف عائلتها المادية الصعبة على الزواج في سنّ مبكرة. ورغم تعرّضها لأسوأ أنواع المعاملة من قِبل زوجها، من توجيه الشتائم والإهانات إلى الضرب، إلّا أنها تعتبر أن «البقاء معه أرحم من العودة إلى منزل الأهل».

أما علا (35 سنة)، وهي أمّ لثلاثة أطفال، حاولت الهرب أكثر من مرة بعد تعرّضها لاعتداءات من قِبل زوجها كادت تفقدها حياتها. لكن، كان لعائلتها رأي آخر. إذ إن «البنت ما إلها إلا بيت زوجا». تعاني علا من اضطرابات نفسية وعصبية، وبات اللجوء إلى تعاطي الأدوية المخدّرة وسيلتها الوحيدة للصمود.

في المقابل، نساء كثيرات رفضن الظلم، وطلبن الحماية بعد رفعهنّ دعاوى طلاق، وكان الانتظار الطويل مصيرهنّ، بعدما واجهن معوّقات كثيرة تتعلّق بالتأخر في بتّ القضايا، وتعذّر إثبات بعض الأدلّة.. فكان أن خسرت بعض الضحايا حياتهنّ نتيجة لهذا التأخير. منى عاقوري (مواليد 1977)، أمّ لثلاث بنات، كانت آخر ضحايا العنف الزوجي. قتلها زوجها أمام أعين بناتها في بلدة بلاط قضاء جبيل، بعد أشهر على تقدّمها بدعوى طلاق وتعنيف.

الصحة النفسية أولوية

لا شك أن للعنف تأثيراً كبيراً على صحة المرأة النفسية، وهو ما ينعكس على سلوكها وأفكارها ودورها ضمن أسرتها. الأمر الذي أكدته العديد من الدراسات والإحصاءات، بعدما تبيّن أن علاقة قوية تربط بين العنف الزوجي والاضطرابات النفسية. فالعنف يؤدي إلى الاكتئاب، والشعور بالتعب والإرهاق، واضطرابات النوم والقلق الاجتماعي، والأعراض الرهابية (المخاوف المرضية - الفوبيا). وتوضح المتخصصة في علم النفس تغريد حيدر، أن المرأة التي تتعرض للعنف تصبح أكثر ميلاً إلى العزلة لشعورها بالدونية وفقدانها الثقة بنفسها، وهذا ينعكس سلباً على علاقتها بأطفالها وبالتالي زعزعة قواعد التربية السليمة. تختلف الآثار بحسب مدة التعرض للعنف وتكراره. فالعنف المتكرر يفقد المرأة شعورها بالاستقرار والأمان، ويزيد من نفورها ليس فقط من زوجها، بل من كل الذكور بسبب تعميمها لنموذج المعتدي.

وتشير حيدر إلى أن زيادة الوعي ضمن الحياة الأسرية تجاه الحقوق والواجبات والوعي القانوني يحمي المرأة في حال تعرّضها للعنف. فبعض النساء لا يدركن أنواع التعنيف الممارس عليهنّ، بل يعتبرن أنه نمط طبيعي ضمن الأسرة. وهذا مفهوم خطير ينبغي تصويبه. كما توضح أن للمدارس دوراً مهماً في نشر هذه الثقافة، وخصوصاً للفئات المقبلة على الزواج، كوقاية مسبقة لمعرفة دور كل منهنّ في الأسرة، ومعرفة حقوقها وواجباتها.

من جهة أخرى، يفترض أن يساعد الإعلام في التركيز على الضحايا والآثار الناجمة عن العنف تجاه المرأة والأسرة ككل، وفي تصويب النظرة الخاطئة التي تشير إلى أن بعض الأديان قد أجازت العنف، فيما الحقيقة أنها حفظت للمرأة كرامتها.

وإذا كان لا بد للمرأة من أن تستمر في حياتها الزوجية رغم كل الظروف، فإن العلاج النفسي ينبغي أن يكون من أولوياتها من خلال التقنيات المختلفة. وتختلف بحسب الحالات، إن كان العلاج المعرفي السلوكي، أو التفريغ النفسي، ما يساعدها على التكيّف مع دورها كأمّ وزوجة.

> ما الذي يدفع بعض الأزواج إلى العنف بديلاً من الطلاق كوسيلة لحل الخلافات الأسرية؟

مقابلة

اجرتها
فاطمة خشاب درويش

السيد علي فضل الله

التشريعات نزلت بشرط الإنسانية

- وسائل التواصل تمارس تشويشاً بطرحها نماذجَ غير واقعية
- الاولاد ولا سيما الصغار منهم هم ضحايا الخلافات الزوجية
- موضوع الحضانة والنفقة يمكن تضمينها في عقد الزواج
- من المفيد إقامة دورات وورش عمل للمقبلين على الزواج
- الخلاف بوجود الأخلاق يكون أقل ضرراً

■ كيف تنظرون إلى واقع الخلافات الزوجية المؤدية إلى الطلاق، انطلاقاً من الشكاوى والمراجعات التي تردكم، وهل هي في ازدياد وما هي الأسباب برأيكم؟

- يمكننا القول من خلال ملاحظاتنا ومتابعاتنا إن المراجعات والشكاوى بشأن الطلاق التي تصلنا هي في ازدياد أسوة بالسنوات الماضية بنسبة تتجاوز الـ20%، عاماً بعد عام. ومما يُلحظ في هذا المجال من الحالات التي تصلنا أن نسبة النساء اللواتي يبادرن إلى رفع الشكاوى طلباً للطلاق في ازدياد، بعد أن كانت المرأة عموماً لا تبادر إلى طلب الطلاق. وهذا أمر لافت. ومما يُلحظ كذلك أن المراجعات والشكاوى بين الزوجين تصلنا بعد فترة قصيرة نسبياً من عمر الزواج، ما يشي بأن علاج الخلافات الزوجية حتى في الفترات المبكرة من الزواج أضحى أكثر صعوبة. والملاحظ أن الخلافات غالباً ما يصاحبها تشنج متبادل بين الزوجين أكثر من ذي قبل عندما كان طابع الكثير من الحالات هو الرغبة المشتركة أو على الأقل من أحد الزوجين إلى الإصلاح وإيجاد وسيط لحل الخلافات. وأخيراً فالملاحظ أن استسهال الطلاق والانفصال بين الزوجين تصاحبه قلة تدخل من الأهل مقارنة بالفترات السابقة، حين كان للأهل حضور مؤثر في حل الخلافات بين الزوجين. ومن جانبنا كمهتمين بمعالجة المشاكل الشرعية والتوسط لعلاجها، نسعى للحل والإصلاح وتبيان الحقوق وتقريب وجهات النظر. إن الحالات الشديدة التعقيد التي قد يكون فيها الطلاق محسوماً يتم تحويلها إلى العمل الإجرائي الذي ليس سهلاً أيضاً، خاصة مع صعوبة الوصول إلى الزوج الذي هو الطرف المشكوّ منه في حالات الطلاق بطبيعة الحال.

أما الأسباب فهي متنوعة ومتقاطعة، حيث يفرض الجو العام نفسه ويقتحم الأُسر بشدة، خاصة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الصعبة التي نعيش تبعاتها في لبنان والتي تنعكس ضغوطاً وتوترات في العلاقة الزوجية. هذا كله يترافق مع متغيرات مفاهيمية واضحة على المقدمين على الزواج، والنتيجة هشاشة المنطلقات وعدم الصبر وغياب التضحية وعدم التحلي بروح المسؤولية، خاصة عند الأزواج الذين يتركون أسرهم اختياراً أو قسراً ويسافرون لفترات طويلة.. وقد تنقطع أخبارهم في بعض الأحيان. وفي هذا المجال، لا نغفل دور وسائل التواصل التي تمارس تشويشاً بطرحها نماذج غير واقعية، تشكل ضغطاً نفسياً على الزوجين كلٌّ من زاويته وصولاً إلى عدم القناعة عن الطرف الآخر أو عن الذات.

> نحن ننصح خلال إجراءات الطلاق الا يكون التوافق محصوراً بالامور المادية فقط ولكن ندعوهم للتوافق أيضاً على كيفية معاملة الطفل

■ يعيش الزوج في بعض الأحيان حال تعنّت حيث يرفض الطلاق إلا ضمن سلة شروط قاسية، ما رأيكم، وما هي العلاجات المطروحة؟

- هذه مسألة حساسة، ونحن نقول إنه لا يمكننا مطلقاً أن ندعو إلى إزالة الضوابط التي وضعتها الشريعة الإسلامية، وتسهيل الطلاق لكي يصبح حلاً متوافراً عند أي خلاف لا تخلو منه أي علاقة زوجية، نظراً إلى تبعات الطلاق على العائلة ولا سيّما الأطفال، ما ينعكس على المجتمع كلّه.

ولكن لو فُرض أن العلاقة بين الزوجين وصلت إلى حائط مسدود وزالت المودة وانتفى التفاهم، وفشلت محاولات الإصلاح وتقريب وجهات النظر، لكان وجب على الزوج عند ذلك أن يستجيب لرغبة زوجته بالطلاق، وألا يتعنّت بمطالبه، انسجاماً مع قيمه الدينية التي جرى عقد الزواج على أساسها والتي تفرض أن تكون حساسيته عالية تجاه الانتقاص من حقوق زوجته وعائلته.

والقرآن الكريم واضح في الأسلوب الذي يجب أن يحكم الزواج عندما تنتفي السبل للإصلاح: "فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ". وَلا ثالث لهما. للأسف، نعم هناك حالات كثيرة يستغل بها الزوج حقه بالطلاق، وهذا في أحيان كثيرة برأينا يعود إلى التطبيق الانتقائي للأحكام الشرعية وتجريدها من أبعادها الأخلاقية التي هي عمق الدين.

وفي حالات التعنّت لا بد أن نشير إلى أن الشريعة الإسلامية أفسحت مجالاً للحاكم الشرعي أن يلعب دوراً كبيراً في هذا الشأن للتدخل لفرض الطلاق وإلزام الزوج بالقيام بكل ما هو واجب تجاه زوجته وأسرته، إن هو لم ينفق ولم يعاشرها بالمعروف أو أساء إليها، وهنا نرى أهمية توسعة البحث الفقهي والاجتهاد ليشمل ما هو أبعد من ذلك.

■ هناك من يطالب بوضع شروط ضمن عقد الزواج لحماية المرأة والأولاد، ما هو رأيكم بذلك، وهل الموضوع قابل للتطبيق؟

- بخصوص شروط ضمن عقد الزواج لحماية المرأة والأولاد، نعم، لقد اعتنت الشريعة الإسلامية بهذا الجانب، فأجازت للمرأة أن تضمّن عقد زواجها شرطاً هو أن تكون وكيلة عن الزوج في طلاق نفسها، إما مُطلقاً أو في حالات خاصة، وجعلت هذا الشرط مُلزماً للزوج. كذلك الأمر في موضوع الحضانة والنفقة وما إلى ذلك من البنود التي يمكن تضمينها في عقد الزواج. ومن المهم في مجتمعنا أن نثقّف المقبلين على الزواج بما يتضمّنه عقد الزواج من واجبات وحقوق وبما يمكن الاتفاق عليه بحيث يصبح ملزماً للطرفين. وهذا ما نلفت إليه من يتقدمون إلى الزواج ليعرفوا ما هو المتاح لهم ويكونوا على بيّنة قبل إجراء العقد. ومن خلال تجربتنا نلاحظ أن خطوة وضع الشروط وإن كانت تجد مقبولية لدى البعض بشكل أكثر من ذي قبل لكنها لا تزال تُواجَه بالاستغراب أو بالرفض لدى آخرين.

(انجك بوليغان ـ المكسيك)

■ الطلاق يجرّ معه ضحايا غالباً هم الحلقة الأضعف ونقصد الأطفال. ما دوركم في هذه الحالات وهل تلحظون مصلحة الأطفال عادة بمعزل عن مصلحة الأم أو الأب؟

- نعم، هذا هو الواقع، فإن الأولاد عموماً، ولا سيّما الصغار منهم، هم ضحايا الخلافات الزوجية في كل مكان، هذا لو نجح الزوجان في تحييد أولادهما، فكيف إن لم يكونوا حكماء في تحييدهم. إننا أمام واقع مؤسف، هو أسوأ آثار الطلاق وأبرز جوانب مبغوضيته، الذي سيحفر عميقاً في نفوس كثيرين منهم، فتطبع شخصياتهم وسلوكياتهم عندما يكبرون. وهذا ما نشهده في المدارس والمؤسسات الاجتماعية التي تستقبل الأطفال من حالات طلاق لرعايتهم، إذ يلاحظ أن الأمور لا تسير بالسهولة بل يحتاج العديد منهم إلى متابعة نفسية وسلوكية وعلاجات ومتابعات مع الأهل داخل المؤسسات وخارجها.

لهذا نحن دوماً ننصح خلال إجراءات الطلاق ألا يكون توافق الأطراف محصوراً بالأمور المادية والنفقة، على ضرورتها، ولكن ندعوهم للتوافق أيضاً على كيفية معاملة الطفل، بما يشبه وثيقة أخلاقية وتربوية تفصيلية وعملية يتعاهدون عليها لتجنيب الطفل آثار أزمتهما وتخفيف الأضرار عنه حتى لا يصبح الطفل صندوق بريد أو كاميرا تسجيل ونقل أخبار بين الأم والأب. وما نؤكد عليه أمامهم دائماً أن ولاية الأب ليست امتلاكاً وامتيازاً وحق الحضانة ليس مكسباً وانتصاراً بقدر ما هما مسؤولية كبرى، لا بد أن تأخذ في الاعتبار مصلحة الأطفال أولاً.

■ وماذا عن الموضوع الشائك: الحضانة الشرعية وتنازع الطفل؟

- الحضانة من الناحية القانونية في المحاكم الشرعية محدّدة ولها نظامها، وتختلف بين المذاهب وضمن المذهب الواحد حول تقسيمها بين الأب. ونشهد اعتراضات في بعض الحالات على مدة الحضانة، خاصة من قِبل الأم. نحن دوماً ننصح بالتوافق بين الزوجين لما في ذلك من مصلحة للجميع حتى لا نقع في المحذور ويصبح الأولاد محل نزاع معلن. في الوقت نفسه نرى أن الحاجة باتت ضرورية لإعطاء البحوث الجديدة في الفقه الأسري أولوية بما يضمن مصلحة الأطفال.

بقي أن نذكر -كما ذكرنا سابقاً- في موضوع الحضانة أن الشروط التي قد يضمّنها الزوجان في عقد الزواج مهمة أيضاً. وأهمية هذه الخطوة ليست شرعية وقانونية بل إنها قد تشجع المقبلين على الزواج على النقاش والتفاهم على مثل هذه المواضيع بشكل سابق لأوانه، ما قد يبرد المشاكل في المستقبل. وكذلك فإن مثل هذه النقاشات قد تسلط الضوء على جوانب في شخصية المقبلين على الزواج قد تكون خفية أو مضمرة. وأخيراً نقول إن تدخل الأهل والعائلة أمر ضروري، وهذا تاريخياً كان شبكة أمان للأطفال في مجتمعاتنا.

■ سماحة السيد، برأيكم ما الذي يساعد في تحصين الأسرة أولاً وعدم الوصول إلى طلاق مؤذٍ بين الزوجين، هل هناك من مقترحات مساعِدة في هذا الإطار؟

- لا شك أن تحلّي الزوجين بالإيمان والأخلاق هو ركيزة الأسرة السعيدة والمستقرة، ومن الضروري عند الزواج اختيار الشريك الخلوق كشرط أساسي، ولكنّ هذا الشرط على أهميته يجب أن يقترن بالانسجام من ناحية التكافؤ والطموح والتطلع إلى المستقبل وما إلى هنالك.

لذلك من المفيد -وهناك مبادرات مشكورة- أن تتوفر دورات وورش عمل للمقبلين على الزواج حتى يتفكروا في ما يتضمّنه عقد الزواج من حقوق وواجبات اجتماعية وشرعية، وتكون هذه الدورات والورش فرصة ليخطط المقبلون على الزواج لمستقبلهم وليكونوا واعين لكل خياراتهم. إضافة إلى ذلك فإن على المعنيين بالتوجيه أن يهتموا بالإرشاد الأسري عند الزواج وفي أثنائه، فيقوم المعنيون بمواكبة الأسرة بالتوجيهات النافعة أو بتوفر المعالجين النفسيين والاجتماعيين. كما يجب على الإعلام أن يلعب دوراً كبيراً في هذا الشأن.

من تجربتنا مع حالات كثيرة نرى أن الخلاف بوجود الأخلاق يكون أقل ضرراً. فالأخلاق تكبح المشاكل، فلا كيدية أو نكد ولا غش أو خداع. وصفة التحلي بالإنسانية تسهّل تطبيق التشريعات، لأنها -أي التشريعات- نزلت بشرط الإنسانية، فالإنسانية هي الحاكمة.

المختبر الجنائي

التحقيقات العلمية في الجرائم الزوجية

محاولات إخفاء الدليل

جنان الخطيب

بين رجل يقتل زوجته، وأمّ تتشارك وأبناءها في قتل الأب، تتعدّد الأسباب التي تقف وراء الجرائم الزوجية. قد تكون الأوضاع المعيشية الصعبة وضغوط الحياة من أبرز أسباب الخلافات الأسرية، التي يمكن أن تُترجم عنفاً جسدياً أو عملاً جنائياً، إضافة إلى دوافع أخرى كالخيانة الزوجية وجرائم الشرف.

تزداد التحقيقات صعوبة عندما يصبح المنزل الزوجي بيئة خصبة لارتكاب الجرائم، ولا سيّما مع الحق القانوني لأفراد العائلة بحماية مرتكب الجريمة، والطبيعة الحساسة للعلاقة بين الضحية والجاني، وتدخّل «كبار العيلة» لحل الموضوع تجنباً للفضائح. ناهيك عن وجود وقت كافٍ أمام المرتكب لتنظيف مسرح الجريمة وفبركة الأدلة مقارنة بالجرائم الأخرى. في معظم هذه الجرائم، غالباً ما يميل المحققون إلى تصديق فرضية «الانتحار» وإثباتها. من هنا، يلعب «الدليل المادي» الدور الأهم لكشف ملابسات هذا النوع من الجرائم، لمنع إفلات المجرم الحقيقي من العقاب.

الجثة على السرير. سريعاً، نطّقت الزوجة السلاح ووضعته إلى يمين زوجها. غسلت يديها، بدّلت ملابسها واتصلت بالصليب الأحمر زاعمة أن زوجها أقدم على الانتحار. لم يتم التعامل مع مسرح الجريمة بشكل مهني، أهملت العديد من الأدلة، ولم يُكشف على جميع الغرف. ورغم تناقض إفاداتها في وقت لاحق، بعد مرور وقت طويل على الجريمة، لم تعد لدى المحققين أدلة مادية يركنون إليها في تحليلهم الجنائي.

المسح الدقيق والشامل

يُعتبر المسح المتقن والدقيق من أهم الخطوات التي يفترض أن يقوم بها عناصر مكتب الحوادث خلال الكشف الحسّي على مسرح الجريمة. ومن الضروري أن يشمل المسح كل غرف المنزل الزوجي بما في ذلك الحمامات والمتخّتات والمساحات الخارجية، كالحديقة والكاراج وغيرهما.

كذلك يفترض أن يتضمّن المسح كشفاً تقنياً باستعمال الإضاءة الجنائية المناسبة (فوق البنفسجية / البيضاء الموجهة) وغيرها من المواد الكيميائية (لومينول) للتحري عن آثار بقع دماء جرى تنظيفها، بما في ذلك الجدران والأسقف والتأكد من استخدام أي معالجات فيزيائية (حفّ الطلاء مثلاً) لإخفاء الأدلة.

من خلال المسح الدقيق يمكن العثور على أدوات الجريمة كالسكاكين مثلاً (في جرائم الطعن) في أماكن مُخفاة كالمتخّتات أو النفايات. كما يمكن العثور على تلك الأدوات نظيفة في أماكنها المعتادة. في الحالتين، العثور عليها أساسي لمقارنتها مع الطعنات على الجثة.

وللكشف الدقيق والشامل على مسرح الجريمة في الجرائم الزوجية أهمية خاصة، بسبب الوقت الكافي المتاح للمرتكب لتنظيف مسرح الجريمة أو حتى فبركته على شكل جريمة انتحار.

> للكشف الدقيق والشامل على مسرح الجريمة في الجرائم الزوجية أهمية خاصة، بسبب الوقت الكافي المتاح للمرتكب لتنظيف مسرح الجريمة أو حتى فبركته على شكل جريمة انتحار

تحليل السموم

يلعب التحليل الكيميائي الجنائي Forensic Toxicology لعيّنة الدم التي تُسحب من الجثة دوراً مهماً خلال التحقيقات لتحديد ما إن كان الضحية قد أقدم على تنويم الضحية قبل تنفيذ الجريمة. وهذا ما يحدث عادة في الجرائم الزوجية، إذ تقوم الزوجة بتنويم زوجها لتتمكن منه جسدياً. كما قد تساعد محتويات المعدة أثناء تشريح الجثة على تحديد ما إن تم تسميم الضحية قبل الجريمة.

البحث عن الادلة الاثر

لا تتمتع الأدلة الأثر (الشعر والألياف وغيرهما) تحت أظفار المشتبه به في الجرائم الزوجية بالأهمية نفسها مقارنة بالجرائم الأخرى. لكن، في بعض الأحيان، قد تحمل معلومات مهمة جداً. فقد يكون من الطبيعي أن نجد شعر/ الحمض النووي التابع للزوج تحت أظفار زوجته (والعكس)، إلا أن وجود نوع معيّن من التربة تحت أظفار المشتبه به يتشابه مع التربة حيث وجدت الضحية له قيمة دلالية عالية.

الابتعاد عن الاحكام المسبقة

في معظم الجرائم العائلية، يصوّر الجاني جريمة القتل على أنها انتحار. وهذا ما نراه أيضاً في جرائم الشرف، فتجتمع العائلة بأكملها إلى جانب المرتكب منعاً للفضيحة. يؤثر ذلك في مسار التحقيقات، ويقتنع المحققون بفرضية الانتحار حتى قبل انتهاء نتائج المباحث العلمية. وما يزيد الطين بلّة تقارير معظم الأطباء الشرعيين، التي غالباً ما تحسم أن الضحية أقدمت على الانتحار. يبني الطبيب قناعته من خلال النظر إلى جرح دخول الطلق الناري فقط، من دون انتظار نتائج مسار الطلق ومحاكاة مسرح الجريمة. هذه العوامل وغيرها تؤثر سلباً في سير التحقيقات، فيبحث المحقق عن الأدلة التي تثبت فرضيته المفضلة، بغضّ النظر عن الحقيقة العلمية. ومع غياب الكفاءة والشغف، وتدهور قيمة الرواتب والأجور، يبدو أن فرضية «الانتحار» باتت الأسهل والأنسب للمحقق والجاني. فيقع على عائلة الضحية عبء إثبات «الظلم الذي أودى بحياة الضحية».

الدوافع

تشمل الدوافع التي يبلَغ عنها الرجال عادةً التملّك والغيرة والخوف من الهجران والخيانة الزوجية. أما الدوافع التي عادة ما تبلَغ بها النساء فتتعلق بفترات طويلة من المعاناة من العنف الجسدي. مع الأخذ في الاعتبار الأسباب الأخرى كالاضطرابات النفسية.

هل يمكن أن يكون إخفاء مرتكب الجناية قانونياً؟

في بعض الجرائم العائلية، قد يتفق أفراد الأسرة على التخلص من الأب، فيما تنفّذ الأم الجريمة (أو العكس)، أو ربما يكونون شهوداً فقط على ما حدث، إلا أنهم يتمتعون قانونياً بالحق في إخفاء مرتكب الجريمة ومساعدته على الفرار، إذ تنصّ المادة 222 من قانون العقوبات -في المتدخّلين والمخبئين: "من أقدم في ما خلا الحالات المنصوص عليها في الفقرتين الخامسة والسادسة من المادة 219 على إخفاء شخص يعرف أنه اقترف جناية، أو ساعده على التواري عن وجه العدالة، عوقب بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين. يعفى من العقوبة أصول الجناة المخبئين أو فروعهم أو أزواجهم أو زوجاتهم حتى الطلاقات، أو أشقاؤهم أو شقيقاتهم أو أصهارهم من الدرجات نفسها". كما تنصّ المادة 410 -في شهادة الزور: «الشاهد الذي يتعرض حتماً إذا قال الحقيقة لخطر جسيم له مساس بالحرية أو الشرف أو يعرّض له زوجه ولو طالقاً أو أحد أصوله أو فروعه أو إخوته أو أخواته أو أصهاره من الدرجات نفسها».

في قلب القوس

قضاء من دون استقلالية = جسدٌ بلا روح

القاضي فيصل مكي

الاستقلالية هي جوهر القضاء وحصنه المنيع، وضمانة الضمانات ليكون ويبقى سلطة فعلية حقيقية. ومهما كانت الضمانات والحقوق والامتيازات الممنوحة للقضاة كبيرة، إلا أنها تبقى غير كافية للوصول إلى قضاء مكتمل الدور، طالما لا يتمتع القضاء والقضاة باستقلالية كاملة وناجزة ومحرّرة من أي ارتباط تَبَعي بالسلطة التنفيذية، وبعيدة عن الحدود التي دأبت وما زالت تلك الأخيرة على رسمها للعمل القضائي.

انطلاقاً من ذلك، الاستقلالية للقضاء كالروح للجسد. فكلما ارتفع منسوب الاستقلالية كان القضاء أكثر حيوية، وكلما كان القانون يسمح بتدخّل السلطة التنفيذية في القضاء انخفض مستوى الاستقلالية، وانخفضت معه فاعلية القضاء وتقلّص دوره.

استقلالية السلطة القضائية ليست امتيازاً للقاضي ولا ترفاً يفتخر به أو نيشاناً يعلّقه على صدره، إنما هي ركيزة دستورية جوهرية لقيام الدولة وانتظام عملها. وهي حق لكل مواطن بأن يكون لديه قضاء مستقل عن السلطتين الأخريين، قادر على التصدّي لكل الملفات، فاعل في شتى المجالات، قوي على المستقوي والمستبد، رحوم مع الضعيف، منتصر للمظلوم، مقتدر بذاته دون منّة من أحد، مُنزّه عن الشوائب، حاسم من دون أي مساومات، مُطَمئِن للجميع، ضامن للمساواة من دون انحياز لأحد.. وكل ذلك يوجب على السلطة السياسية أن تقرّ بالاستقلالية أولاً، ثمّ تكرّسها قانوناً ونهجاً وممارسةً.

من جهة أخرى، يكون واهماً من يظن أن السلطة ستمنح القضاة استقلاليتهم الكاملة بشكل تلقائي وسلس. فما من صدام حصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية إلا وكان سببه -الظاهر أو الخفي- الاستقلالية. وعليه، هذه الاستقلالية لن تتحقق بالانتظار وبالرهان على حسن نيّة من لا يريدها أصلاً، بل من خلال نضال طويل بشتى الوسائل المشروعة.

من هنا كانت نشأة نادي قضاة لبنان الذي يهدف أساساً إلى المشاركة في هذا المسار النضالي للوصول إلى استقلالية فعلية وكاملة للقضاء، ومواجهة كل ما من شأنه تقويضها واستثارة الوعي على أهميتها، وذلك بالتعاون الوثيق مع قضاة من خارج النادي.

فبعدما كان النادي حلماً يدغدغ مخيلة القضاة، استحال واقعاً جميلاً

> **إن لم نصل إلى الاستقلالية الكاملة للسلطة القضائية فعبثاً قيام الدولة**

بعد طول معاناة، وترسّخ فعلاً بعد طول أناة، وأزهر ضميراً راسخاً بعد جملة عقبات. فالاستقلالية هي حلم أكثرية القضاة المتشوّقين لممارسة دورهم على أكمل وجه، التوّاقين إلى وجود منظومة قانونية تحميهم من أي تعسّف أو طغيان، المنتظرين لإنصافهم ومعاملتهم بصورة متساوية مع زملائهم من دون أي محاباة أو انتقام، الآملين في تحديد معايير موضوعية للتقييم والتشكيل والتعيين.

لكن شتّان بين الأحلام والأوهام، فكما قيل سابقاً: «ثمرة العقول لا تجتني إلا بإطلاقها من قيود الأوهام. قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام». وكما أشرنا سابقاً، لا يتوهمن أحد أن الاستقلالية قابلة للتحقّق بالأمنيات والشعارات، إنما تتطلب جهداً فاعلاً وعزيمة قوية وعملاً دؤوباً ومطالبة جادة وتعاوناً شاملاً ومؤازرة شعبية، فكما الحرية تؤخذ ولا تُعطى، كذلك الاستقلالية..

وانتزاع هذه الاستقلالية لا يتحقق إلا في ظل وجود وعي جماعي مدرك لأهميتها، وعبثاً ينجح أي نضال في فرض التغيير وتحقيق الاستقلالية المنشودة ما لم يؤازَر القضاء برأي عام متضامن، واعٍ لحقه ومصلحته في قضاء عادل ومُستقل، ولواجبه في تحقيق هكذا قضاء والدفاع عنه.

ومن هنا يأتي دور النادي أيضاً في المساهمة في خلق هكذا وعي وفي تعزيزه.

فالوعي هو المفتاح لاستعادة الدولة، ولا استعادة للدولة من دون سلطة قضائية مستقلة. هم يراهنون على تشتيت الانتباه بعيداً عن الوعي، ولكن قوة الجمهور، عندما تتسلّح بالمعرفة، ستُجبر في النهاية على فرض المأمول والمُراد.

ولذلك، لن تؤتي معركة الحصول على استقلالية السلطة القضائية أكلها من دون اقتناع الجميع بوجوب التضافر. إذ أن المتضررين من الاستقلالية سيعتمدون كل الوسائل -وما أكثرها- لتوهين الإرادة والمماطلة وتقليص حجم التغيير المطلوب والخروج بنظريات يُراد بها باطل.

وعلى هذا، يقتضي التيقّظ إلى أن منح الاستقلالية الجزئية يوازي عدم الاستقلالية، فلا قضاء فاعل من دون استقلالية تامة، ما يستوجب التدقيق في مضمون ما هو مقترح ومدى انسجامه مع معايير الاستقلالية وعدم الانتشاء بالعناوين البراقة. فالخشية هي في إقرار قانون فارغ المضمون.

وأهم ما هو مطلوب في القانون، وضع قواعد صارمة وصمّامات أمان تحول دون التسييس والتطييف والتعطيل والتفخيخ والتمييع.

وكما كان نادي قضاة لبنان حلماً وردياً تجسّد واقعاً بإرادة مؤسسيه وأعضائه الذين آمنوا بالفكرة وسعوا إلى تكريسها رغم كل الصعاب والعقبات.. كذلك الاستقلالية، طالما أن الإيمان بها قائم، لا بد أن تتحقق بعد إزالة العقبات وتجاوز الصعاب. وإلا.. إن لم نصل إلى الاستقلالية الكاملة للسلطة القضائية، فعبثاً قيام الدولة، وليُقرع لحن الموت على قارعة وطن قيد الانتظار.

(انجل بوليغان ـ المكسيك)

* رئيس نادي قضاة لبنان

القوس
■ فريق التحرير: عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، ألف باء القانون
■ تصميم فني وإنفوغرافيك: رامي عليّان
alqaous al_qaous alqaous22 alqaous 01/34 99 54
info@alqaous.com www.alqaous.com